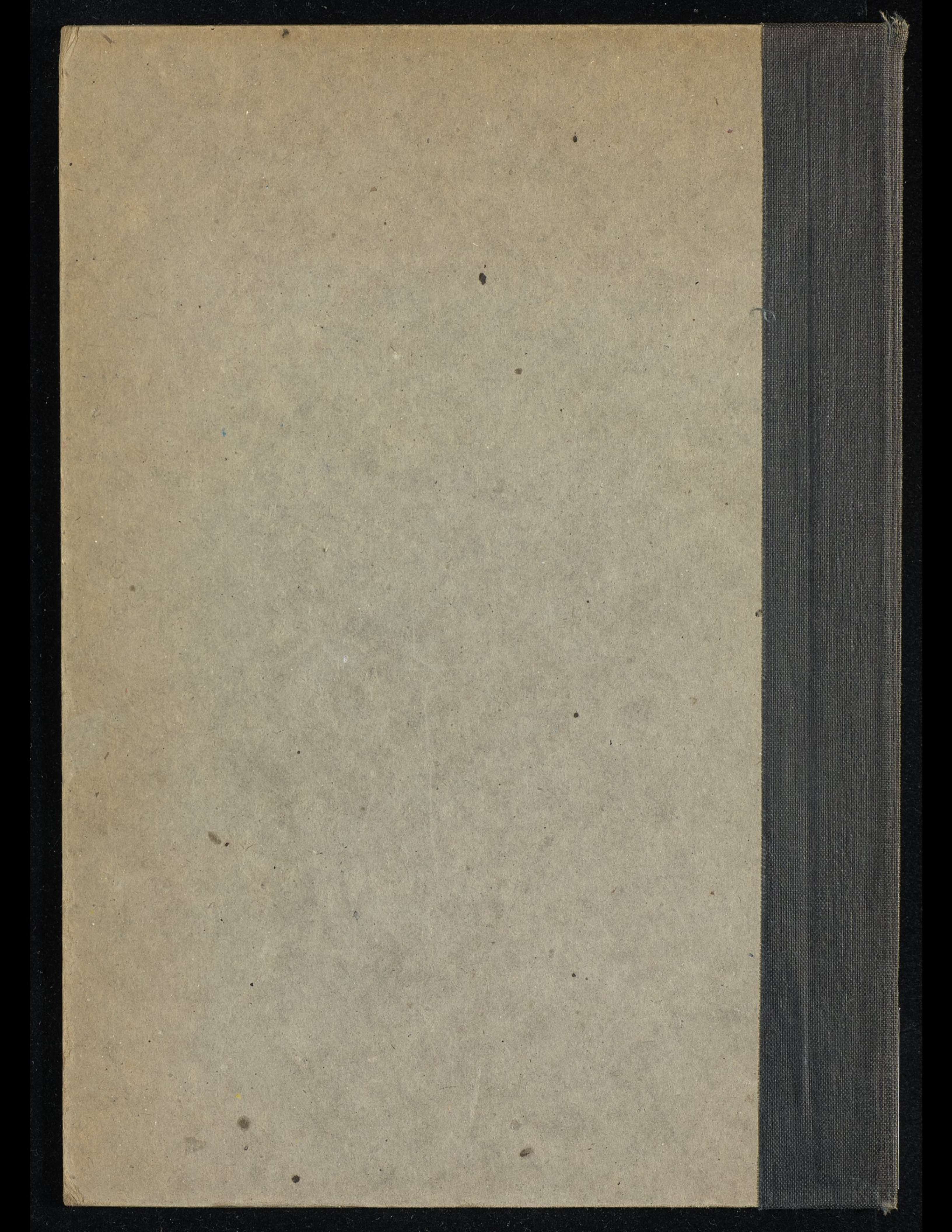
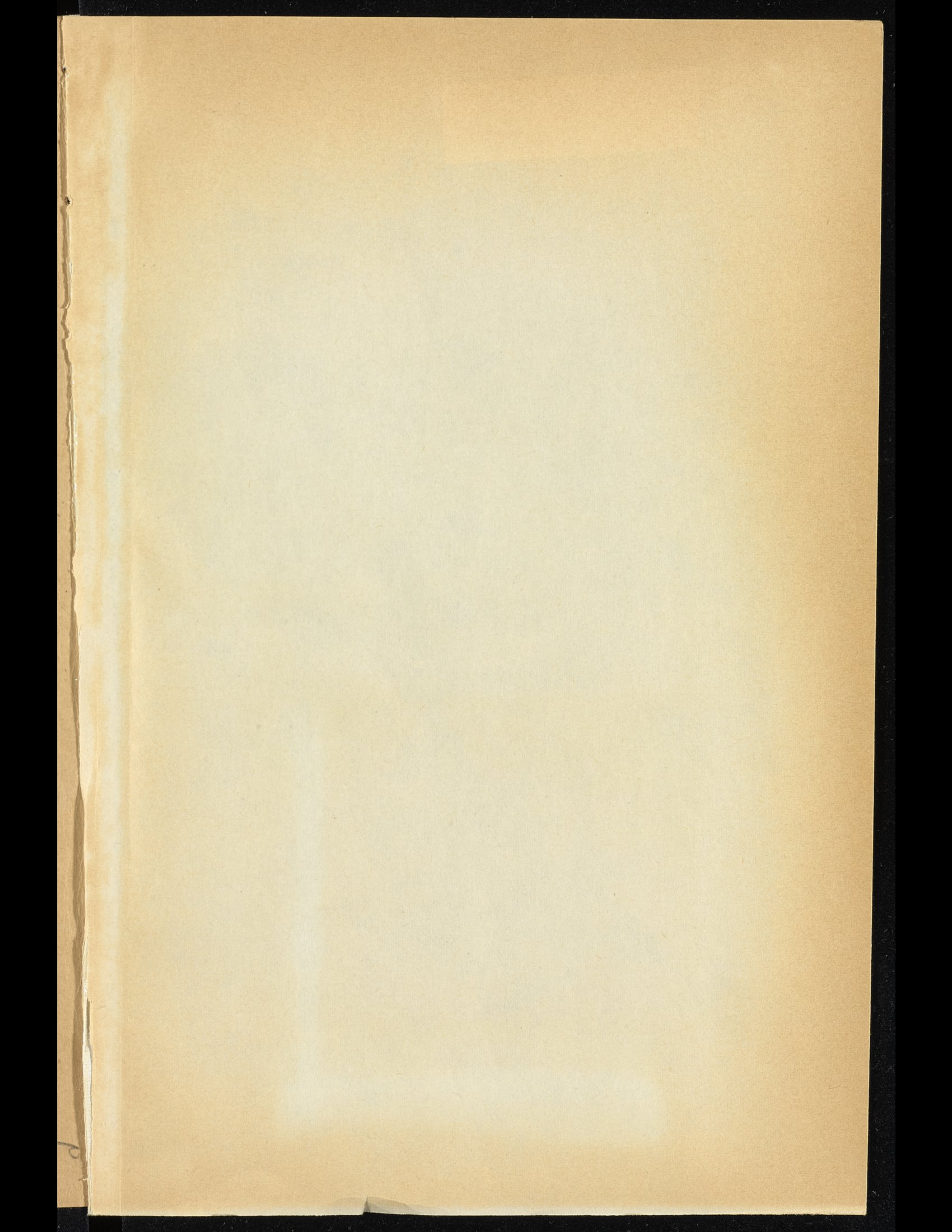



PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 015157272



1,55

من أحاديث الدعوة

٣

أخلاقنا الاجتماعية

بقلم

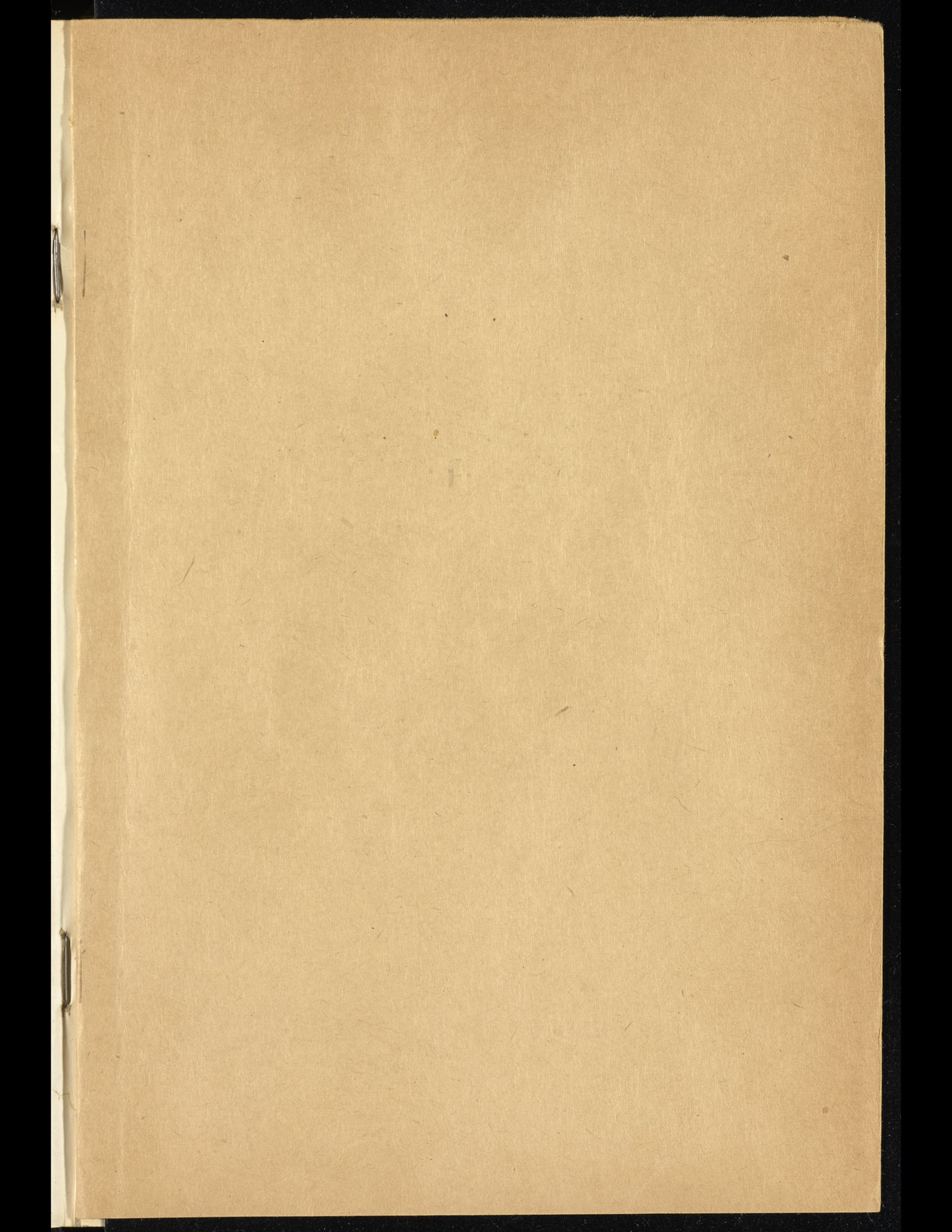
مصطفى السباعي

عميد كلية الشريعة في الجامعة السورية

الناشر

مكتبة الشباب المسلم

دمشق - ص . ب ٥٥٦



من أحاديث الدعوة

٣



بقلم

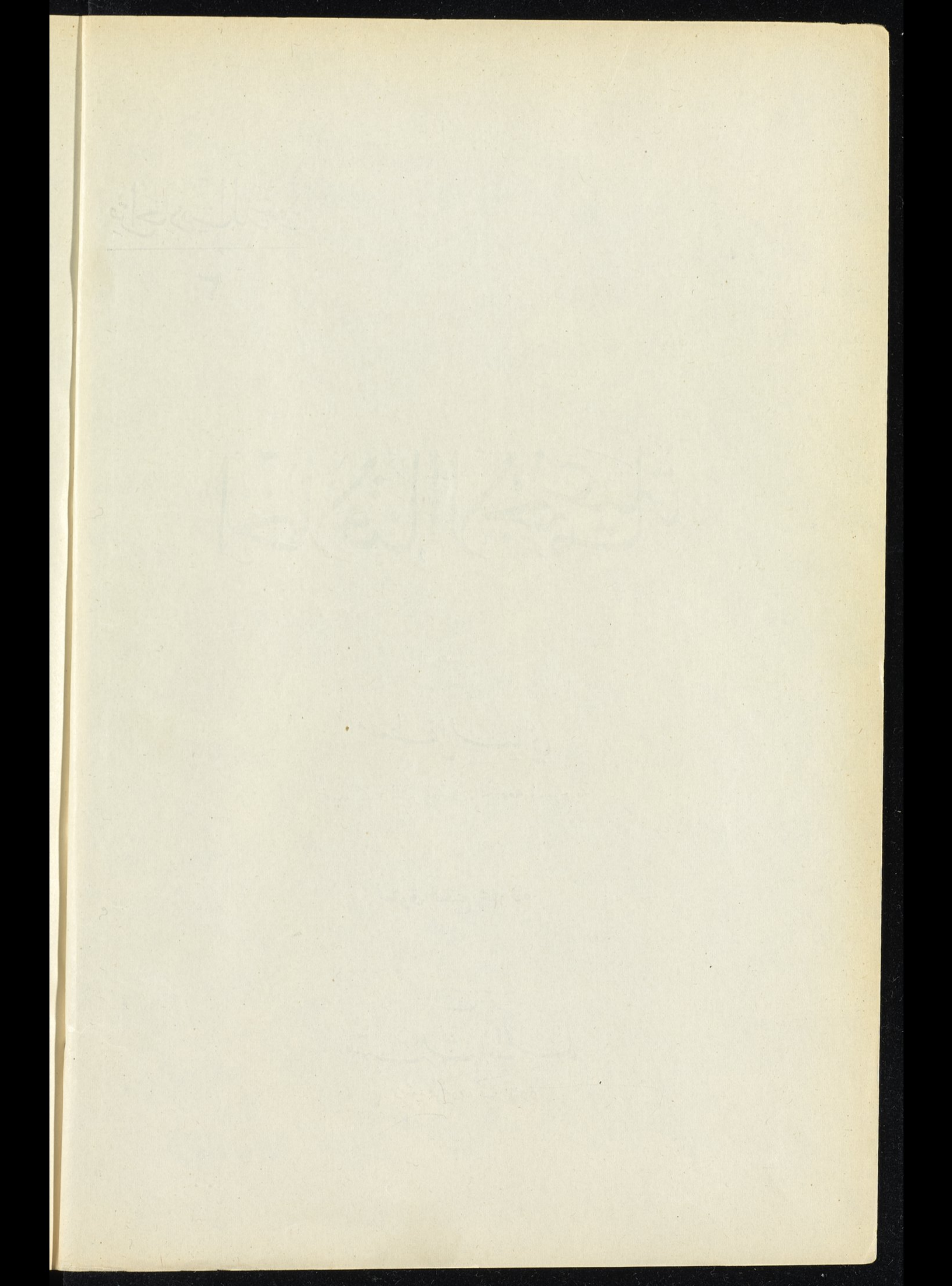
مصطفى السباعي

عميد كلية الشريعة في الجامعة السورية

الناشر

مكتبة الشباب المسلم

دمشق - ص. ب ٥٥٦



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد فهذه أحاديث كنت أذعتها من محطة الاذاعة السورية بدمشق تحدثت فيها عما نشكوه من ضعف وانحراف في اخلاقنا الاجتماعية ، بأسلوب سهل يفهمه الناس على اختلاف ثقافتهم ، استندت فيه الى القرآن والسنة والتاريخ والتجربة والمشاهدة لأخلاقنا وأوضاعنا الاجتماعية بعد أن أصابني بعض لأوائها وأذاها ، وقد كان لي من حياتي العملية ـ سواء في ميادين التربية أو السياسة أو الدعوة ـ ما جعلني أتحدث عن أخلاقنا حديثا فيه القسوة أحيانا وفيه الصراحة ، ولكني كنت أبغي الخير والقيام بالواجب الذي ألقاه الله على دعاة الاصلاح ، وقد كنت أود أن أفيض فيما تحدثت به لولا أن الوقت المخصص لكل حديث ـ وهو ربع ساعة ـ لم يكن ليتسع لأكثر مما ذكرت .

وما كنت أقدر حين أذعت هذه الأحاديث أن تكون كتاباً ينشر على الناس ، لولا أن رغبة كثير من المستمعين في نشرها ، والحاح بعض الاخوان والاصدقاء في ذلك ، حملاني على اصدارها في هذه السلسلة « من أحاديث الدعوة » التي سيتتابع نشرها ان شاء الله .

واني لأرجو أن ينفعني الله بما ذكرت من الداء ودوائه ، وأن ينفع القارىء بما شرحت من المرض وعلاجه ، وهو المسؤول أن يحسن المثوبة ، ويمن بالاخلاص ، ويجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

دمشق { ٢٣ من المحرم ١٣٧٥
١١ من ايلول ١٩٥٥ }

مصطفى السباعي

أثر الفرد في نهضات الأمم

أذيع يوم الجمعة : ٦ من شعبان ١٣٧٣
٩ من نيسان ١٩٥٤

جسم الامة كائن حي يتعرض لما يتعرض له جسم الفرد من أمراض وعلل ، وكما تهتم الحكومات بوقاية الافراد والجماهير من الامراض الفتاكة والعلل الخبيثة ، تهتم الشرائع والحضارات الانسانية الراقية بوقاية المجتمعات من الامراض الاجتماعية والخلقية ، حتى يظل بنيان الامة قويا متماسكا ، ينهض للواجب بقوة ومضاء ، ويثبت للكوارث بجلد واباء ، ويعيش في الحياة موفور الكرامة ، منيع الحمى ، نبيل الغاية ، كريم الخلق والسمعة ، يأوي الى ظل ظليل من أمن شامل ، وسعادة تغمر الناس جميعا ، حتى لكأنهم في طمأنينتهم وسمو أرواحهم كملائكة السماء لاخوف عليهم ولا هم يحزنون .

ولعل الذي قصر بنا عن ركب الحياة المتحضر الكريم .. أن عنايتنا بعلل المجتمع وامراضه ، كانت دون عنايتنا برزقه وثروته ومختلف شؤون حياته .. ولقد كان وما يزال عندنا نفر يعتقدون أننا لن تحترم ارادتنا وتكون لنا مكانتنا اللائقة بنا الا اذا كانت لنا كل مظاهر الترف واللهو في حياة الامم المتحضرة اليوم ، وفات هؤلاء أن الترف من ثمار الحضارة لا من مقوماتها ، وان هذه الامم التي تُعجب اليوم بعلمها وفنها وقوتها ، لم تهمل في أوائل نهضتها ، أمراضها الاجتماعية كما نهملها نحن اليوم في مستهل نهضتنا ، ولم تقع في الغفلة التي وقعنا فيها .. ان الامة مجموعة متماسكة من الافراد ، وكلما كان الفرد سليماً كان بناء الامة سليما ، وكلما كانت أخلاق الامة قوية نقية كانت اتجاهاتها

سليمة وهدفها مستقيما ..

ولعل الاسلام هو أوفى الاديان والشرائع عنايـة بتوازن القوى المختلفة في المجتمع ، وبناء الامم بناء متراصا لا وهن فيه ولا ثغرة ولا اختلال .. انك لتراه يعنى بتنظيم حياة الناس المادية كأتم ما تعنى بذلك المذاهب الاقتصادية ، ويهتم بتقويم الاخلاق الاجتماعية كأقوى ما تهتم بذلك الدعوات الاخلاقية ، ويبالغ في تطهير الروح وتهذيب النفس أشد مما تبالغ في ذلك الاديان الروحية .. هو يربط بين هذه بعضها مع بعض ، ويشد بعضها الى بعض ، حتى لترى المسلم الحق قويا في كل ناحية من نواحي حياته : قويا في روحه ، وقويا في خلقه ، وقويا في جسمه ، وقويا في كل ما يعطيه لفظ القوة من دلالة ، وما أروع قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوي خـير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف [1] » .

وما من شك في أننا نعاني في حياتنا الحاضرة أمراضا اجتماعيـة خطيرة ، لن تستقيم معها نهضة ولن يطرد بها سير ، وهي مختلفة المظاهر في الفرد والاسرة والجماهير ، وهي تشمل فئات الناس جميعا من عالم وجاهل ، وكبير وصغير ، ومدني وقروي .

ومن أجل ذلك ستُعنى أحاديثنا المتتالية في وصف هذه الامراض وعلاجها ، وستتحدث عنها حديث الروح للروح والقلب للقلب ، وهي من حقها على الناس أن تستأثر باهتمامهم واصغائهم على اختلاف عقائدهم واتجاهاتهم ومنازلهم ، عسى أن تستوي نهضتنا الحديثـة في طريق لا أمت فيها ولا انحراف .

ولعل نقطة البداءة في علاج أخلاقنا الاجتماعية يجب أن تكون من الفرد ، فالفرد هو الخليـة الاولى في بنـاء المجتمع ، والدعوات

---

(١) رواه مسلم

الاصلاحية تبدأ طريقها من الفرد لا من الجمهور .. ان اصلاح عشرة من الافراد في كل بلدة اصلاحا يجعلهم أئمة في الهدى والخير والاستقامة، هو هو الذي يؤدي الى استقامة شؤون البلدة ونظافة حياتها الاجتماعية.. ورسول الله صلى الله عليه وسلم ظل في مكة ثلاثة عشر عاما يعنى بتربية أفراد من أمته ، حتى اذا اجتمع له منهم عشرات شرع في بنـاء الدولة الصالحة والحضارة الصالحة .. ان أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان وابن مسعود وأمثالهم هم الذين أقاموا صرح الدولة الاسلاميـة والحضارة العربية المؤمنة المشرقة ، وهم هم الذين كان يجتمع اليهم رسول الله في شعاب مكة وفي دار الارقم وفي فناء الكعبة ، يقوي أرواحهم، ويصقل نفوسهم ، ويهذب اخلاقهم ، حتى اذا مضى لربه كان لهم في التاريخ شأن وأي شأن ، وكان لهم في هداية الانسانية نصيب وأي نصيب .

والذين صنعوا الدول وأقاموا الحضارات ، وهتكوا حجب الجهل، وارتادوا آفاق العلم ، والذين غيروا مجرى التاريخ ، وأحدثوا أكبر الاثر في حياة أمتهم أو حياة الانسانيـة ، هم أفراد قويت ارادتهـم ، واستقامت أخلاقهم ، وخلت حياتهم من كثير من الآفات النفسية والخلقية القاتلة .. ولست أريد بذلك أن أهمل شأن الجماهير ، وأن أغمطها حقها ودورها في حركات الاصلاح ، فهي دعامة كل حركة اصلاحيـة وانقلاب اجتماعي كريم ، ولكن الجماهير تظل دائما كالجسم في حاجة الى عقل يدبر ورأس يفكر ، هي كالسيارة في اجزائها المختلفة لاتستغني عن أصغر جزء فيها ولكنها لاتسير من غير سائق .. فاذا قدر للاصلاح من يحمل رسالته وينشر مبادئه ، ويفتح أعين الجماهير لأشعته المشرقة ، استطاعت الجماهير أن تشق طريقها نحو الخير ، وان تعمل عملها العظيم في التاريخ ..

ولايجـاد الفرد الصالح أقيمت المدرسة والمعهـد ، وأقيم المسجد والمعبد ، وأقيمت الجمعية والنادي ، ومن هنـا كانت رسالة المدرسة

والمسجد والجمعية رسالة يتمم بعضها بعضا ، ففي المسجد تبنى روح الفرد ، وفي المدرسة يبنى عقله ، وفي الجمعية يبنى خلقه .. وبذلك كان وجود هذه المؤسسات معا من ضروريات الحياة الاجتماعية الصحيحة وكان فقدان المجتمع لواحد منها دليل اختلال واضطراب ، فلن تغني المدرسة عن المسجد ، ولن تغني الجمعية عن المدرسة .. والذين يظنون أن المسجد ليس شيئا أساسيا في بناء المجتمع ، انما يريدون بناء عقل لا روح فيه . وهم في ذلك مخطئون كالذين يظنون ان المدرسة ليست شيئا ذا بال في قيام المجتمع الحديث وان المسجد او الجمعية تغني عنها .. فلن تحيا روح لا عقل لها ، ولن يعمل العقل والروح عملهما من غير خلق يوجههما نحو العمل الاجتماعي المثمر المفيد ..

ومن الحق أن نزعم أن للمسجد والمعبد دوره الاول في تكوين الفرد الصالح ، فهو يجيء قبل المدرسة والجمعية ، بل هو قد أدى في فجر حياتنا الحضارية في التاريخ الاسلامي دور المدرسة والجمعية ايضا .. ويوم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كان اول عمل قام به وأول حجر وضعه في اساس الدولة التي غيرت مجرى التاريخ ، بناء المسجد النبوي الكريم .. ولقد كان مسجده هو المصنع الذي خرّج الابطال الذين يعتز بهم الاصلاح الانساني الخالد .. فما ابو بكر ولا خالد ولا سعد ولا عمر ولا علي الا تلامذة تخرجوا من المسجد الذي كان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم معبدا ومدرسة وجمعية في آن واحد ... ومدارسنا التي حملت لواء العلم والحضارة في القرون الوسطى لم تبدأ الا من المسجد ، فلم تكن المساجد في الحقيقة الا مدارس يجتمع الطلاب في ابهائها نهارا للدراسة ، ويأوون الى غرفها ليلا للنوم .. ولقد حدثنا التاريخ عن المساجد الاسلامية الكبرى كمسجد المدينة وقرطبة والازهر والاموي ، ان اعمدتها كانت ظهورا للعلماء الذين يتحلق الطلاب من حولهم حلقا حلقا ، حتى قالوا ان مسجد

قرطبة كان فيه آلاف الاعمدة حول كل عمود عالم وتلاميذ ..

ولست أبعد عن النهج الذي رسمته لهذه الاحاديث عن اخلاقنا الاجتماعية اذا تكلمت عن أثر المسجد في معالجة هذه الاخلاق ، فلقد أصبح من ركائز علم النفس الاجتماعي اليوم ، الاستفادة من الدين في علاج كثير من الامراض التي يصاب بها الناس في ظل هذه الحضارة.. فالهموم والاحزان وانهيار الاعصاب ، والانانية والانعزالية والجرائم الاخلاقية ، كل هذه يفيد الجو الروحي الذي يهيؤه المسجد في معالجتها وشفاء المصابين منها ..

لهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حان وقت الصلاة أمر بلالا ان يؤذن بها وهو يقول : « أرحنا بها يا بلال » .. وهذا كلام له مغزى نفسي بعيد لا يصدر الا من مثل المعلم الاكبر محمد صلى الله عليه وسلم .. وقالوا في وصفه عليه السلام انه كان اذا حز به أمر أو أصابه همّ فزع الى الصلاة .. وكان ابراهيم بن أدهم من كبار العباد الصالحين يقول حين يقوم في الليل مصليا مناجيا ربه « نحن في لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها » .

هذه الراحة وهذا الاطمئنان وهذه اللذة .. هي هي التي يحتاج اليها عالمنا المريض ومجتمعنا المثقل بالهموم والعلل .. ويقيني ان الذي يفقده الناس من مقاييس الحق والعدالة والكرامة في اعمال السياسيين والحكام ، لا علاج له الا بأن يتذوق المسؤولون عن مقدرات الشعوب لذة العبادة ، وان يجدوا اطمئنان الروح بين يدي خالقها العظيم ..

ايها الاخ المستمع الكريم ! هل جربت العبادة يوما ما على وجهها الصحيح فرأيت أثرها في روحك وخلقك ؟ ان كنت لم تفعل ذلك حتى اليوم ، فبادر الى الله بوقفة خاشعة بين يديه ، لتتحقق صدق قوله تبارك وتعالى : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

أما بعد فهذه مقدمة في الحديث عن أخلاقنا الاجتماعية والى اللقاء في الاحاديث المقبلة ان شاء الله .

بين الاحتقار والغرور

أذيع يوم الجمعة : ٢٠ من شعبان ١٣٧٣
٢٣ من نيسان ١٩٥٤

هذا الانسان عجيب يجمع بين المتناقضات ، فاذا انعمت النظر في بعض جوانبه وجدته اقوى من كل ما خلق الله في الحياة ، حتى انه استطاع ان يطير في الجو وان يغوص في البحر ، وان يطوي المسافات البعيدة في الساعات القليلة ، وأن يقلب الصحارى المجدبة الى حدائق وارفة الظلال ، وأن ينقل الجبال ، ويحول الانهار ، وان يتحكم في الحياة المحيطة به ، وان يخضع لسلطانه قوى الارض والسماء ، واذا انعمت النظر في جوانبه الاخرى وجدته ضعيفا عاجزا ، تؤذيه الذبابة الشاردة ، وتقتله النسمة الباردة ، وتمرضه الشوكة الحادة ، وتورده الردى خاطرة همٍّ ووسوسة سوء .

هذا الانسان العجيب المتناقض هو الذي جعله الله دليلا من الادلة الظاهرة على وجوده ، وما أبعد دلالة هذه الآية الكريمة واعمق غورها لدى العقلاء والحكماء

« وفي الارض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون (١) »

والانسان العاقل هو الذي لا ينسى جوانب الضعف والقوة ، فلا يغر بمظاهر القوة والذكاء والعلم حتى يزعم لنفسه كل فضيلة ويتطاول بغروره الى كل منزلة ، ولا يركن الى جوانب الضعف والعجز فيه ،

---

(١) سورة الذاريات : ٢٠ ، ٢١

فيحتقر نفسه ، ويزدري امكانياته ، ويعيش في الحياة كأنه همل مضاع ولقى مزدرى ..

ومن علائم الخير في كل أمة أن تنجو من مرضين خطيرين : مرض الغرور ، ومرض الاحتقار ..

أما الغرور فهو أن ترى أفرادها يحتقرون كل من عداهم ، ويتطاولون الى ما ليس في قدرتهم ، ويتدخلون فيما ليس من شأنهم ، ويحكمون على ما لم يحط به علمهم ، حتى ليترفع أحدهم عن الاصغاء الى نصيحة والاستماع لرأي ، والخضوع لكبير ، والاجلال لعالم .. فكل واحد منهم يرى نفسه عالما فوق العلماء ، وحكيما أوعى من الحكماء ، وسياسيا لاتغيب عنه شاردة ، وعظيما لايرى بجانبه أحدا يستحق الاجلال والاكبار .

هذا المرض هو الذي تبتلى به الامم الضعيفة المنتقلة من طور الخمول الى طور اليقظة ، أو المتردية من شامخ العزة الى درك الضعف والذلة .. وانه لمرض يتفشى في أمتنـــا اليوم ، وحسبك أن تستمع الى احاديث الناس في المجتمعات العامة وفي الطرقات والاندية ، لترى كيف يحمل كثير منهم مبضع الطبيب يجرح به هذا ويقطع به ذاك ، وكيف ينطوي على غرور يجعل رأيه فوق الآراء ، ونظره فوق الانظار ، وعلمه فوق كل علم .. وهو لايفتأ في حديثـــه يصف الناس بالحماقـــة ، ويصف السياسيين بالبلادة ، ويصف العلماء بالجهل ، وحين تبتلى الامـــة بهذا المرض ، تستعصي على نصح الناصحين ، وتنحدر وهي تظن أنها في أعلى عليين ، وتتراكم عليها المصائب وهي تظن أنها في أتم صحة ، وتتألب عليها الدنيا وهي تظن أنها أقوى من أعدائها جميعا ، تهزمهم بصرخة ، وتردهم باشارة ، وتدفعهم عنها بالضجة والثرثرة .

أما المرض الثاني فهو مرض احتقار النفس .. تجتمع الى رجل من المرضى بهذا المرض النفسي ، فتراه محطم الاعصاب ، مسلوب الارادة ، فاقد الامل ، لايثق بنفسه ولا بأمته ، ولا يرى أنه شيء في الحيـــاة

يستطيع أن يعمل شيئا .. وما أقساه من مرض على الامة اذ يشل فيها الوعي والحياة والحركة ، ويجعلها ذليلة أمام كل جبار ، ضعيفة أمام كل قوي .. وهذا المرض متفش في أمتنا أيضا ، فكم من أمتنا من قضى عليهم الخمول والكسل والعزلة ! ولو سألتهم عن ذلك لأجابوك : من نحن ؟ وما قيمتنا ؟ واذا أحاط الشر بأمتهم رأيتهم يتسللون لواذاً الى البيوت أو المعابد ، فان طلبت اليهم أن يساهموا في البلاد ، قالوا لك : وما شأننا في الحياة ؟ وماذا نستطيع أن نعمل ؟ وهل نستطيع أن نوقف الشمس أو نؤخر عجلة الزمان ؟ كلا ياصاحبي انك شيء عظيم تستطيع أن تفعل أشياء وأشياء .. وما هؤلاء الذين تراهم ممن يملأون التاريخ بجلائل الاعمال ، ويملأون المجتمع بوافر النشاط ، الا أناس مثلك لهم مواهبك وذكاؤك ، ولكنهم وثقوا بأنفسهم ، وعرفوا قيمة مواهبهم ، فاستفادوا منها وأفادوا أمتهم .. وأما أنت فلقد ازدريت نفسك ، وانتقصت أمتك ، ورضيت لنفسك أن تكون نسيا منسيا .

مثل هؤلاء في مجتمعنا كثيرون ، وأعجب من ذلك أنك ترى في هؤلاء المصابين بمرض الخمول والاحتقار ، من هو مصاب بداء الغرور أيضا ، فهو يقدر نفسه في أمته تقدير المغرور المتبجح ، ولكنه يضع نفسه أمام الاعداء موضع الحقير الذي ليس من حقه أن يرفع رأسا أو يطلب كرامة ! وما أكثر هؤلاء الذين تراهم ينتقصون أمتهم ويمجدون أعداءهم ، ويزدرون تاريخهم ويكبرون تاريخ غيرهم ، ويحتقرون عقائدهم وهم بالعقائد الباطلة لدى الامم الاخرى أشد أعجابا وأكثر تقديرا .. واذا ادلهمّ الخطب في أمتهم رأيتهم دعاة هزيمة ، وأبواق خذلان ، يبثون في قومهم أن أعداءنا لايقاتَلون ، وأننا في وقوفنا في وجههم نقضي على أنفسنا وعلى مستقبلنا !

أما بعد ، فهذان مرضان خطيران : الغرور بالنفس ، واحتقارها وازدراؤها ، وما أجمل أدب الاسلام وتعليمه حين نهانا عن هذين المرضين،

وأبعدنا عن التخلق بهما .. فهو يبعدنا عن الغرور بتذكيرنا دائما بقدرة الله فوق قدرتنا ، ونعمة الله علينا في كل مانعتز به من مال وجاه وعلم وفضل .. استمع الى قول الله تبارك وتعالى **((ومـا بكم من نعمـة فمن الله (١)))** واستمع الى قوله : **((يد الله فوق أيديهم (٢)))** واستمع اليه يؤدب نبيه بتواضع العلماء **((وقل رب زدني علماً (٣))) ((وفوق كل ذي علم عليم (٤))) ((وما أوتيتم من العلم الا قليلا (٥)))** .

بمثل هـذا الأدب الالهي أبعـد الاسلام الغـرور عن المسلم ، فما تراه ان كان مسلمـا حقا يحتقر ذا فضل ويزدري ذا نعمـة ... وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة بعد حرب مستمرة بينه وبين قريش عشرين عاما أو تزيد .. حتى اذا انتصر عليها ودخلها دخول الفاتحين ، لم يشمخ بأنفه ، ولم يتطاول بانتصاره ، بل كان يركب الناقة ورأسه منحن على صدره ، حتى ليكاد يمس قتَب الراحلة شكرا لله على نعمته ، واعترافا له بفضله ومنته ، ولما وقف على باب الكعبة ووقفت قريش بصناديدها وكبريائها تنظر ماذا يفعل الرسول بها بعد أن تمكن من رقابها ومقاديرها .. لم يزدهه النصر ولم يتملكه الغرور ، بل أراهم لين الجانب وبسط الجناح ، وقال لرجل وقف بين يديه خوفا منـه : « هَوِّن عليك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .. يا لأدب النبوة ما أروعه وما أبلغ أثره !.. « أنا ابن امرأة من قريش !.» هذه كلمة لم يقلها رجل مهزوم ولا وضيع ولا مغمور ، وانما قالها رجل أكرمه الله بالرسالة ، وأتاه الحكمة والنبوة ، وتوّجه بأكليل النصر .. ومع ذلك فلم يزد في نفسه على أن يقول للناس انما أنا ابن امرأة من قريش .. فهلا يرى هؤلاء المغرورون الذين يؤذون الامة بدعواهم ،

---

(١) سورة النحل : ٥٣ (٢) الفتح : ١٠ (٣) طه : ١١٤ (٤) يوسف : ٧٦
(٥) الاسراء : ٨٥

ويتطاولون عليها باثارة علمهم ، هلا يرون في تواضع الرسول ما يردهم الى حقيقتهم في أنفسهم ومكانتهم من الناس ؟

أما أدب الاسلام في الثقه بالنفس والابتعاد عن احتقارها، فانكلتراه واضحا في هذه الآيات التي ترفع من معنويات الامة وتحملهــا رسالة الانقاذ والاصلاح

« كنتــم خير أمة أخرجت للنـــاس (١) » « وكذلك جعلنـــاكم أمــة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس (٢) » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين (٣) » .

وما أروع قوله صلى الله عليه وسلم « لا يحقرن أحدكم نفسه ٤ » « لايكن أحدكم امئعة يقول ان أحسن النـــاس أحسنت وان أساءوا أسأت ، ولكن ليكن ان أحسن الناس أحسن وان أساءوا ترك الاساءة ٥

هذه تعاليم الاسلام في بث الثقة بالنفس ثقة لايقتلها الغرور .. وبذلك كان المسلم في صدر الاسلام لايرى نفسه أصغر من أن ينصح رئيس الدولة ، ولا أقل من أن يقول : من أين لك هذا يا أمير المؤمنين ؟ ولا أحقر من أن يقود جيشا أو يفتح قطرا أو يحكم بلدا ، وان عظماء الاسلام في صدره الاول ، لم يكونوا كلهم الا شبابا من غمار الناس ، ما زال الاسلام ينفخ فيهم من روحه ، ويبعث فيهم من الثقة بأنفسهم والتقدير لمواهبهم ، حتى كانوا أعلاما خافقة يصنعون التاريخ وينشؤون الامم .. ومَن عمرو بن العاص ؟ ومَن عمر بن الخطاب ؟ ومَن ابوبكر؟ ومَن سعد ؟ ومَن خالد ؟ لم يكن هؤلاء في جاهليتهم الا جزارا ينحر الابل ، أو شابا يمعن في اللهو ، أو تاجرا يعكف على تجارتــه ، أو شجاعا لاتعلم به الا قبيلته .. فاذا بهؤلاء يصبحون لحنا من ألحان

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) البقرة : ١٤٣ (٣) آل عمران : ١٣٩ (٤) رواه ابن ماجه
(٥) رواه الترمذي

الخلود ، تترنم بهم أقاصيص البطولات ، ولها في الاسماع وقع وفي النفوس مقام كريم ..

أيها الاخ المستمع ..

لاتضع نفسك فوق منزلتها فتكون مغرورا مخدوعا . ولا تنزل نفسك دون منزلتها فتكون حقيراً مهانا ، ولكن ضع نفسك في موضعها الحق ، وانظر دائما الى مزاياك ونقائصك ، فما وجدت من ميزة وفضل فاحمد الله عليه ، واطلب المزيد منه ، وانفع به الناس ، ولا تمنن به عليهم فيحبط أجرك ويسوء ذكرك ، وما وجدت في نفسك من عيب ونقص فتداركه بالتربية ، وعاجله بالعلاج ، ولا تركن اليه فيقتلك اليأس وتكون من الهالكين ..

وأنتم يا أبناء الامة

لستم في الامم كمية محتقرة .. ولكنكم شيء كريم كبير .. ان سلكتم سبيل الحياة ، استطعتم أن تكونوا من أكرم أبناء الحياة .. وان احتقرتم أنفسكم كنتم أهون أبناء الحياة على الحياة نفسها .. فحذار حذار من الغرور الذي يأوي بكم الى الاحلام ، وحذار حذار من الاحتقار الذي يحول بينكم وبين العمل ، وتطلعوا دائما الى ان يتحقق بكم وفيكم قول الله

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (١) » .

---

(١) القصص : ٥

بين البخل والسرف

اذيع يوم الجمعة : ٢٦ من شعبان ١٣٧٣
٣٠ من نيسان ١٩٥٤

هذه الحياة على اتساعها قصيرة الامد بالنسبة الى الانسان ، فليس له من زمنها الا وقت قصير ، وليس له من مباهجها الا لذائذ محدودة ، وليس له من خيراتها الا قدر ضئيل ، انك مهما عمرت منها فلن تعيش الا عشرات من السنين ليست بالنسبة الى الزمن المستمر الا جزءا من ملايين الاجزاء ، وأنت مهما استطعت ان تنهب من لذائذها فلن تنال منها الا قدر ما تسعفك به ظروفك واوضاعك وامكانياتك ، وما أقل ذلك بالنسبة لما يفوتك منها وما لا تناله قدرتك ، وأنت مهما اصبت من مال وجمعت من ثروة فلن تحوز من خيرات الحياة الا نقطة من بحر ، او غيضا من فيض ، ثم أنت مع ذلك لاتضمن لنفسك تحديد هذا الامد القصير من عمرك ، ولا استمرار هذه اللذائذ التي تنالها في حياتك ، ولا بقاء تلك الاموال التي تجمعها في صندوقك ، فقد تفارق الحياة فجأة من غير ميعاد ، وقد تحرم اللذائذ بموانع لا تملكها من مرض او عجز ، وقد تفقد المال بكارثة خاصة او عامة ، وما اصدق قول الله تعالى وتبارك:

« ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض فاذا هي تمور ؟ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ؟ (١) » « أمن هذا الذي يرزقكم ان أمسك رزقه ؟ بل لجوا في عتو ونفور (٢) » .

وكل الناس يعرفون هذه الحقائق ، ولكنهم يختلفون في الانتفاع بها ، فأكثرهم يرى قصر الحياة باعثا على ضياع العمر باللذائذ كي يغنم

---

(١) الملك : ١٧ (٢) الملك : ٢١

منها أكبر قدر مستطاع ، ويرى احراز الاموال باعثا على اكتنازها ومنع نفسه ومنع الناس من الاستفادة منها ... وهؤلاء هم الذين فقدوا نعمة الحياة ونعمة الثروة، فعاشوا كما يعيش المحروم، يملكون ما لا يستفيدون ويعيشون بما لا ينتفعون .. وقليل من الناس من يحمله قصر الحياة على انفاقها فيما ينفع الناس ، وجمع المال على بذله فيما يفيده ويفيد المجتمع، وهؤلاء هم الاحياء مهما قصرت أعمارهم ، والاغنياء مهما تبددت ثرواتهم ، والسعداء مهما فاتهم من لذائذ الشهوة الاثيمة ..

واذاً فالبخل مرض يقتل صاحبه ويدل على غفلة عمياء او انانية سوداء ، ومن الناس من يبخل على نفسه فيحرمها ان تأكل أطيب الطعام وتلبس أجود الثياب، استكثارا لما ينفق عليها من طعام ولباس ومتعة ، وما اشبههم بمن يغلق نافذته عن نور الشمس ، ويحبس رئتيه عن عليل الهواء ، ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من هؤلاء رث الثياب فقال له : « ألك مال ؟» قال : نعم . قال : «من اي المال هو ؟» قال : من الذهب والفضة والابل والغنم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اذا فلتُر أثر نعمة الله عليك فان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده [1] »

ومن الناس من يجود على نفسه ويبخل على عائلته ، فهو يلبس أجود الثياب ويأكل ألذ الطعام ، ويمتع نفسه بالاسفار والرحلات ، حتى اذا كانت نفقة زوجته او اولاده ضاقت في وجهه السبل ، وركبته الهموم والعلل ، وتبرم بزوجته واولاده ، وشكى لك ما يلقى في نفقة البيت من عنت وارهاق ، وانها لصورة بشعة في نظر المروءة والخلق : ان يشبع الرجل ويجوع أولاده ، وان يتنعم وتبتئس زوجته ، انه لأمر قبيح في منطق الانسان ، وان في الحيوان من يؤثر اولاده على نفسه . ولقد أهدر الاسلام عن اموال هؤلاء حرمة الصيانة بالنسبة للزوجة والاولاد، فأجاز للزوجة اذا امتنع زوجها عن الانفاق عليها بما يكفيها واولادها ان تأخذ من ماله بغير رضاه وعلمه ما تدفع به الاذى والضر عنها وعن

(١) رواه الترمذي والحاكم

اولادها ، فقد جاءت امرأة ابي سفيان لتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان ابا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي الا ما أخذت منه وهو لا يعلم ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف » [1] .

ومن الناس من يجود على نفسه وعائلته ، ويغرق في الترف والنعيم في حياته العائلية ، ويمتع نفسه واهله بكل مباهج الحياة ولذائذها لا يبالي في سبيل ذلك بما ينفق ، ولكنه بخيل على امته وبلاده ، فاذا فتح ميدان من ميادين الخير يحتاج الى ماله ومعونته عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر ، ثم ادعى لك الفقر ، وزعم لك الضيق ، وغالى في كساد التجارة وقلة الربح وعسر الحال ، حتى لتظن انه في حاجة الى من يتصدق عليه ويعينه .. مثل هؤلاء كثيرون في أمتنا ، واننا لنشاهدهم في كل مشروع من مشاريع البر والانقاذ .. وهؤلاء شر ما تبتلى بهم الامم ، وأنانيتهم من اشد أنواع الانانية قتلا للامة واساءة اليها .. وقد ترى فيهم الجواد السخي في الولائم والضيافات ، فينفق على وليمة لكبير او زعيم او صديق ، آلاف الدراهم ليتقرب الى من يضيفه ، وليعظم صيته بين الناس بالجود والكرم ، ولكنه بخيل شحيح يضن بالقليل من المال على ابواب الخير العامة ، وسر ذلك أمران اثنان :

اولهما — ضعف ثقتهم بوعد الله ومثوبته لمن يبذل من ماله في الخير طائعا مختارا ، واطاعتهم وسوسة الشيطان حين خوفهم من الفقر اذا أنفقوا ، والعسر اذا بذلوا ، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى :

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢) » .

وثانيهما — موت الشعور الاجتماعي في نفوسهم ، واستيلاء الانانية القاتلة على طباعهم ، فهم يظنون انهم خلقوا ليعيشوا وحدهم ، وانهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم (٢) البقرة : ٦٨

جمعوا المال بجهودهم وحدهم ، وانهم لا يطالبون الا بأنفسهم وذويهم، وانهم يستطيعون ان يكونوا سعداء ولو عاش الناس من حولهم في جهد وبلاء .. ولو أدركوا لعلموا أنهم خلقوا ليعيشوا مع الناس ، وأن ما جمعوه لم يكن الا بجهود الآخرين ، وأن سعادة الحر الكريم لا تكمل الا أن يعيش في مجتمع حر كريم ، وأن اسعاد المجتمع اسعاد للنفس ذاتها ، وأن فقدان الشعور بمصائب المجتمع والامة ، فقر أشد من الفقر، وحرمان أسوأ من الحرمان ،بل هو سبب للحكم بالاعدام الادبي والنفي المعنوي من صفوف الامة . وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع الى جنبه وهو يعلم به »[1] ويقول : «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »

ان من علائم الخير في الامم ان ترى أبناءها في حياتهم الشخصية والعائلية لا ينفقون الا بقدر معتدل ، ولا يبذلون الا ما هو في حدود الكفاية ، ولكنهم في حياتهم الاجتماعية أسخياء كرماء لا يعرفون للكرم حدودا ولا غاية، هكذا يعيش أبناء العالم المتحضر اليوم ، يقتصد احدهم في الانفاق على نفسه الى درجة تقرب من البخل ، فترى الغني الكبير يلبس الثوب البسيط ، ولكنه ينفق الملايين على جامعة تؤسس ، او على ميتم ينشأ ، او على بحث من أبحاث العلم يحتاج الى من يتفرغ له ويقف حياته عليه ، ومن هنا كانت الجوائز للعلوم والآداب والدراسات الاجتماعية ، وان من الحق ان يعلم المستمع الكريم أن في بلادنا بعثات دراسية علمية أجنبية ينفق عليها من أموال الاغنياء في الغرب لدراسة أحوال الشرق ونهضته وعاداته .. كل هذا يقع عند الامم المتحضرة ، فيزدهر العلم ويقل البؤس ، وينتشر التراحم ، ويرتفع مستوى الشعب الى حياة كريمة قليلة المصائب والآلام .. وليس لذلك الا نتيجة واحدة أن تعيش الامة في الحياة قوية عزيزة سعيدة .

(١) رواه البزار والطبراني

واذا كان واجب الانصاف يقتضينا ان نشيد بهذه الاخلاق لدى الامم المعاصرة لنا رغم ما بيننا وبينها من اسباب النزاع والخصام ، فان من الحق ان نذكر ان الاسلام دعا من قبل ذلك الى مثل هذه الاخلاق ، وحث عليها وربى المسلمين في ظلالها ، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس .

انك لتجد الاسلام يأمرك في حياتك الخاصة بالاعتدال لا سرف ولا تقتير فيقول :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً (١) » ، ويقول : **« والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٢) »** ، ويقول : **« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا (٣) »** ويقول عليه الصلاة والسلام : **« لاتسرف ولو كنت على نهر جار (٤) »** .

اما في حياتك الاجتماعية وصلتك بالناس فليس في الجود فيها سرف ولا تبذير ، انه الميدان الذي تزداد مكانتك عند الله بمقدار ما تنفق فيه من مالك ،

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٥) » وانه لانفاق تعود فائدته على نفسك قبل غيرك : **« وما تنفقوا من خير فلأنفسكم (٦) »** وانه لانفاق يدل على عمق جذور الخير في النفس : **« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل (٧) »** ، وانه لدليل على عظيم الثقة بالله والرغبة في ثوابه ورضاه : **«وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله (٨) »** اما البخل واكتناز الاموال وحبسها عن مشاريع الخير فهو شر على الأمة وشر على البخيل ذاته : **«ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم(٩) »** ، وانه لعذاب أليم ينتظرهم عند الله : **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى**

---

(١) الاسراء : ٢٩ (٢) الفرقان : ٦٧ (٣) الاعراف : ٣٠ (٤) رواه ابن ماجة
(٥) البقرة : ٢٧٤ (٦) البقرة : ٢٧٢ (٧) البقرة : ٢٦٥ (٨) البقرة : ٢٧٢
(٩) آل عمران : ١٨٠

عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون (١) .

بهذه الاخلاق ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته ، وربى صحابته الناس ، فكان ما خلد التاريخ من آثار برهم وسخائهم مما لا ينقضي منه عجب التاريخ .

لقد كان أبو بكر رضي الله عنه في حياته الخاصة من أبسط الناس معيشة ومأكلا وملبسا ، حتى اذا احتاج المسلمون الى المال للانفاق في غزوة تبوك ، وحث رسول الله الناس على تجهيز الجيش ، جاء ابو بكر بكل ماله فقال له رسول الله : ماذا ابقيت لاهلك يا ابا بكر ؟ فيقول ابو بكر : لقد أبقيت لهم الله ورسوله ، وفي هذا الوقت ذاته جاء عمر بنصف ماله ، وجاء عثمان بمال كثير ورواحل كثيرة وجهز كثيرين من الصحابة على حسابه ، ولقد كان النساء يأتين بحليهن وزينتهن الى رسول الله راضيات مستبشرات ، وانكم لترون في أخبار الكرم الاجتماعي لدى المسلمين الاوائل ، ما لا يقتصر أثره على فئة الاغنياء دون الفقراء ، او على الرجال دون النساء .

فهذا عثمان الغني يصيب الناس في عهد عمر قحط وشدة ، فتأتيه قافلة من الشام ألف جمل ، عليها اصناف الطعام واللباس مما لا يقدر في تلك المحنة بثمن ، فيجيؤه التجار يطلبون أن يبيعهم هذه القافلة ، فيقول : كم تعطوني ربحا ؟ قالوا خمسة في المائة ، قال اني وجدت من يعطيني أكثر ، قالوا ستة، قال وجدت من يعطيني أكثر، فما زالوا يزيدونه حتى أعطوه عشرة بالمائة ، فقال لهم لقد وجدت من يعطيني أكثر ، فقالوا ما نعلم في التجار من يدفع أكثر من هذا الربح ، ونحن تجار المدينة والآن وصلت القافلة ، فمن اعطاك اكثر من هذا ؟ فقال لهم عثمان : اني وجدت من يعطيني على الدرهم سبعمائة فأكثر ، اني وجدت الله يقول :

---

(١) التوبة : ٣٥ ، ٣٦

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (١) » اشهدكم اني بعتها لله وانها صدقة على المسلمين .. هذا مثل من الاغنياء .

واشتغل عامل في الليل لجماعة يسقي لهم أرضهم بالماء ، حتى اذا انتهى في الصباح قبض أجرته صاعين من الشعير ، فجاء بهما الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله هذان صاعان اشتغلت بهما الليل كله ، فصاع امسكه لأهلي وصاع أضعه بين يديك لتعطيه الى اخواني المحتاجين ... وهذا مثل من العمال ..

وكان علي رضي الله عنه يأكل مع زوجته فاطمة ما لا يكاد يكفيهما فجاءهما سائل فأعطياه ما يأكلان ، وظلا طاويين من الجوع حتى نزل فيهما قول الله تبارك وتعالى :

« ويؤثرن على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٤) » ... وهذا مثل من الفقراء .

وتتصدق عائشة يوما بمائة الف درهم من عطاء لها ، وهي صائمة لا تلبس الا ثوبا باليا .. فقالت لها خادمتها بعد ان انفقتها : لو ابقيت لنا ما نفطر عليه لكان خيرا ، فقالت عائشة وقد نسيت نفسها وذكرت أمتها .. لو ذكرتيني لفعلت .. وهذا مثل من النساء .

بهذه الاخلاق وهذا الكرم الاجتماعي ، شيدت المساجد في صدر الاسلام ، وأنشئت المدارس ، وكثرت الاوقاف ، وبنيت الخانات ليأوي اليها ابناء السبيل ، وبهذا انفرد تاريخنا بأوقاف أوقفت على صنوف من الخير الاجتماعي لا نعرف له مثيلا في تاريخ الامم .. فلقد كان عندنا الاوقاف المنتشرة في جميع انحاء العالم الاسلامي على المساجد والمدارس والمستشفيات ، كان عندنا اوقاف لاطعام الخيل العاجزة عن العمل — وان المرج الاخضر في دمشق الذي يقام عليه الآن معرض دمشق

---

(١) البقرة : ٢٦١ (٢) الحشر : ٩

الدولي ـ ليس الا وقفا على الحيوانات العاجزة المسنة تأكل حتى تموت، دون ان يضطر أصحابها لقتلها تخلصا من نفقاتها .

وكان من أوقافنا أوقاف على تمريض القطط والكلاب والحيوانات المريضة ، كما كان أوقاف لتزويج الشباب والفتيات العاجزين عن نفقات الزواج . وأوقاف لاستئجار الرجال ليقودوا العميان ، فكان لكل اعمى قائد يقوده ، وأغرب من ذلك وقف الزبادي كان في دمشق وتحدث عنه الرحالة ابن بطوطة ، فقد حدث ان رأى بعينه صبيا كانت بيده زبدية فانكسرت ، فبكى خوفا من بطش اهله به فأخذه الناس الى قيم وقف الزبادي فأعطاه زبدية مثلها ، فعاد الى اهله دون أن يشعر اهله بما كسر. ولقد سمعت وانا في طرابلس أن فيها وقفا لاستئجار اثنين يذهبان كل يوم الى المستشفى يقفان بجانب المريض يتحدثان بكلام خافت يسمعه المريض من حيث يوهمانه أنهما يتكلمان سراً عنه. فيقول أحدهما للآخر : ما رأيك في هذا المريض اليوم ؟ كيف حالته ؟ فيقول الآخر : اني أراه اليوم احسن منه بالامس ، فوجهه مشرق وعيونه متألقة ، ثم ينصرفان وقد سمع المريض كلامهما بعد أن أوحيا اليه ما يعتقد في نفسه التقدم نحو الشفاء ...

هذه أمثلة لما بلغ اليه الشعور الاجتماعي لدى الموسرين والاغنياء من سمو كانت من آثاره تلك المنشآت الاجتماعية العظيمة . فكم في اغنيائنا اليوم من قام بمثل هذه المنشآت ؟ وكم في امتنا من حاجة الى مستوصفات ومدارس ومياتم وملاجيء ومؤسسات خيرية عامة لا تجد من يقيمها وان من اغنيائنا الكثيرين من ينفق على ملاذه السوداء وشهواته الحمراء ما يكفي للانفاق على مؤسسة خيرية ينتفع بها المئات والآلاف من الناس ؟ كم في أغنيائنا من يموتون من غير ولد ، ثم

---

(١) رواه مسلم

يتركون اموالهم لمن لا يذكرهم بعد موتهم بكلمة طيبة او دعوة خير ، فيذهبون بخزي الدنيا وعذاب الآخرة ؟

ايها المستمع الكريم

يقول عليه الصلاة والسلام : «يقول ابن آدم مالي مالي ، وانما لك من مالك ما أكلت او لبست أو تصدقت وما بقي من ذلك فهو لورثتك»[1] ويقول عليه الصلاة والسلام : «ايكم مال وارثه احب اليه من ماله» قالوا يا رسول الله ليس منا احد ، بل اموالنا احب الينا من وارثينا ، فقال عليه السلام : فان مال احدكم ما قدمه لنفسه في حياته ومال وارثه ما أبقاه له بعد موته »[2]

وأهديت شاة لرسول الله يوما فتصدق أهله بها كلها الا كتفها ، فلما جاء قالوا : ذهبت الشاة كلها الا كتفها ، فقال عليه السلام : «بل بقيت كلها الا كتفها »[3] اشارة الى ان ما ينفق في الخير هو الذي ينتفع به صاحبه وهو الذي يبقى له ، اما ما يأكله ويستهلكه فهو الذي يذهب ويفنى .

أفلا ترى معي يا صديقي المستمع انك في حاجة الى أموال تكون لك ذخراً عند الله وأجراً في صحائفك وذكراً في تاريخك وحياتك ، فلماذا لا تنفق على الخير ؟ لماذا تضن بالمال على امتك ؟ لا يا صديقي ! المال ذاهب ، والحياة منقضية ، والانسان مردود الى الله ، فقدم لنفسك ما تفرح به ولا تحزن ، وتسر به ولا تندم .. يا صاحبي .. ان هذا المال ان لم يذهب في الخير ذهب في الشر ، وان لم تنفقه انت فيما يفيد فيكون لك أجره ، أنفقه غيرك فيما لا يفيد فيكون عليك وزره ..

وأنتن يا اخواتي المستمعات من امهات وزوجات : شجعن ازواجكن

---

(١) رواه مسلم (٢) رواه البخاري والنسائي (٣) رواه الترمذي

على البر والجود في سبيل المصلحة العامة ، شجعنهم على ان يحرموكن ليعطوا الامـة ، ويمنعوكن ليصلوا الشعب ، ويقتروا على اولادكـن ليسبغوا من مال الله على عباد الله .

كنّ كما كانت عائشة : تنسين أنفسكن وتذكرن أمتكن . علّمن أبنائكن وبناتكن ان يكونوا ينابيع للخير في حياة امتهم ، تعطي ولا تأخذ ، وتخصب ولا تجدب ، وتحيي ولا تميت ... علمنهـم كيف يعيشون في التاريخ مثل آبائهم وامهاتهم : اضواء تنعكس على الانسانية حبا ورحمة ، ورؤوسا ترتفع الى السماء نبلا وكمالا ...

بين الأنانية والايثار

اذيع يوم الجمعة : ٥ من رمضان ١٣٧٤
٧ من مايس ١٩٥٤

هل الانسان اناني يحب نفسه ويؤثر مصلحته على مصلحة غيره ؟ أم هو غيري يؤثر الناس على نفسه ويقدم مصلحتهم على مصلحته ؟ هذا بحث يستغرق كثيرا من صفحات علم النفس وعلم الاخلاق وعلم الاجتماع، ويكاد يتفق أكثر العلماء على ان الانسان في طبيعته الاثرة والانانية ، وانه انما ينظر الى مصالح الناس من خلال مصلحة نفسه ، ويغالي بعضهم فيزعم ان ما نراه من ضروب التضحية والفداء ليس الا لونا من الوان الانانية المقنعة ، فالذي يقدم نفسه في ميدان النضال دفاعا عن عقيدة او ذودا عن وطن ، انما يفعل ذلك ليجلب لنفسه ثواب الله او ثنـاء الناس ، او كرامة الوطن الذي يعيش فيه فيستفيد من كرامتـه عزة ومجدا ، وأياً ما كان فان الانسان بجانب هذا مدني بطبعه ، يميل الى التعاون ، ويؤثر الاجتماع على العزلة ، وذلك من شأنه ان يحمله على التخلي عن بعض حقوقه للآخرين حتى يستفيد من تعاونه معهم تحقيق كرامته ومصالحه ، وبذلك كانت بعض ضروب التضحية والايثار من ضروريات المجتمع التي لايستطيع العيش السعيد بدونها ، فلولا ان تقيد حريتك في نظام السير لما استطعت ان تسير في الطرقات آمنا على نفسك وجسمك ، ولولا ان تحد بعض تصرفاتك في المعاملات وان تكف يدك عن اموال الناس لما استطعت ان تضمن لنفسك الربح وان تعيش

آمنا على مالك وثروتك ، وبذلك كانت روح القوانين والشرائع ضمانا لحق الفرد من جهة ، وتقييدا لحريته من جهة اخرى ، وكان الخضوع لهذه القوانين ضربا من الايثار والتضحية ، قد لايثاب عليه في نظر الشريعة ، وقد لايمدح عليه في نظر الاخلاقيين ، ولكنه على كل حال ضمانة لانتظام الحياة في مجتمع كريم سعيد ..

اما ايثار الناس على نفسك فيما هو اكثر من ذلك ، فهو الايثارالذي تمدحه الشرائع وتثني عليه مبادىء الاخلاق ، وهو ايثار اختياري لايجبرك عليه قانون ، ولا تحتمه عليك مصلحة عاجلة او لذة سريعة ، بل ان فيه ايثار الحرمان على المتعة ، والتعب على الراحة ، والجوع على الشبع ، والموت على الحياة ، ولا يشوه جمال هذه التضحية رغبة في الثواب او الثناء ، فان هذا الثواب او الثناء امر معنوي مرجو في ضمير الغيب ، ومن بذل في نفع الناس امرا ماديا محسوسا لقاء امر معنوي ، فقد برهن عن نفس تعطي اكثر مما تأخذ ، وهذا هو لعمري من اسمى مراتب النبل والسمو واقوى دلائل الخير والفضل ...

اننا مدينون في كل متعة من متع الحياة مادية او معنوية لاولئك الذين اتصفوا بالتضحية والايثار والفداء . فنحن مدينون فيالاستمتاع بنعمة الكهرباء والسيارة والطيارة والمذياع لاولئك العلماء العباقرة الذين عكفوا السنين الطوال مغمورين في مخابرهم ومعاملهم وبيوتهم يواصلون جهد الليل بجهد النهار حتى استطاعوا ان يمنحوا الانسانية نتاج بلائهم وعنائهم راحة وثقافة وصحة ينعم بها آلاف الملايين من البشر في شرق الدنيا وغربها .

ونحن مدينون في لذة المعرفة والعلم الى اولئك المؤلفين من الادباء والعلماء والمحدثين والمفسرين والفلاسفة الذين عكفوا على اوراقهم يملؤونها حكمة وعلما ، بينما يغرق الناس في غفلتهم وشهواتهم وبلسان هؤلاء ينطق الزمخشري حين يقول :

سهري بتنقيح العلوم ألذّ لي　　من وصل غانية وطيب عنـاق
وتمايلي طربا لحـل عويصة　　أشهى وأحلى من مدامة ساقي

ونحن مدينون في الاستفادة من تربة الوطن وخيراته ومؤسساتـه لاولئك الاجداد والآباءالذين عمروه بجهودهم ومبراتهم،وفدوه بدمائهم وأرواحهم حتى أوصلوه الينا عزيزا كريما •

ونحن مدينون في عقائدنا وادياننا التي نعتز بها ، ونتحدث بنعمة الله علينا في هدايتها وآدابها ، لذلك السلف الصالح الذين تحملوا في بدء الدعوة اصنافا من الاذى والحرمان ، وبذلوا من دمائهم وارواحهم ما اوصلوا به الدين الى من بعدهم منتصرا على خصومـه ، مزيلا من طريقه عثرات المستهزئين والجاحدين والمكذبين ، فشهداء المسيحية في القرون الثلاثة الاولى لميلاد المسيح عليه السلام هم اصحاب الفضل على كل مسيحي يشعر بلذة الخضوع للسيد المسيح وتعاليمـه ، وشهداء الاسلام في عصر الرسول وفي عصر الخلفـاء من بعده ، هم اصحاب الفضل على الانسانية في كل ما نعمت به من خير الاسلام وحضارته الخالدة •

وهكذا نعيش نحن ابناء هذا الجيل مدينين للاجيال السابقة في كل ما نتمتع به من آثار فدائهم وتضحياتهم وايثارهم •• وانه لجدير بنا ان نتابع سلسلة هذه التضحيات لنؤدي للاجيال المقبلة مثل الخير الذي ادته الاجيال السابقة لنـا •• فهل يقدر جيلنا الحاضر معاني الفـداء والايثار ؟ وهل يتخلق بهـذا الخلق الذي تأمر به شرائع الله وقوانين الاخلاق ؟

الحق ان هذه الحياة التي نعيشها اليوم تكاد تمحى فيها آثار هذا الخلق الانساني الجميل ، فأنت أين ما سرت وأينما فتشت في زوايـا مجتمعنا الحاضر ، وجدتَ أنانية تطغى على كل شيء ، وجدت أنانية

الاب تطغى على علاقته مع اولاده ، وأنانية الزوج تطغى على علاقته مع زوجه ، وأنانية الزعيم تطبع كل علاقته مع الجمهور ، وأنانية الاغنياء والموسرين واضحة في موقفهم من البؤساء والعمال والفلاحين ، أنانية طغت على كل فئة في الشعب ، فالتاجر لايفكر الا في تجارته ، والزارع لايهتم الا بزراعته ، والموظف لايبالي الا بوظيفته ، هذه الانانية هي التي انتزعت الثقة بين المواطنين وقطعت وشائج الرحم بين ذوي القربى ، واضعفت روابط الانسانية بين الناس بعضهم مع بعض ، حتى كاد الجار يتنكر لجاره والصديق لصديقه ، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه الى تعاون على مشكلات الحياة ننجو به من كوارثها وويلاتها .. ومع هذا ففي مجتمعنا ظواهر من الايثار تدع الامل في تبديد ظلمات الانانية قويا مشرقا ..

فهؤلاء الذين استشهدوا في بطاح فلسطين من شبابنا ، والذين سبقوا الى الاستشهاد في معارك التحرير من تاريخنا الحديث ، والذين يمدون مؤسسات الخير بمبراتهم وجهودهم ، والذين يقفون انفسهم على الاصلاح في وسط غافل لايقدر عملهم ولا يهتم بدعوتهم .. كل هؤلاء ليسوا الا طلائع ركب التضحية والايثار ، وانا لنرجو ان يزداد هذا الركب مع الزمن نموا وقوة .

ياصديقي المستمع الكريم

نحن في شهر كريم يدعو الى الخير ويحث على الايثار ، فتعال بنا نستعرض مبادىء الايثار في عقائدنا ، وآثاره في تاريخنا ، لنستنشق روائح الانسانية الكريمة التي غمرتها مطامع الاهواء والشهوات في عصرنا الحاضر ..

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وصحابته من مكة الى المدينة آخى بين المؤمنين من المهاجرين والانصار ، اذ جعل لكل أخ أنصاري أخا مهاجرا ، فكان الانصاري يأتي بأخيه المهاجر الى بيته

فيقسم كل ما فيه بينه وبين اخيه ، يقسم له ماله وثيابه وطعامه ودوابه ، وينزله من نفسه وأهله منزلة الحبيب من الحبيب ، لايضن عليه بمساعدة، ولا يقصر دونه في نصح أو معونة ، حتى نسي المهاجرون غربة الوطن وفقد الاهل وفوات الثروة ، مما جعل القرآن الكريم يسجل هـذه الظاهرة البارزة من الايثار الكريم ليكون الدرس الباقي للاجيال الصاعدة من بعدهم ، واستمع اليه حين يقول :

« والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١) » .

ويقول الله تبارك وتعالى في الذين يُضحون بأرواحهم في سبيل الحق والخير :

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون (٢) » .

ويقول في وصف عباده الذين يعملون الخير لا رغبة في ثناء ولا طمعا في مكافأة :

« ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً (٣) » .

ولما قرر الرسول الهجرة من بيته الذي احاط به المشركون ليقتلوه وضع مكانه في فراشه ابن عمه عليا رضي الله عنه ، وآثر على ان يكون الفداء لرسول الله ، وان يعرض نفسه لسيوف المشركين تقطع لحمه وتزهق روحه ، وبذلك فدى بنفسه رسول الهداية للناس اجمعين .

ولما اصاب الناس هول المجاعة والقحط في عهد عمر ، كان عمر لاينام الليل الا قليلا ، ولا يجد الراحة الا قليلا ، كان كل همه ان يدفع خطر

---

(١) الحشر : ٩ (٢) آل عمران : ١٦٩ (٣) الانسان : ٨ ، ٩

المجاعة عن شعبه ، وما زال به الهم حتى اسمرّ وهزل وقال من رآه :
«لو استمرت المجاعة شهورا أخرى لمات عمر من الهم والاسى ..»
وجاءته يوما قافلة من مصر تحمل اللحم والسمن والطعام والكساء ،
فوزعها بنفسه على الناس ، وأبى أن يأكل منها شيئا ، وقال لرئيس القافلة
.. ستأكل معي في البيت .. ومنّى الرجل نفسه بطعام شهي .. اذ
حسب ان طعام امير المؤمنين سيكون خيرا من طعام الناس .. وجاءا الى
البيت ينهكهما الجوع والتعب ونادى عمر فجيء بالطعام .. وكان ما
أذهل الرجل وأدهشه : ان طعام امير المؤمنين لم يكن لحما ولا سمنا
ولا شواء ولا حلوى ، وانما كان كسرات من الخبز الاسود اليابس مع
صحن من الزيت .. وعجب الرجل من صنيع امير المؤمنين وقال له :
«لماذا منعتني من أن آكل مع الناس لحما وسمنا ، وقدمت لي هذا الطعام
الذي لا يساغ ؟ » قال عمر «ما اطعمك الا مما اطعم نفسي .. » ، قال
«وما يمنعك أن تأكل مما يأكل منه الناس وقد وزعت بيديك اللحم
والطعام عليهم ؟ ، قال عمر : «لقد آليت على نفسي أن لا اذوق السمن
واللحم حتى يشبع منهما المسلمون جميعا ..» .

أرأيت ابلغ من هذا الايثار ؟ ارأيت له مثيلا في الدنيا ؟؟ ..

ان التاريخ ليحدثنا عما صنع نساء باريس في حرب السبعين من
ضروب البذل والفداء حتى قدمن حليهن ليساهمن في الغرامة التي
فرضها الالمان على سكان باريس ثمنا لفك الحصار عنها .. وكان موقف
نساء باريس مثلا طيبا للايثار والفداء .. فهل يبلغ هذا في روعته ايثار
نساء المسلمين في عهد الرسول اذ وقف مرة يحثهن على البذل والصدقة ،
فلم تبق امرأة تتحلى بشيء من الحلى الا رمته بين يدي رسول الله صلى
الله عليه وسلم لينفقه الرسول في وجوه الخير [١] ... ان البذل في أيام
الحرب لدفع غارة العدو أمر يستحق الثناء ، ولكن البذل في ايام السلم
رغبة في عمل الخير وثواب الله ، يستحق أكثر من الثناء والاجلال ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم

لا جرم أن نساءنا اللاتي جدن بحليهن في زمن السلم ، ابقى واخلد من نساء باريس اللاتي جدن بحليهن في زمن الحرب .

أيها المستمعون والمستمعات

كان من نسائنا الصالحات امرأة عابدة عرفت في التاريخ باسم رابعة العدوية ، وكان من مناجاتها لله في عبادتها هذه الكلمات الخالدات : « اللهم اني ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك ولكن لانك تستحق العبادة ..» وكانت كثيرا ما تنشد هذا البيت :

حببتك حبين : حب الهوى .. وحبا لانك أهل لذاكا

فلماذا لا نبلغ في سمو النفس وروعة الايثار والفداء ما بلغت رابعة العدوية ، فنعمل الخير للخير مؤثرين الناس على انفسنا لا نرجو ثناءهم، ولا نطمع في مكافأتهم ، وانما نرجو وجه الله وحده ؟ لماذا لا نعمل الخير لاخواننا وجيراننا والناس جميعا نذكر حاجتهم قبل حاجتنا ومصالحهم قبل مصالحنا دون ان ننتظر اجرا او جزاء ؟

ايها الناس : اذكروا دائما قول الله تبارك وتعالى :

« ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكوراً (١) » .

---

(١) الدهر : ٨ ـ ٩

الغلو في الحب والكره

اذيع يوم الجمعة : ١٢ من رمضان ١٣٧٣
١٤ من مايس ١٩٥٤

ما أعجب شأننا في هـذه الحياة .. نعلم أن بقاءنا فيها محدود ، واقامتنا فيها منصرمة ، ومع ذلك فاننا لنغرق في الأمل حتى لكأن الخلود من لوازم الحياة ، ونسترسل في الطمع حتى لكأن الدنيا قد كتب لها البقاء .. ونحب الشيء فنفرط في الثنـاء عليه والتعلق به حتى لكأنه الحلو الذي لا مرارة فيه ، ونكره الشيء فنفرط في النفرة منه والتشهير به حتى لكأنه المر الذي لا حلاوة معه ، ونعتقد الأمر فنتعصب له حتى لكأنه الحق الذي لا باطل يأتيه ، وننكر الفكرة فنحمل عليها حتى لكأنها الباطل الذي لا أثر للصدق فيه .. ذلك هو الافراط في كل شيء .. يقلب الحقائق ، ويجانب الصواب ، ويوقع في المشاكل ، ويقطع الأواصر ، ويجلب العداوة والبغضاء ، وأنت لا تشك حين تقرأ تاريخنا السياسي والعلمي والادبي ، ان هذه المغالاة في الحب والكره شغلت من حياتنا وقتا ليس بالقصير ، وتركت وراءها ذيولا من العداوات والخصومات كانت ذات أثر كبير في وهن قوتنا التي كانت تهز الدنيا يومئذ .. وهذا عدا عما شوهت من الحق ، وطمست من معالم الخير ، وجعلت مهمـة المؤرخ عسيرة شاقة لا يصل معها الى الحق الا بجهد وعناء ..

فهذا الخلاف بين علي وعائشة ، وبينه وبين طلحة ، وبينه وبين معاوية ، قد كان من الممكن أن يكون ككل خلاف يقع في التاريخ بين وجهتي

نظر فيمن هو اصلح وأحق بالحكم والخلافة ، ولكن المغالاة في حب علي وكرهه ، جعلت من هذه المسألة ذات أثر كبير في انقسام المسلمين الى شيع وطوائف حارب بعضها بعضا ، وكم سالت في سبيل ذلك دماء حرّمها الله ، وانتهكت حرمات صانها الدين ، ونحن لا نزال حتى اليوم نعاني من آثار هذه العداوات مانرجو أن يتنبه المسلمون لخطرها واثمها.

وهذا الخلاف بين الأمويين وخصومهم ، كان من الممكن أن يظل في دائرة النقد النزيه تعرف فيه الحسنات والسيآت ... ولكن هل تستطيع أن تحكم اليوم حكماً نزيهاً واضحاً في ذلك الخلاف ، دون أن ينالك الاعياء والحيرة من آثار الغلو في الحب والكره الذي اتصف به أنصار الأمويين وخصومهم على السواء ؟

واذا انتقلنا من ذلك الى ميدان العلم والتشريع ، رأينا الافراط في الحب والكره نال من كبار أئمة التشريع واللغة والأدب في عصرهم وما بعده ، حتى شوّه سمعتهم وشغل الناس بالأباطيل التي أثيرت من حولهم.

فكم شغل الناس في أمر أبي حنيفة الفقيه العظيم الخالد ما بين معجب به ومزر عليه ؟ حتى وضع الجاهلون من محبيه أحاديث مكذوبة على الرسول في مدحه والثناء عليه ، بينما جرده الجاهلون من مبغضيه من كل فضيلة ودين ، فاذا هو في زعمهم ينكر الحديث ، ويكذب الرسول ، ويقول ما يبرأ منه كل مسلم .. وكم شغل الناس بعد ذلك بالخلافات المذهبية بين الحنفية والشافعية ، وبين الشافعية والحنابلة ، وبين أهل الحديث وأهل الرأي ، مما ملأ المئات من الكتب والأسفار التي لو كتب عشرها فيما يفيد المسلمين يومئذ لغيَّر مجرى التاريخ ودفع كثيرا من النكبات والكوارث .

وهذا الخلاف بين الكوفيين والبصريين من النحاة ، ألم تسمع به ؟ ألم تقرأ عن المتعصبين لسيبويه والمتعصبين للكسائي ؟ ألم تقرأ عن المتعصبين لأبي الطيب المتنبي والمتحاملين عليه ؟ ألم تر كيف يفعل الافراط

في الحب والكره فعله في اضطراب المقاييس وتشويهها ؟..
وابن تيمية ألم يذهب ضحية المفرطين في حبه والمفرطين في كرهه ؟ حتى رموه بالكفر والزندقة وزجوه في غياهب السجون ، وحملوه على التوبة مما بهتوه من كفر وزندقة ، وهو الامام العظيم الذي لم يكن — بعد عصر أئمة الاجتهاد — من يدانيه دقة نظر وصدق ايمان وحسن فهم لدين الله وشريعته .

وهل ننسى الشيخ محمد عبده ومواقف الجامدين والجاهلين منه في حياته وبعد وفاته ، حتى جردوه من فضيلة الصدق والاخلاص والخوف من الله ، ورموه بكل كبيرة تحط من قدره في أعين الجماهير ؟

هذه هي آثار الافراط في الحب والكره والتأييد والخذلان في تاريخنا القديم ، فهل سلم تاريخنا الحديث من مثل هذه الآثار السيئة ؟

انك لا تستطيع حين تدرس أوضاعنا الاجتماعية الحاضرة دراسة منصف خبير الا أن تذهب الى أن من أكبر أسباب الفوضى والاضطراب في حياتنا بعدنا عن الاعتدال فيما نحب ونكره ، ونؤيد ونعارض ، ونعمل وندع ..

فهذا زعيم يغالي فيه أناس حتى ليجعلونه في مصاف الملائكة: لا عيب ولا وزر ، ولا خطيئة ولا نقيصة ، ويغالي آخرون حتى ليهبطون به الى مستوى الشياطين : لا فضل ولا مأثرة ولا اخلاص ولا كفاءة .. ينتصر له المحبون حتى في الباطل والأذى ، ويحاربه المبغضون حتى في الحق والفضيلة ..

وهذا عالم يغالي أشياعه فيزعمون أنه يملأ طباق الأرض علما ، حتى ليحيط علمه بكل شيء ، ويكشف ذكاؤه كل مبهم ، ويغالي شانئوه فيزعمون أنه الجاهل الذي أحاط به جهله ، والمغرور الذي غطى حقيقته على الناس غشه ودجله ، فان احتاج الأمر الى الذكاء ، كان البليد الذي لا يحس ، وان احتاج الى الفهم كان الغبي الذي لا يفهم ..

وهذا مصلح يزعم المعجبون به أنه فوق الأهواء والشهوات ، فاذا عمل فليس له غاية ولا غرض ، واذا تكلم فانما هي الحكمة التي لاتنطق عن الهوى ، ويراه المبغضون أنــه أناني لا يعمل لغير نفسه ، مادي لا يسعى الا لأهوائه وشهواته ، فاذا عمل فليس الا للشهرة او المنفعة ، واذا تكلم فليس الا للخداع والتضليل .

وهذا حزب يزعم أنصاره أنه الطريق الوحيــد لمجد الوطن وخلود الأمة ، بينما يزعم خصومه أنه طريق الفوضى والشر والتهديم لكل ما تملكه الأمة من قيم وما تبنيه من عمل .

وهذه صحفنا أنظر اليها.. كيف تحكم على الأمر الواحد والسياسي الواحد والحزب الواحد أحكاما مضحكة في الغرابة والتناقض .. فبينما تجعل بعض الصحف من فلان باني أمة وحارس استقلال وقائــد عزة وكرامة ، اذا بصحف أخرى تجعله خائنا مأجورا مخربا ، يستحق الموت ، ويستأهل اللعنة ، ويحمل وزر كل خزي وفساد في مجتمعنا الحديث ..

وهكذا ضاعت مبادىء الاصلاح وقيم العلماء وكرامات المخلصين ، وجهود المصلحين ، في غمار هذه العداوات المشتجرة التي جعل منهـا الافراط في البغض أو الحب ، مقابر للمروءات والكرامات ، وأسلحة تهدم في كيان الوطن من حيث يتربص به أعداؤه الدوائر ، ولو صدق قول كل فريق في الآخرين وحكم كل صحيفة على من تهاجمه ، واتهــام كل حزب لمن يعاديه ، لكان معنى ذلك أن أمتنا كلها بأحزابها وزعمائها ورجالها وعلمائها خائنة مأجورة مفسدة لا تستحق الحياة ولا احترام أهل الحياة .. فما أشد شماتة الأعداء بنا في عالم يتربص بنــا السوء ويتتبع منا العثرات والغفلات !..

ان الاعتدال في كل أمر هو ملاك الخير كله ، ولذلك جاء الاسلام بالنهي عن المغالاة في كل شيء :

نهانا عن أن نغالي في رسل الله حتى نزعم لهم صفات الالوهية **« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل (١) »**

ونهانا عن الغلو في العبادة حتى ينقطع صاحبها عن الحياة ويرهق نفسه في السهر والعبادة : .. جاءت امرأة عبد الله بن عمرو بن العاص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت اليه أن زوجها يقوم الليل كله ويصوم النهار كله ولا يتصل بها اتصال مؤانسة وسكن .. فأرسل الرسول الى عبدالله فقال له : «ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ولا تأتي أهلك ؟ ، قال : بلى يا رسول الله . قال : فلا تفعل ، ولكن صم وأفطر ، وقم ونم ، وأت أهلك ، فان لنفسك عليك حقا وان لجسدك عليك حقا ، وان لأهلك عليك حقا » [٢] .

ونهانا عن الافراط في النفقة أو التفريط فيها **« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً (٣) »**

ونهانا عن اتباع الهوى في معاملتنا للناس ، فلا نميل مع صديق ولا نجور على عدو **« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا** (أي لا تحملنكم عداوتهم على أن لا تعدلوا معهم) **اعدلوا هو أقرب للتقوى (٤) »** **« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين (٥) »**

ونهانا عن الغلو في العصبية الخارجة عن قواعد العدالة : « ليس منا من دعا الى عصبية [٦] » « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات : فأما المنجيات، فالعدل في الغضب والرضا ، وخشية الله في السر والعلانية ، والقصد في

---

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) رواه البخاري ومسلم (٣) الاسراء : ٢٩

(٤) المائدة : ٩ (٥) النساء : ١٣٤ (٦) رواه ابو داود

الغنى والفقر ، وأما المهلكات : فشح مطاع ، وهوىً متبع ، واعجاب المرء بنفسه »[1] .

هذه هي روح الشريعة : اعتدال في كل شيء ، ووسط في كل أمر ، وبذلك سمانا الله تعالى امة وسطا : **« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً (٢) »** .

أفلا ترى أيها الأخ أن الاعتدال في علائقنا مع الناس وانصافهم في كل حالات الحب والكره والرضا والغضب ، هو الحكمة التي تبقي على روابط المودة ، وتقضي على آثار العداوة ، وتسد ثغرات الشيطان التي ينفذ منها الى الصداقات والمودات .. وما أجمل ما يقول ذلك الحكيم: « اذا أحببت ففكر في البغض لعله يكون ، واذا كرهت ففكر في الحب لعله يكون» وكم يضطر الانسان في حياته الى مصادقة من عاداه ، ومعاملة من جافاه .. فَلِمَ ننـدفع في حال الكره حتى لا نترك مجالا للعفو والتسامح ؟

اني لأذكر يوم كنت طالبا في المدرسة ، وكان لنا استاذ نكره منه أسلوب تدريسه رغم علمه وفضله ، فقررنا أن نعمل على اخراجه حتى تستبدل به الادارة غيره .. وأضربنا عن دروسه ، وقدمنا فيه العرائض، وأشعنا عنه الشائعات ، وأثرنا في صفوف الطلاب غبار الشبهات عن علمه وفضله .. حتى تم لنا ما أردنا ... اني لأذكر الآن موقفنا من أستاذنا هذا ، فأخجل منه بيني وبين نفسي ، وأعترف بالاساءة وأبوء بالندم عليها ، وكم في حياتنا من مثل هذه المواقف.. نندفع في المعارضة والازراء على من نخالفه في رأي أو خطة .. ولا نبالي بما نركب في هذه المعارضة من صنوف الشطط والغلو والافراط .. حتى اذا زالت أسباب

---

(١) رواه الطبراني في الاوسط (٢) البقرة : ١٣٤

المعارضة ، وهدأت النفوس واستقرت الأمور ، أدركنا خطأنا فيما فعلنا، وقد تفوتنا فرصة الاستدراك لأخطائنا فنندم ولات ساعة مندم ..

وكم في مجتمعنا من دعوات للاصلاح نحاربها دون أن نستمع اليها، ونسيء ظننا بها دون أن نتأكد من حقيقتها .. نجري وراء الشائعات ، ونصدق الأكاذيب ، ورجال هذه الدعوة بين أظهرنا ، لا نكلف أنفسنا عناء سؤالهم ، والبحث عنهم والتحقيق معهم في آرائهم .. وبذلك تصطدم دعوات الاصلاح بالاكاذيب والشبهات ، وينجرف في معاداتها لا شرار الناس وأخلاطهم فحسب ، بل كرام الناس وخيارهم ، ممن تسرعوا في الحكم وتأثروا بالأضاليل ، والله تعالى يقول :

« ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا (١) »

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا علمت مثل الشمس فاشهد والا فدع ٢ » ، وينهانا الله عن اتباع الظن **« ان الظن لا يغني من الحق شيئاً (٣) »** .

الاعتدال فيما نحب ونكره ، والتثبت مما نقبل ونرفض ، والتأني فيمن نصادق ونجافي ... هو سبيل الخلق الكريم وخطة العاقل الحكيم .. وطريق الأمة الواعية التي تأخذ بقدر ، وتعطي بقدر ، وتؤيد بقدر ، وتعارض بقدر .

يا أبناء هذه الأمة !

ان طريقنا طويل شاق ، وان حياتنا مليئة بالاخطار والمتاعب .. وان أعداءنا كثر مستيقظون .. وان امكانياتنا متوفرة مثمرة .. فلا تفرطوا في مواهب الممتازين ، ولا تشككوا في اخلاص العاملين ، ولا تضيعوا

---

(١) الاسراء : ٣٦ (٢) رواه البيهقي والحاكم (٣) يونس : ٣٦

أوقاتكم في الجدل حول الأشخاص والمبادىء ، جدلا تـطمس فيه آثار الحق ، ويتنكب فيه جانب الصدق ، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاسا ، او كالذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم .. كل موهبة من مواهب الأفراد هي ملك لكم جميعا ، وكل عمل من أعمال الأشخاص هو ثروة لكم جميعا ، وكل ساعة من عمر الواحد منا هي وقت من أوقات الأمة جميعا ، فلنجتنب الغلو ولنعتصم بالاعتدال .. ولنثق بأن ملاك السعادة في حياتنا الاجتماعية ، ومفتاح الاستقامة في أخلاقنا وعلاقاتنا وصداقتنا ، أن نقف عند حدود قول الله تبارك وتعالى :

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لانكلف نفساً الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون، وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١) » .

---

(١) الانعام : ١٥٢ ، ١٥٣

بين الفردية والجماعية

اذيع يوم الجمعة : ٢٦ من رمضان ١٣٧٣
٢٨ من مايس ١٩٥٥

نحن كأفراد مدينون في حياتنا للجماعة التي تعيش بين أظهرنا ، فلولا رعاية الابوين للطفل الوليد ، ولولا عناية الاستاذ بالفتى التلميذ ، ولولا انصراف أهل السوق الى جلب السلع وترويج البضائع ، ولولا وجود هذه المهن التي تقوم بكل ما يحتاج اليه الانسان من شؤون معيشته ، لولا هذا كله لما استطاع الانسان أن يعيش آمنا على نفسه ، مرفها في معيشته ، مستفيدا من جهوده وثروتـه .. وبذلك كان كل فرد في المجتمع مهما علا شأنه مدينا للآخرين بجهودهم وصناعتهم وأعمالهم .. ولو أنت فكرت فيما عليك من ثياب ، وحسبت الايدي التي تعاونت على نسجها وخياطتها وتصديرها وتصريفها ، لعلمت أنك مدين في لباسك الى آلاف الناس ما بين شرق الدنيا وغربها .. وقل مثل ذلك فيما تأكل من طعام ، وما تسكن من بيوت ، وما تستعمل من حاجات ..

ولذا كان من أبرز مظاهر الوعي في الافراد شعورهم بحق الجماعة عليهم ، وتصرّفهم في حدود التعاون الاجتماعي ، حتى يكون المجتمع كبناء متراص لاتجد فيه ثغرة ولا خللا .. وبهذا المقياس يقاس رقي الامم وخلود الحضارات وعظمة الديانات .. فالدين الحق هو الذي

ينمي فيك روح الشعور بحق الجماعة ، والحضارة الخالدة هي التي تحمل أبناءها على الشعور بشعور الجماعة ، والامم الراقية هي التي تغلب الروح الجماعية كل نزعة فردية وانعزالية في أبنائها ..

وليست الحضارة ولا المجتمعات الا أثرا بارزا من آثار الديانات في توجيهها للافراد والجماهير .. وبذلك كان من واجبنا ونحن نفتش عن مشاكلنا الاجتماعية ، أن نبحث في ديننا عن أثره في تنمية التعاون الاجتماعي بين الافراد ..

ومن الحق ان الاسلام يحتل مكان الصدارة بين الديانات التي تدعو الى التعاون ، وتحارب العزلة والانكماش ، وتقوي صلة الفرد بالمحيط الذي يعيش فيه ، عن طريق العبادة والتربية والتشريع .

تقوم عقيدة المسلم على أن الله واحد ، وأن هذه العوالم كلها مخلوقة لاله واحد ، وأن الانسان مرتبط مع هذه العوالم برابطة العبودية والحاجة لله ، وأن عالم الحيوان بطيوره ودوابه عالم مثل عالم الانسان ، وأمم أمثالنا نحن أبناء الانسان : ((**وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم (١)**)) ،

ولذلك يكرر المسلم كل يوم في صلاته بضعا وثلاثين مرة :

((**الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم (٢)**)) .

ثم يقرر الاسلام صلة الانسان بأخيه صلة كرامة ونفع وتعاون .. يقول الله تعالى :((**ولقد كرمنا بني آدم (٣)**)) فأثبت هذه الكرامة وصفا للانسان كانسان ، بقطع النظر عن دينه ولغته وجنسه .. ويقول :

((**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم (٤)**))

---

(١) الانعام : ٣٨ (٢) الفاتحة : ١ ، ٢ (٣) الاسراء : ٧ (٤) الحجرات : ١٣

ويقول عليه الصلاة والسلام : « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله [1] » .

وانه لحافز اجتماعي ما بعده حافز في نظر المؤمن أن يكون مقياس القرب الى الله نفعه للناس وافادته لهم .

وتقوم آداب الاسلام على اعتبار التعاون مع الناس أساسا لهذه الآداب ، فروح الشريعة مكارم الاخلاق « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق [2] » وروح مكارم الاخلاق هو التعاون مع الناس على الخير ، والاحسان اليهم ، واسداء النصح والمعروف لهم .. والقاعدة التي تبنى عليها الأخلاق في الاسلام هي قول الله تبارك وتعالى : **« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان (٣) »** وانه لجميل أن تعرف أن البر والتقوى في الاسلام ليس ما يتوهمه العامة والجاهلون من انهما العبادة والصلاة فحسب ، بل كل عمل فيه خير لنفسك وخير للناس هو في الاسلام بر وتقوى . استمع الى قوله تبارك وتعالى في تحديد البر والتقوى ما هو :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (٤) » .

فها أنت ترى تحديدا للبر والتقوى بأنه الايمان والانفاق على الطبقات العاجزة في المجتمع ، والعبادةوالزكاة ، والوفاءبالعهد ، والصبر

---

(١) رواه البزار (٢) رواه البخاري في الادب والحاكم ورواه مالك بلفظ «بعثت لأتمم حسن الاخلاق » (٣) المائدة : ٣ (٤) البقرة : ١٧٧

على الشدة .. هذه هي حدود البر والتقوى التي أمرنا الله أن نتعاون عليها ، ويكون ما عداها من شرك وقسوة وظلم وأكل لحقوق الناس ونكث للعهد ، وجزع عند المصائب اثما وعدوانا يبتعد عنهما المؤمن ، ولا يجوز أن يتعاون عليهما مع أي انسان كان ..

وتقوم العبادات في الاسلام على فكرة التعاون الاجتماعي بين المؤمن وبين الناس جميعا ..

فهذه الصلاة ما فوائدها ؟ ما حكمتها ؟ ما الغاية منها ؟ أهي طقوس ورموز لا معنى لها ؟ أهي حركات آلية لا مغزى لها ؟ أهي صلة فردية بين العبد وربه كما يتوهم الجاهلون ؟ كلا .. انها عملية تطهير واعداد.. تطهير للانسان من كل آثار الانعزالية والقسوة والغفلة والفاحشة .. واعداد له ليتحلى بكل خلق اجتماعي تعاوني فيه للناس جميعا فائدة ونفع .. استمع الى القرآن يشرح فوائد الصلاة .. يقول تعالى : « **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** (١) » فهذه ناحية سلبية هي التطهير من كل خلق ذميم .. ويقول : « **ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً ، واذا مسه الخير منوعاً ، الا المصلين** (٢) » . وهذه ناحية ايجابية هي الاعداد لكل خلق عظيم .. تلك هي الصلاة .. عبادة لتقويم الخلق الاجتماعي الكريم المتعاون في نفوس المصلين ، فان لم تؤد الى ذلك كانت أعمالا باهتة وحركات ضائعة .. لاتقرب المصلي الى ربه ، بل تزيده عنه بعدا .. وبهذا أعلن صلى الله عليه وسلم عن فلسفة الصلاة وغايتها : « مَنْ لَمْ تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعداً [٣] » .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) المعارج : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ (٣) رواه الطبراني

وهذا الصوم ! ما فائدته ؟ ما حكمته ؟ ما غايته ؟ أهو جوع وعطش؟ أهو تعذيب وحرمان ؟.. كلا .. انه عملية تطهير واعداد أيضا .. تطهير للصائم من القسوة والبخل واللغو والعبث والكذب والخصام .. واعداد له ليتحلى بكل ما يحبب الصائم الى الناس من تعاون ورحمة وبر ووفاء ، وشعور بآلامهم في الفرح والحزن وفي الشدة والرخاء.. يقول القرآن عن حكمة الصيام : « **لعلكم تتقون (١)** » من اتقاء كل ضار وخبيث ومفسد لحياة الافراد والجماعات .. ويقول عليه الصلاة والسلام : « الصوم جُنة ــ أي وقاية ، أي تطهير ، أي عمل سلبي أولا ، وايجابي أخيرا ــ فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، وان سابَّه أحد أو قاتله فليقل اني صائم [٢] » . هذا هو الصيـــام عمل اجتماعي قبل أن يكون عبادة فردية .. وما أروع قوله صلى الله عليه وسلم في التعبير عن فلسفة الصوم وغايته : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه [٣] » ومثل ذلك قوله عليـــه السلام : « ربَّ صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش [٤] » .

وهذا الحج ! لِمَ شُرع ؟ وعلى من فرض ؟ أهو غربة وعذاب ؟ أهو طواف حول أحجار وبنيـــان ؟ أهو أثر من آثار الوثنية كمـــا يتوهم الجاهلون ؟ كلا .. انه اجتماع وتعارف ، ولقاء وتعاون .. انه تطهير واعداد أيضا .. تطهير للمسلم من كل آثار الانعزالية والأنانية والرخاوة والترف .. واعداد له على روح التعاون والاجتماع ، والاعتماد على النفس والتحمل لشدة العيش وشظف الحياة .. انه في مكة طواف وسعي يدلان على ثبات على الخير والتفاف حوله حتى نهاية الحياة .. وانه في منى جمار ورمي يرمزان الى مكافحة الشر والرذيلة في الحياة حتى لقاء الله .. ذلك هو الحج جمعت حكمته ثلاث كلمات من كلمات الله المعجزات « **ليشهدوا منافع لهم ٥** » .

---

(١) البقرة : ١٨٣ (٢) رواه البخاري ومسلم (٣) رواه البخاري
(٤) رواه ابن ماجة (٥) الحج ٢٨

وهذه الزكاة •• هي معجزة الاسلام في تشريعه الاجتماعي العظيم •• وهي سر بقاء المجتمع الاسلامي مئات السنين سليما قويا متماسكا ، لاتهزه الثورات ولا تزعزعه الأزمات •• وهي مظهر من مظاهر الروح الاجتماعية التي تتغلغل في تشريع الاسلام حتى لتكاد تمحى فيه روح الانعزالية والفردية •

ومن المناسب أن نرتد بأبصارنا أربعة عشر قرنا حيث نرى العالم يومئذ يعيش في نظم كلها تقوم على الأثرة والفردية والاستبداد والقسوة •• حيث كان الغني يعيش في عالم من الترف والتبذير مستقل عن عالم الفقراء في بؤسهم وشقائهم •• وحيث كان الملوك والامراء يعيشون لحساب أنفسهم لا للجماهير •• وينعمون باللذة والترف من تعب الجماهير لا من تعب أنفسهم ، وحيث كان رجال الدين أداة مسخرة بيد الاقوياء ، لاينصرون حقا ، ولا يرفعون ظلما ، ولا ينصفون فقيرا من غني ولا شعبا من حاكم ، وحيث كانت القوانين كلها تزيد القوي قوة ، والظالم بغيا ، من حيث تزيد الضعيف ضعفا والمظلوم اجحافا وهضما •

كانت روح الفرد هي التي تسيطر على كيان الجماعة ، فكل فئة تعمل لنفسها ، وكل انسان يسعى لثروته وكسبه ومنفعته •• أما هذه الجماهير البائسة فلم يكن لها حق الدفاع عن نفسها ، ولا المطالبة بكرامتها ، واستمر الامر هكذا في أكثر أنحاء العالم وخاصة في العالم الغربي حتى أواخر عهد النهضة •• ومن الجدير بالذكر أن أوروبا لم تعرف فكرة التكافل الاجتماعي الا في أواخر القرن التاسع عشر •• حيث كان الناس لايشعرون بأن للفقراء والعاجزين حقا في أموالهم ، ولا كانت الدولة ترى أن من واجبها اعانتهم وتوفير العيش الكريم لهم ، بل كان يترك ذلك لصدقات الناس واحسانهم •

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت فكرة التضامن الاجتماعي تعمل عملها الضيق المحدود في نطاق الهيئات المحلية التي كانت تقوم باعانة المحتاجين لقاء شروط قاسيـة ، من أهمها التنازل عن حقهم في الانتخاب ، فمن كان يتناول معونة من جمعيات التعاون أو من صندوق الدولة كان عليه ان يتخلى عن حقه الانتخابي لقاء تلك المعونة ..

فانظر ما أعجب شأن الاسلام حين كان منذ القرن السادس يعلن ثورته الاجتماعيةالكبرى .. فيقرر مبادىء التكافل الاجتماعيما لاتزال الامم الراقية في عصرنـا الحاضر مقصّرة في ادراك شأوه واللحـاق بسموه وانسانيته .

في أظلم عصور التاريخ حيث كان الانسان يأكل أخاه الانسان ، يأكل حقه ، ويأكل كرامته ، ويأكل منزلته الاجتماعية .. كان الاسلام يعلن للدنيا أن الناس سواسية ، وان الانسان أخو الانسان ، وأن الفقر والضعف ليسا عيبا يسقط صاحبهما من كرامة المجتمع وحق الحياة .. بل ان لكل انسان في المجتمع حقوقا خمسة يجب أن تتوفر له ، مسلما أو غير مسلم ، عربيا أم أعجميا ، مواطنا أم غريبا ، حقوق خمسة هي قوام الحياة الانسانية ، ولحمايتها يجب أن يقوم التشريع والقوانين والحكومات .. هذه الحقوق هي : حق الحياة ، وحق الدين ، وحق العلم ، وحق العيش ، وحق الكرامة .. انها الحقوق التي أعلنهاالاسلام لكل انسان على وجه الارض ، وأقام عليها تشريعه ، وركز في سبيلها جهوده ، وأعلن للحفاظ عليها حربه وجهاده .

وليست الزكاة الا بعض ما جاء به الاسلام من تشريع لضمان هذه الحقوق وتوفيرها لكل مواطن .. وحتى هذه الزكاة التي هي جزء من تشريع اجتماعي شامل ، كانت ثورة كبرى في تاريخ الانسانيـة .

لقد أعلن الاسلام أن الناس متكافلون في الحيـاة .. وأن على

المجتمع حكومة وشعبا أن يرعى أبناءه العاجزين عن الكسب •• **فلهؤلاء** حق في أموال الناس وفي أموال الدولة ، وأن ضمان حياتهم وكرامتهم من ألزم الواجبات التي يطالب بها الشعب والحكومة على السواء •• وفي ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ان الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم • ولن يجهدالفقراء اذا جاعوا وعروا الا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وان الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما [1] » وعلى أساس هذا المبدأ أعلن أن الزكاة حق لا منة ولا عطية •• وهي حق للطبقات البائسة المحرومة من وسائل العيش الكريم :« **والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (٢)** »

هكذا نقل الاسلام اسعاف البائسين من أن يكون منة تذل كرامتهم الى أن يكون حقا يأخذونه مرفوعي الرأس موفوري الحرمة •• هي حق في مال الدولة والشعب كحق الموظف في قبض راتبه ، وحق الجندي في توفير معيشته ، وحق المعلم في أخذ حاجته وكفايته [3] •

وبهذا وضع الاسلام نظم التكافل الاجتماعي كاملة متقنة وافية بالحاجة قبل أن يعرفها الغرب باثني عشر قرنا •• وبهذا كان مجتمعنا الاسلامي في عصور الخير والقوة أول مجتمع في الدنيا فاض بمؤسسات الخير والتكافل الاجتماعي كالأوقاف والمدارس والمستشفيات والملاجىء وغيرها مما لم تعرفه أمة من الامم على شكله الواسع الذي سد حاجات الطبقات البائسة ووفر لها كرامتها وانسانيتها •

واليوم ونحن في أشد الشكوى من سوء أوضاعنا الاجتماعية ، وفي أمسِّ الحاجة الى النهوض بأخلاقنا الاجتماعية ، هل لنا أن نخاطب أبناء الشعب ليذكروا هذا الخلق الذي وضع دينهم أساسه قبل أربعة عشر قرنا •• خُلُق التضامن الاجتماعي والشعور بروح الجماعة ،

---

(١) رواه الطبراني مرفوعا ، ورواه ابن حزم موقوفا على علي رضي الله عنه

(٢) المعارج : ٢٤ ، ٢٥

(٣) للمؤلف بحث مستفيض حول هذا الموضوع في كتاب «النظم الاشتراكية في الاسلام »

وتمثل آلامها وبؤسها .. هل لنا ونحن في شهر كريم هو عنوان البر والخير والمؤاساة .. آن نخاطب ضمائر الاغنياء والموسرين ليبرهنوا عن انسانية كريمة واعية ، تحس بحاجتها الى عون المجتمع وتكاتفه ووحدة شعوره وتقارب مستوى معيشته . ان الزكاة ليست ضريبة يدفعها المكلف كرها من غير اقتناع ، وانما هي دليل الحس الانساني الرفيع فيمن يؤديها طائعا مختارا ، وعنوان الضمير الديني المرهف الذي يسمو صاحبه في نظر الله ونظر الناس ونظر الحق .. وهي قبل غيرها الاساس الذي يبنى عليه مجتمع كريم وشعب كريم وحياة كريمة .

يا أيها المواطنون ! ان مجتمعنا في حاجة الى روح انسانية تملأ نفوس أبنائه قبل حاجته الى قوانين تملأ دواوين الدولة . اننا في حاجة الى شعور يستمد من الله سموه وصفاءه ، ويؤمن بالحق ويخضع له خضوع العابد في محرابه، ويشمر في المجتمع بناءً وانشاءً قبل أن يكون مظاهرة وادعاء :

((يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون (١))) .

---

(١) الأنفال :

بين التملق والنصيحة

أذيع مساء الاثنين : ٦ من شوال ١٣٧٣
٧ من حزيران ١٩٥٤

لما بنى عبد الرحمن الناصر مدينته الخالدة «الزهراء» في الاندلس ، تفنن في بنائها ، وجعلها من اعاجيب المدن في العالم ، وكان مما بناه فيها «الصرح الممرد» اتخذ لقبته قراميد من ذهب وفضة ، حتى أنفق عليها من خزينة الدولة مالا عظيما .. وكان في قرطبة عالمها الفقيه الجريء «منذر بن سعيد» قاضي الجماعة ، فهاله انهماك الخليفة الناصر في بناء الزهراء ، وما أنفقه من أموال الدولة عليها .. وكان الناصر يحضر صلاة الجمعة في المسجد الجامع ، ويستمع الى خطبة قاضيه منذر بن سعيد ، فوقف يخطب الجمعة ، وكان مما بدأه في تقريع الناصر على انفاقه الاموال وانهماكه في بناء الزهراء .. أن تلا قول الله تبارك وتعالى :

« **أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** (١) » ثم وصل ذلك بقوله تعالى : « **متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى** ٢» ثم أخذ يذم تشييد البنيان والاسراف في الانفاق عليه ، حتى خشع القوم وبكوا وضجوا ، ثم التفت الى الناصر وقال له امام الجماهير الحاشدة يومئذ : «ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ بك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله وفضّلك به على

---

(١) سورة الشعراء : الآيات : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤
(٢) سورة النساء : ٧٦

العالمين ، حتى أنزلك منازل الكافرين » فاقشعر الناصر من قوله وقال : انظر ما تقول؟ كيف أنزلتني منازلهم؟ قال: نعم! أليس الله تبارك وتعالى يقول:

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون (١)»

فوجم الخليفة الناصر ، ونكس رأسه مليا ودموعه تجري على لحيته خشوعا لله تبارك وتعالى ، وندما على ما فعل .. ثم أقبل بعد انتهاء الخطبة والصلاة على قاضيه منذر بن سعيد فقال له : جزاك الله تعالى يا قاضي خيرا عنا وعن المسلمين والدين ، وكثّر في الناس أمثالك ، فالذي قلت والله هو الحق ، وقام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بأن ينقض سقف القبة ، وأن تكون قراميدها ترابا .

ترى .. لو أن كل ذي رأي ومكانة ونفوذ في الدولة ، وقف من الحكام الجائرين المنحرفين ما وقفه منذر بن سعيد من عبد الرحمن الناصر أما كانت الأمة تنعم بحكم عادل ، ورفاهية شاملة ، وسعادة تظل الناس جميعا ؟ .. ولو أن الناس لم يتملقوا الحاكمين ، ولم يسمعوهم كلمات الثناء الكاذب والمديح الباطل ، أكان يجد الطغاة من الحاكمين ما يزيدهم طغيانا وبطشا واستخفافا بارادة الشعب وكرامته ؟.

ان الصدق فضيلة ، والشجاعة فضيلة ، ومن الصدق والشجاعة تنبعث فضيلة الصراحة والجهر بالحق ، والنصح للاصدقاء والحكام والزعماء والرؤساء .. وليس أحد في الدنيا الا وهو معرض للخطأ والغفلة ، والانحراف والذلة ، وليس كل انسان يعرف عيب نفسه ، أو يفكر فيه ، أو يهتدي اليه ، وانما ذلك شأن أصدقائه وأعوانه ، فمن كان عظيم الهمة ، راجح العقل ، لم يترفع عن نصح الناصحين ، وموعظة

---

(١) الزخرف : ٣٣ ، ٣٤

الواعظين ، والهداية للضالين ، والتقويم للمنحرفين ، مهما عظمت مكانتهم ، وعلت أقدارهم ، وقوي سلطانهم .. وما تنشأ العداوة بين الأصدقاء ، ولا تسوء أوضاع الأمة وأحوالها الاجتماعية ، الا من ترك هذا الخلق الاجتماعي العظيم ، خلق النصح والجهر بالحق ..

ومن استعرض التاريخ قديمه وحديثه ، واستعرض تاريخ عظماء الرجال في الشرق والغرب ، أيقن أن سر عظمة الأمة وفاؤها للحق مع من تحب من الزعماء ، وتطيع من الرؤساء ، فلا تبخل بتأييدهم حين يصيبون ، ولا تتردد عن نصيحتهم يوم يخطؤون .. حتى اذا تخلت الأمة عن هذا الخلق ، آذنت شمسها بالأفول ، ومجدها بالانهيار ، وكرامتها بالضياع والامتهان ..

ولِمَ أذهب بعيدا أستقصي الأمثال من تاريخ غيرنا من الأمم ، ومن سير غير عظمائنا من الرجال .. وفي تاريخنا نحن الأمثال البالغة على صدق هذا الزعم ؟ ..

انك لتقرأ في تاريخ السلف الصالح من صحابة الرسول والتابعين والعلماء والخلفاء ، فيروعك ما تراه بينهم من صدق اللهجة ووفاء الأخوة ، وقيام بواجب النصح ، وترحيب بالنقد البريء والموعظة الحسنة ، مما تشعر معه أنك ازاء أمة لم تخلد في التاريخ بسيف ولا فتح ولا تدمير ، وانما خلدت بخلق قوي ، ونفوس كريمة ، وعقول راجحة ، وآداب متماسكة .

هذا عمر يقول : « أيها الناس اسمعوا وأطيعوا » فيقوم اليه رجل ليقول له : لا والله لا نسمع ولا نطيع .. فيسأله عمر عن ذلك ، فيجيب الرجل بأنهم يشكون فيما يلبس عمر من ثياب ، ويطلبون لذلك حسابا عليه ، ويسألونه من أين لك هذا يا أمير المؤمنين ؟ فلا يضيق عمر بطلب

الشعب ، ولكنه يقدم له حسابه ، حتى اذا اقتنع الناس بطهارة يد عمر ، قال قائلهم : الآن سمعا وطاعة ..

وهذا عمر نفسه يحكم في قضية ، فيقوم اليه علي رضي الله عنه ، فيرد عليه ويبين له خطأه حتى اذا اقتنع عمر ، عدل عن حكمه وقال : « لولا علي لهلك عمر » .

ولقد كان عمر يوما مع أصحابه فقال له رجل يا أمير المؤمنين اتق الله .. فقال بعض الحاضرين لذلك الرجل : أتقول لأمير المؤمنين ذلك ؟ فقال عمر : « دعوه فليقلها .. لا خير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خير فينا اذا لم نقبلها . » ، بمثل هذا تعرف سر عظمة عمر وعصره والجيل الذي كان يعيش فيه ..

وكان سفيان الثوري صديقا للرشيد قبل أن يلي الخلافة يتردد عليه ويتعهده بالزيارة آونة بعد أخرى .. فلما ولي الخلافة انقطع عنه سفيان، فأرسل اليه الرشيد يطلب زيارته ، ويعده بأن يغدق عليه العطاء ، كما أغدق على كثيرين من العلماء ، فما كان من سفيان الا أن بعث الى الرشيد بكتاب شديد جاء فيه : من أين لك ياهارون أن تغدق العطاء على الناس، وهو حق الأرملة والمسكين والفقير ؟ .. وما جوابك لربك غداً اذا جاءك هؤلاء يخاصمونك بين يديه ويقولون له : يا ربنا سل عبدك هارون فيم منعنا حقنا وأعطاه من لايستحقه ؟ .. فما كاد الرشيد يفرغ من تلاوة الكتاب ، حتى بكى بكاء شديدا ، وعلم أية نفس عظيمة ينطوي عليها ذلك الرجل العظيم سفيان الثوري .

ولما طلب الرشيد من أبي يوسف قاضي القضاة أن يؤلف له كتابا في أصول جباية الأموال ونظام الضرائب العامة .. وضع أبو يوسف كتابه « الخراج » تلبية لطلب الرشيد ، وجاء في مقدمة هذا الكتاب ما يلي :

يا أمير المؤمنين : ان الله ولله الحمد قد قلدك أمرا عظيما ، ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب ، قلدك أمر هذه الأمة ، فأصبحت وأمسيت ، وأنت تبني لخلق كثير ، قد استرعاكهم الله وأتمنك عليهم ، وابتلاك بهم ، وولاك أمرهم ، وليس يلبث البنيان اذا أسس على غير التقوى ، أن يأتيه الله من القواعد ، فيهدمه الله على من بناه وأعان عليه ، فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فان القوة في العمل باذن الله ، لا تؤخر عمل اليوم الى غد ، فانك اذا فعلت ذلك أضعت ، ان الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فانه لا عمل بعد الأجل • ان الرعاة مؤدون الى ربهم ما يؤدي الراعي الى ربه فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فان أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة ، راع سعدت به رعيته ، ولا تزغ فتزيغ رعيتك ، واياك والأمر بالهوى ، والأخذ بالغضب ، وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء •• القريب والبعيد ، ولا تخف في الله لومة لائم ، واحذر فان الحذر بالقلب وليس باللسان ، واتق الله فانما التقوى بالتوقي ، ومن يتق الله يقه •• واني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ، ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لا تنظر في ذلك الا اليه وله •• ثم ختم أبو يوسف هذه المقدمة بقوله : واني لأرجو ان عملت بما في هذا الكتاب من بيان ، أن يوفر الله لك خراجك — أي مالية الدولة — من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيتك ، فان صلاحهم باقامة الحدود عليهم ، ورفع الظلم عنهم ، وبالتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم •

ولما استولى الملك الصالح على دمشق ، اصطلح مع الافرنج الصليبيين على أن يسعفوه ضد أخيه ملك مصر ، ويعطيهم لقاء ذلك صيداء وقلعة الشقيف وغيرهما من حصون المسلمين • ودخل الافرنج دمشق لشراء

السلاح ، فاستقطع الشيخ عز الدين بن عبد السلام قاضي القضاة ، صنيع سلطان دمشق ، وأفتى الناس بتحريم بيع السلاح للافرنج • وترك الدعاء للسلطان في خطبة الجمعة ، وندد بخيانة السلطان للمسلمين • وكان مما دعا به في خطابه « اللهم أبرم لهذه الأمة أمرا رشدا تعز فيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك •» فاعتقل الشيخ ، وعزل من مناصبه •• وصمم على الهجرة الى مصر ، ومضى في طريقه ، فأدركه رسول السلطان يقول له : ان السلطان عفا عنك ، وسيردك الى مناصبك ، على أن تنكسر له ، وتقبل يده ، فقال الشيخ : ولكن يا مسكين أنا ما أرضى السلطان أن يقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده • يا قوم أنتم في واد وأنا في واد !

هذه أمثلة من تاريخنا ، نستطيع أن نرد اليها سر ما أصاب أمتنا في التاريخ ، من رفعة وقوة وخلود ••

ونحن اليوم ما أشد حاجتنا الى فضيلة الصدق في النصح والجهر بالحق ، ففي كل حكومة تقوم ، وفي عهد كل طاغية مستبد ، ترى آلاف المتملقين والمنافقين ، يزينون لصاحب السلطة القائمة ، أنه حبيب الشعب ، وأنه المستأثر بحب الناس وتأييدهم •• ولم يعدم حاكم ولا مسؤول منحرف ، من أن يجد أنصارا يصفقون له ويهتفون باسمه ، ويتوافدون على بابه زمرا وأفواجا ، مؤيدين مناصرين •• وبذلك استمر الفساد في حكم البلاد ، واستمر الطغاة في تزييف ارادة الأمة ، ولو وجدوا الناصح الذي يصدق ، والألسنة التي لاتكذب ، والأقلام التي لاتستؤجر ، والصحف التي لا تشرى ، والشعب الذي لا يَخدع ولا يُخدع •• لانقطع عليهم طريق الفساد والافساد ، ولخجلوا من ادعاء مواقف البطولات ، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم ، أنهم خبثاء جبناء مفسدون ••

أيها المستمع الكريم !

اليك أدب الله في مثل هذه الحالات : **« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والاقربين (١) »**

واليك أدب رسوله في مثل هذه المواطن : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر [٢] »

أفليس لك صديق أو أخ أو بنت أو أب أو أم تشعر بأخطائهم وانحرافهم عن سنن الحق ؟ فلماذا لا تكون معهم محبا صادقا وفيا .. تكشف لهم عن أخطائهم برفق ، وتردهم الى الصواب بغير احتقار ولا تشهير ، وتدلهم على مواطن الحق والخير من غير استعلاء ولا غرور ؟ .. في الحكمة السائرة .. « صديقك من صدَقك لا من صدّقك .. » فلا تغضب من صديقك اذا نصحك ، أو من أستاذك اذا أرشدك .. أو من أخيك اذا دلك على عيبك ، فلست الا انسانا يخطىء ويصيب ، ويستقيم ويتعثر ، ويميل مع الحق حينا ومع الهوى أحيانا .. ولست مهما كبرت منزلتك ، أكبر من أن تستمع للحق وتنقاد اليه ، وليس الذي ينصحك مهما صغرت مكانته في نفسك ، أصغر من أن ينطق بالحق ويدل عليه .. وقد تثقل النصيحة على نفسك ، بحجة الحفاظ على الكرامة ، فاذكر حين تجمح بك نفسك الى هذا الطريق الوعر ، أن كرامتك في أن تستقيم وتصلح ، لا في أن تنحدر حتى تحيط بك أخطاؤك ومساوئك ، احاطة تمنع النور عن عينيك ، والاشراق عن وجهك ، والراحة عن قلبك وضميرك .

وأنتم يا أبناء هذه الأمة

ان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا رأيت أمتي تهاب أن

---

(١) سورة النساء : ١٣٤ (٢) رواه احمد وابن ماجه

تقول للظالم يا ظالم ، فقد تودع منهم [1] » فكونوا للحق أنصارا ، وللمخطئين ناصحين ، وللظالمين مقاومين منكرين •• كونوا كذلك اذا أردتم أن تعيشوا أمة لها كرامتها ولها مكانتها ، ولها حقها الذي لا يهضم، وارادتها التي لا تحتقر ، وشخصيتها التي لا تطمس •• والا •• ان سمحتم للمنافقين أن يلتفوا حول الحاكمين •• وللأقلام المأجورة أن تمجد المجرمين •• فقد صنعتم بأيديكم الطغاة •• وأقمتم باختياركم حكم الطغاة والفساد •• واخترتم لأنفسكم طريق الخراب والدمار •• ان عدالة الله تأبى أن تمنح الكرامة لمن يضيعها بيديه ••

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (٢) » . « ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون (٣) »

---

(١) رواه الحاكم　　(٢) سورة هود : ١١٨　　(٣) سورة يونس : ٤٤

بين النصيحة والتشهير

أذيع مساء الاثنين: ١٣ شوال ١٣٧٣
١٤ حزيران ١٩٥٤

ليس منا من لا يخطىء ولا ينحرف عن سنن الحق ، بل ان فينا من الغرائز والطباع ما يميل بنا الى الرشد والغي ، والخير والشر ، وليس كل انسان يعرف خطأه أو يهتدي اليه ، وبذلك كان من حق الأخ على أخيه ، أن يبصره بعيبه وينصح له في أمره ، وكما يجب على من رأى الظلم في حاكم ومسؤول ، أن ينكر عليه ظلمه وبغيه ، وجب على من رأى صديقا له يظلم نفسه أو يظلم غيره أن يحول بينه وبين ذلك ، ابقاء على حق الأخوة ، ودفعا للأذى عن صديقه وعن المجتمع .. ويوم يتساهل الناس في هذا الحق ، فيتملق الصديق صديقه ، ويهمل الأخ حق أخيه عليه في النصح والارشـاد ، تسوء علائق بعضهم ببعض .. وتنقلب الصداقة الى عداوة ، ويصبح أمر المجتمع فوضى ، يموج بالشر والاثم.. ولقد أخبر القرآن الكريم أن بني اسرائيل استحقوا اللعنة والحرمان والتشريد لأنهم كانوا لايتناصحون :

« لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه (١) » .

---

(١) المائدة : ٨١ ، ٨٢

وليس أدل على رقي الأمة واستقامة ضمائرها من تمسكها بخلق التناصح فيما بينها ، ينصح الأخ لأخيه ، والجار لجاره ، والأب لولده ، والأستاذ لتلميذه ، والموظف لرئيسه ، والمسؤول لأمته •• فلا ترى حينئذ الا حقا محترما ، وفضيلة يعمل بها ، وثقة تربط بين الناس بعضهم مع بعض ، فلا خيانة ولا غش ولا اتهام ولا تجريح ، واذا خلا المجتمع من هذا الخلق ، أو ضعف مظهر العمل به ، فقد انتهت الأمـــة الى أسوأ حالاتها من الفوضى والفساد والتقاطع والعدوان •

وقد اضطربت عند كثير من الناس حدود النصيحة التي يجب القيام بها ، فانقلب أحدهم من النصح الى التشهير ، كما انقلب آخرون من المداراة الى التملق ، وفي ذلك ما فيه من شر يربو على الخير ، وحق يستعمل في باطل •

حين لا تجدي النصيحة أو ينشأ عنها ما هو أكبر ضررا وأكثر سوءً ، يتحتم عليك أن تداري من تنصحه ، حتى يستقيم حاله ، وتواتي الظروف الصالحة لنصحه ووعظه •• وهذا هو حد المداراة •• اما أن تنقلب الى مشجع على الشر ، متظاهر لمن يعمله بالتأييد ، فهذا هو التملق الذي يمقته الخلق الكريم ، وتأباه آداب الشريعة وأخلاقها •• هنالك فرق بين أن تأتي لحاكم طاغ مستخف بارادة الأمة وكرامتها ، فتزين له طغيانــه ، وتغريه بالاستمرار في عتوه وفجوره •• وبين أن تسكت عنه وهو في عنفوان قوته ، وأنت يائس من صلاحه ، عسى أن تواتيك الفرصة فيما بعد لتجهر له بالنصيحة ، وتدله على طريق الخير •• ذلك تملق وهذه مداراة •• والتملق خسة وجبن ، والمداراة تعقل وحكمة •

والنصيحة على مراتب •• أولها أن لا تبادر الى تصديق ما يقال عن جارك أو صديقك أو أحد ما من الناس ، بل تتثبت في ذلك حتى تستيقنه ، فان الناس اعتادوا اشاعة السوء ، والجماهير دائما أسرع الى اساءة الظن

من احسانه .. فلا تصدق كل ما يقال ولو سمعته من ألف فم ، حتى تسمعه ممن شاهده بعينه ، ولا تصدق من شاهد الأمر بعينه ، حتى تتأكد من تثبته فيما يشاهد ، ولا تصدق من تثبت فيما يشاهد حتى تتأكد من براءته وخلوه من الغرض والهوى .. ولذلك نهانا الله عن الظن ، واعتبره اثما لايغني من الحق شيئا : ((**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم (١)**)) .. ((**أن الظن لا يغني من الحق شيئـاً (٢)**)) .

واذا رأيت أمرا أو بلغك عن صديقك كلام يحتمل وجهين ، فاحمله محملا حسنا ، وأنزله منزلة الخير ، فذلك ألصق بالأخوة ، وأجدر بمكارم الأخلاق ، قالت بنت عبد الله بن مطيع لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف ، وكان أجود قريش في زمانه : ما رأيت قوما ألأم من اخوانك ! قال لها : مه ! ولم ذلك ؟ قالت : أراهم اذا أيسرت لزموك ، واذا أعسرت تركوك ، فقال لها : هذا والله من كرم أخلاقهم ، يأتوننا في حال قدرتنا على اكرامهم ، ويتركوننا في حال عجزنا عن القيام بحقهم .. فانظر كيف تأول طلحة صنيع اخوانه معه ، وهو ظاهر القبح والغدر ، بأن اعتبره وفاء وكرما ..

وثاني خطوات النصيحة .. أن تقدر طباع الناس وغرائزهم ، وأنهم ليسوا ملائكة ولا أنبياء ، فلا تطمع أن لا تعثر على زلة أو هفوة لأحد من اخوانك ، ولكن احمل ذلك على الضعف الانساني الذي لا يكاد يخلو منه أحد ، وعلى الغرائز التي لاينجو من سلطانها الا الأقلون .. وانظر أنت في نفسك ، ألا تقع في مثل تلك الزلات ؟ فلماذا تريد من الناس ما لا تريده من نفسك ؟ ولعمري ما أجمل قول شاعرنا العربي :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ؟ كفى المرء نبـلا أن تعد معايبـه

بل ما أروع قول الله تبارك وتعالى في وصف النفس الانسانية على

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) يونس : ٣٦

حقيقتها حين يقول على لسان امرأة العزيز :

« وما أبرىء نفسي ، ان النفس لأمارة بالسوء ، الا ما رحم ربي (١) »

فاذا ذكرت ذلك ، كنت ازاء خطأ من صاحبك تذكره بالصواب فيه ، لا ازاء عيب تزدريه من أجله ، وتنتقصه بسببه .

قال الشافعي رحمه الله : « ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه، ولا أحد يعصي الله ولا يطيعه ، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل » .

هذا والله هو الفقه والعلم والحكمة التي لايقف عليها الا أطباء النفوس . وأكمل الناس وأورعهم وأقواهم دينا وأكثرهم لله خشية ليس هو الذي يزدري العصاة ، ويحتقر المذنبين ، ويرى لنفسه ميزة عليهم بتقواه وعبادته .. وانما هو من يرحم الناس ، ويشفق على الخاطئين، ويعذرهم في نفسه ، ويتقدم اليهم بالنصح كطبيب يعالج مريضا ، وهل رأيت طبيبا يحتقر مريضا أو يزدريه أو يترفع عليه ؟!.. وصلى الله على معلم الناس الخير حين قال : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم [٢] » .

وثالث خطوات النصيحة .. أن لاتحاكم الأمر الذي تريد انكاره وتحكم عليه بالخطأ والانحراف ، من وجهة نظرك فحسب ، بل انظر اليه من وجهة نظر صاحبه أيضا ، فقد يكون مجتهدا فيما اعتقد من رأي ، متحريا الخير فيما سلك من سبيل ، فلا تسارع الى الانكار عليه ، ما دام من الممكن أن يكون له وجه من الحق ، ودليل من الرأي .. ومن قبيل هذا ما يقوله الفقهاء ، من أن العمل أو الرأي ، اذا كان له تسعة وتسعون وجها تقتضي التكفير ، ووجه واحد لايقتضي التكفير ، نأخذ بهذا الوجه

---

(١) يوسف : ٥٣ (٢) رواه مسلم

الواحد ، ونمتنع عن تكفير صاحبه • ومن هنا قرر العلماء أن من شروط النهي عن المنكر ، أن لا يكون محل اجتهاد وخلاف بين العلماء ، أو أن يكون منكرا في نظر من يفعله •• فان لم يتحقق فيه هذا الشرط ، لم يجز الانكار ، وما ذلك الا لأن انسانا ما ليس من حقه ، أن يسيطر على عقيدة انسان أو رأيه ، أو يزعم أن رأيه أصوب الآراء ، واجتهاده هو الحق الذي لا باطل معه •

ورابع خطوات النصيحة •• أنك اذا تأكدت من الخطأ والانحراف ، وليس هنالك مجال لعذر ، أو شبهه ، وجب أن تتقدم بالنصيحة الى من تنصحه ، سرا بينك وبينه ، لا أمام الناس ، ولا على ملأ من الأشهاد ، فان النفس الانسانية ، لاتقبل أن يطلع أحد على عيبها ، انك اذا نصحت أخاك سرا بينك وبينه ، كان أرجى للقبول ، وأدل على الاخلاص ، وأبعد عن الشبهة ، وأما اذا نصحته علنا فان في ذلك شبهة الحقد والتشهير واظهار الفضل والعلم ، وهذه حجب تمنع من استماع النصيحة والاستفادة منها • ولقد كان من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في انكار المنكر ، انه اذا بلغه عن جماعة ، ما ينكر فعله ، لم يذكر أسماءهم علنا ، وانما كان يقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا » ، فيفهم من يعنيه الأمر أنه هو المراد بهذه النصيحة •• وهذا من أرفع أساليب النصح والتربية يدلنا عليها المربي الأكبر محمد صلى الله عليه وسلم •

قال رجل لعلي رضي الله عنه أمام جمهور من الناس •• يا أمير المؤمنين : انك أخطأت في كذا وكذا ، وأنصحك بكذا وكذا •• فقال له علي : « اذا نصحتني فانصحني بيني وبينك ، فاني لا آمن عليك ولا على نفسي ، حين تنصحني علنا بين الناس » •

وقيل لمسعر : « أتحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال : ان نصحني فيما بيني وبينه فنعم ، وان قرعني بين الملأ فلا • » ، وهذا حق ، فان النصح

في السر حب وشفقة ، والنصح في العلن انتقاص وفضيحة . وهذا هو قول الشافعي رحمه الله : « من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » .

خطب المنصور مرة يذكر الناس بطاعة الله ومجانبة معاصيه ، فقام اليه رجل فقال : أنت يا أمير المؤمنين أولى بأن تذكر بطاعة الله واجتناب معاصيه ، فاتق الله وحاذر غضبه . فقال المنصور : والله ما أردتَ بهذه النصيحة وجه الله ، ولكن أردت أن يقال بين الناس : قام الى أميرالمؤمنين فنصحه . فهذا من المنصور تنبه لخفايا النفس وشهواتها ، وان الورع والزهد والنصيحة والجرأة في الحق .. قد يكون شهوة من شهوات النفس كما تشتهي النفس طيب الطعام وجيد اللباس .

أما الذين يشهرون بعيوب الناس ، ويهتكون حرماتهم في المجالس ، بحجة النصح والجهر بالحق ، فذلك جهل بدين الله شائن .. وتلك هي الغيبة التي نهانا عنها اللهورسوله .. وليست النصيحة الا أن تذكِّر أخاك اذا أخطأ ، وتنصحه اذا انحرف ، وليست الغيبة الا أن تذكره بما يكره وهو عنك غائب .

نعم ، اذا نصحت انسانا مرة بعد مرة ، واستمر في اثمه ومخازيه ، وكان ممن يؤتم به أو يستمع لقوله ، جاز لك أن تذكر للناس ما هو عليه للتحذير من اتباعه ، لا للتشهير به شخصيا ، فان التشهير لايجوز في حالة ما ، مهما كان الباعث على ذلك . ان لك أن تنكر الفعل لا أن تشهِّر بالفاعل . وقد علمنا الله ذلك حين قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : **« فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون (١) »** أن يتبرأ من عملهم **لا منهم** أنفسهم ، وليس هو الا لكراهة التشهير بالناس ، تشهيرا يؤدي الى العداوة والبغضاء ، ويزيد في الفرقة والشحناء .

---

(١) الشعراء : ٢١٦

وخامس خطوات النصيحة .. أن لاتؤدي النصيحة الى شر أكبر مما تريد انكاره ، كايقاع الفتنة ، وايغار الصدور ، وازدياد المعصية ، وتفرقة كلمة الجماعة ، فان هذه أمور يلحق شرها الكبير والصغير ، والصالح والطالح .. ولا يجوز لانكار عمل فردي أن تقع في منكر يعم ضرره الجماعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة : « لولا أن قومك حديثو العهد بالاسلام لبنيت الكعبة على قواعد اسماعيل ، ولجعلت لها بابين باباً يدخل منه الناس ، وباباً منه يخرجون [1] » ، فهذا امتناع عن اصلاح في وضع البيت ، خشية أن يؤدي الى فتنة الناس في دينهم . وهذا هو الفقه في دين الله ، أن لاتزيل الشر بما هو شر منه ، وأن لاتدفع الضرر الأدنى بالأعلى ، وأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

فاذا استوت لك هذه الخطوات ، ورأيت النصيحة واجبة ، كان عليك أن تؤديها برفق وحكمة وأسلوب لا ينفر من تنصحه ، ولا تبدو أنك متعال عليه ، معلم له ، والى هذه الآداب أرشدنا الله بقوله : « **أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (٢)** » ، ولقد قالوا في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انه ما كان يواجه أحدا بشيء يكرهه » ذلك أن النصيحة اذا خرجت عن الرفق واللين ، كانت غلظة وقسوة تنفر القلوب ولا تفتحها ، وتبعد الناس عن الخير ولا تقربهم اليه .

أما بعد ، فهذا حديث النصيحة في وقت نحن أحوج ما نكون فيه الى آدابها وشروطها ، بعد أن اشتجرت العداوات ، وكثرت الخصومات ، وساءت التهم ، وأفرطت الأقلام والألسنة في النقد بحق وبغير حق ، فهل

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما (٢) النحل : ١٢٥

لنا أن نطمع من الناقدين أن يقفوا عند حدود الحق فيما ينقدون ؟ وهل لنا أن نرجو الناصحين أن يبتعدوا عن مجال الشبهة فيما ينصحون ؟ ان من السهل أن تقول لانسان أخطأت ، ولكن من الصعب أن تقول له : انك خنت وأجرمت وسرقت وخربت .. لقد مرت بنا فترات كانت فيها أعصاب الشباب تدفعنا الى اتهام خصومنا في الرأي بمثل هذا ، فاللهم نشهدك أنا رأينا بأعيننا خطأ ما فعلنا ، ولمسنا بأيدينا نتيجة ما أفرطنا . واللهم ألهم حملة الأقلام وكتاب الصحف وخطباء المنابر أن يقولوا مايصلح الفساد ، ويقوّم الانحراف ، لا ما يزيد الصفوف فرقة والقلوب عداءً .

بين الحرية والفوضى

أذيع مساء الاثنين: ٢٠ من شوال ١٣٧٣
٢١ من حزيران ١٩٥٤

الصراع بين الحرية والعبودية صراع قديم في تاريخ الانسانية ، بل هو يكاد يكون أول صراع على وجه الارض عرفه تاريخ الانسان ، فمن أجل الحرية خاضت الشعوب معارك لا عداد لها ، وفي سبيل الحرية تدفع الشعوب طائعة راضية أكرم شهدائها وأنفس أموالها ، وأجمل مدنها وبيوتها ، بل في سبيل الحرية تعرضت كثير من الامم للشقاء أجيالا وأجيالا ، ويكاد يكون تاريخ الانسان سلسلة من المآسي والحروب ، كلها تبدأ من الكفاح في سبيل الحرية ..

وفي تاريخنا أروع الأمثلة على هذا الصراع ، فليست معارك بدر وأحد وهوازن ومؤتة ، في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الا صراعاً مريراً دامياً من أجل الحرية : حرية العقيدة التي أبى الوثنيون على المسلمين أن ينعموا بها ، فيعبدوا الله وحده لا شريك له ، وحرية الشعب في عقله وخلقه ومعيشته ، وهي الحرية التي كانت الوثنية تطمس آثارها ، بما تفرض على العقول من خرافات وأباطيل ، وبما تمكن للاغنياء من أن يمنعوا الجماهير حقها في العيش الكريم والمستوى الكريم ، وبما تغرق المجتمع من شهوات وملذات ، تسلب الفرد حريته كانسان كريم ، وتجعله عبداً ذليلا للهوى والاثم واللذة ..

وليست معاركنا بعد ذلك في القادسية واليرموك ، وفي الاسكندرية وبلبيس ، وفي القيروان وبواتيه ، الا معارك خاضتها أمتنا في سبيل

التحرير •• تحرير الشعوب من جهالتها وفوضاها ، وتحرير الجماهير من استبداد الظالمين والمسرفين بشؤونها وأرزاقها وكرامتها ••

وليست معاركنا في الحروب الصليبية ، الا معارك للحرية خضناها دفاعاً عن أوطاننا وعقائدنا وحضارتنا ، من غزوات الغربيين الذين لم يشنوها الا طمعاً في أموالنا وأوطاننا وخيراتنا ••

وليست معاركنا في العصر الحديث ، في روابي ميسلون وفي سهول حمص وحماه وحلب ، وفي الغوطتين والجبل العربي ، الا معارك للحرية أردنا بها تحرير رقابنا وأبنائنا وأرضنا من المستعمرين ، وقل مثل ذلك عن معاركنا في فلسطين ، وفي وادي النيل والرافدين ، وفي المغرب العربي ، وفي كل أرض عربية ومسلمة ، سالت دماء الشهداء على تربتها ، وثارت كتائب الأبطال في وجه الطغيان والظلم ، لتسلم أرضنا من احتلال المغتصبين ، ولتسلم كرامتنا من امتهان الظالمين ••

هذه الحرية ، هي الحرية السياسية التي ما تزال كثير من الشعوب تناضل من أجلها ، ووراء هذه الحرية حريات كثيرة تسعى الأمم الواعية وراءها ، هي حرية الفكر والعلم ، وحرية الرزق والعمل ، وحرية الحكم والادارة •• فتأسيس المدارس والمعاهد معركة ضد الجهل والخرافة ، وانشاء المياتم والمشافي والملاجيء ، معركة ضد المرض والتشرد ، وقوانين التكافل الاجتماعي ، معركة ضد الفقر والبؤس والمهانة ، ومجالس الشورى والبرلمان ، معركة ضد الاستبداد والديكتاتورية •• وهكذا تتسع ميادين الحرية حتى تشمل ما يوفر الكرامة لكل مواطن في بلده ، ولكل انسان في مجتمعه •• والوقوف في وجه هذه الحريات كلها ، جرائم تنكرها الأديان والشرائع •• فمن سلب الأمة حريتها في التفكير ، ومواردها في الرزق ، وحقها في الحكم •• كان خارجاً على أمن المجتمع وسلامته ، يجب أن يكافح بكل وسائل القوة حتى يفيء الى أمر الله .

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض(١)»

تلك هي آفاق الحرية .. قررتها شرائعنا منذ القديم ، وحملت لواءها أمتنا مئات من السنين ، وأعلنتها حضارة القرن العشرين مبادىء ونظريات ، وان حاربتها في بلادنا حكماً واستعماراً ..

والحرية ككل معنى كريم ، عرضة للتلاعب والتحريف والاستغلال .. فمبادىء الحرية عند الغربيين ، هي شراك جميل لاصطيادنا نحن الضعفاء من شعوب الشرق ، حتى لنسخَّر كالعبيد في حروب دامية مدمّرة لاغاية من ورائها ، الا حراسة مطامع أولئك الأقوياء ، واستبقاء سيطرتهم على موارد الثروة وحقيقة السيادة في أمتنا وبلادنا ..

ان الحرية عند الفرنسيين ، هي اذلال المغاربة العرب المسلمين ، وارهاقهم وازهاق أرواحهم واستلاب ثرواتهم ، والحرية عند الانجليز هي الاحتلال في وادي النيل ، والعدوان في واحة البريمي ، والاستغلال في عدن والامارات العربية في الخليج الفارسي .. والحرية عند الامريكان هي تشريد شعب فلسطين ، وامداد اسرائيل بالسلاح والمال لتستمر في الأذى والعدوان ، وهي سرقة بترول ايران وذهب جزيرة العرب ، وهي القضاء على صناعة اليابان ، وثورة شعوب جنوب آسيا ضد العبودية والاستعمار ..

وهكذا تسلب حريتنا باسم الحرية ، ونساق كالعبيد لننضم الى مجموعة « العالم الحر » ! ..

وكما أسيء استغلال الحرية عند الغربيين ، أسيء فهمها عند كثير من أبنائنا تلامذة الغربيين ..

---

(١) المائدة : الآية ٣٦

فالحرية الفكرية عند بعضهم ، هي أن تجهر بشتم عقيدة الأمة ، والاستخفاف بأديانها وكتبها المقدسة ، فان لم تفعل ذلك تلميذاً في الجامعة ، أو معلماً في المدرسة ، أو أستاذاً في الكلية ، كنت جامداً رجعياً ، لاتفهم الحرية ولا تؤمن بها .

والحرية الشخصية عند آخرين ، هي أن تعمل ما تشاء ، وترتكب من المنكرات ما تريد ، دون أن تحد تصرفاتك آداب المجتمع ، أو قوانين الدولة ، أو تعاليم الدين ..

والحرية الصحفية عند فريق آخر .. أن تشتم خصومك السياسيين، وتنعتهم بالخيانة والسرقة والاجرام والتآمر ، فاذا حيل بينك وبين ذلك كان عدواناً على الفكر ، وحرباً على الصحافة ، وقيداً للقلم وخرقاً للدستور ..

هذه مفاهيم خاطئة للحرية ، نشأ عنها ما نراه في مجتمعنا من فوضى وفساد واضطراب في حياتنا السياسية والأخلاقية والاجتماعية .. وهي تزوير باطل لأنبل مبدأ من مبادىء الحياة الانسانية .. وتصوير غير صحيح لمفهوم الحرية الفكرية والدينية حتى عند الغربيين ..

منذ سنوات معدودات صدر كتاب في انجلترا لتعليم الدين في المدارس ، وفيه يذهب مؤلفه الى أن العشاء الرباني الذي يقدم في الصلاة ، لا ينقلب حقيقة الى دم المسيح عليه السلام ولحمه ، وانما هو رمز وتشبيه .. فثارت من أجل ذلك مناقشات كبيرة في مجلس العموم واللوردات ، استمرت أمداً طويلا ، وأخيراً ذهبت الأكثرية البرلمانية الى أن العشاء حقيقي لا رمزي ، فصودر الكتاب ومنع تدريسه في المدارس.

وكلنا يعلم قصة ملك انجلترا الأسبق ، الذي أقصي عن العرش لأنه تزوج زواجاً لا تقره تعاليم الدين في تلك البلاد .. وها نحن نسمع

اليوم أن سياسياً كايدن تعترض الكنيسة على آن يكون رئيساً للوزارة في المستقبل ، لأنه تزوج من مطلقة وهو زواج لا تقره الكنيسة ..

فليس من مفهوم الحرية الدينية اذاً عند الغربيين أن تخالف تعاليم الدين ، فكيف أن يستهزأ بها ، ويصرح في حلقات الدروس على مسمع من طلاب صغار بالسخرية من كتبها المقدسة وتعاليمها المنزلة ؟

في سنة ١٩٢٨ عقد مؤتمر مكافحة المسكرات في فينا ، حضره أطباء وعلماء ورجال دين من جميع بلاد العالم ، وكان مما قررته اللجنة الاجتماعية ، مطالبة الحكومات بعقوبة شارب الخمر عقوبة بدنية اذا سكر وأصبح ثملا .. لأنه يؤذي الناس في شعورهم ، وقد يتلفظ بما يمس من كرامتهم .. وعللت ذلك بقولها : ليست الحرية — هي ما يفهمه الجمهور — من أن يفعل الانسان ما يشاء ، بل ان تقييد حرية الفرد لضمان حرية المجتمع ، هو المفهوم الصحيح لمعنى الحرية .. وما دام السكران يؤذي حرية الآخرين ، فان تقييد حريته وعقوبته هي تطبيق للحرية بمعناها الصحيح ..

هكذا يفهم العقلاء والعلماء الحرية في بلاد ذهبت في تقرير الحرية الشخصية الى منتهاها .. فما بالكم ببلاد كبلادنا لا يزال للشعور الديني سلطان على الجماهير ، ولا تزال للآداب الدينية وللأخلاق الفاضلة حرمة في المجتمعات العامة ؟..

ان أحداً لا يستطيع أن يزعم أنه حر في كل شيء ، وأنه يتصرف كما يشاء ، ويفعل ما يشاء .. وأن من معاني الحرية التي يجب أن تتوفر لكل مواطن .. والا لبطل معنى القانون .. وذهبت حرمة التشريع ، وأصبح الناس حيوانات تصطرع في سبيل أهوائها وشهواتها ..

اننا لا نجد مجتمعاً في الدنيا ، يبيح لأي انسان أن يأخذ مال انسان آخر كما يشاء ، أو أن يخرج الى الطريق عرياناً كما يريد ، أو أن يسير

في الطريق كما يجب ‥ فمعاملاتك يجب أن تكون ضمن قوانين الدولة وأنظمتها ، ولباسك يجب أن يكون وفق الآداب العامة ، وسيرك يجب أن يكون وفق أنظمة السير ‥ والا نالك القانون بعقوبته ‥ أترى أحداً يزعم أن من الحرية التجارية أن يتاجر الانسان مع العدو ؟ وأن من الحرية الفكرية أن يدعو الى تغيير نظام الدولة بالقوة والعنف ؟ وأن من الحرية الصحفية أن يشتم رئيس الدولة ؟ وأن من الحرية الشخصية أن يعرقل السير في الطريق العام بأن يضع أمتعته أو سيارته أو يأكل أو يتحلق مع آخرين في قلب الطريق ؟‥

يجب أن نفرق بين الحرية والفوضى ، فالحرية استعمال حقك بحيث لايطغى على حق الآخرين ، والفوضى هي طغيان حقك على حق الآخرين، ولضمان الحرية تشرع القوانين والأنظمة ، وتنزل الشرائع والديانات ، وكل خروج عليها عدوان على الحرية المنظمة ، وفتح باب للفوضى التي تطغى على الحريات والحقوق ‥

وقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا من أروع الأمثلة، يبيِّن الحد الفاصل بين الحرية والفوضى ، بقوم كانوا في سفينة ، وكان بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها ، وكان الذين في أسفلها يأخذون الماء ممن فوقهم ، فقالوا : لماذا لا نخرق في مكاننا خرقاً نأخذ منه الماء من البحر رأساً ؟‥ يقول عليه الصلاة والسلام : « فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونَجَوا جميعا [1] » فأنت ترى هؤلاء أرادوا أن يستعملوا حريتهم فيما يخصهم ، ولكنهم يجب أن يمنعوا من استعمالها ابقاءً على السفينة ومن فيها ‥

أفلا ترى في هـذا المثل الرائع ، ما ينبغي أن يكون عليه موقف

---

(١) رواه البخاري والترمذي

الجماعة ممن يسيؤون استعمال حريتهم الشخصية ، بما يؤذي الشعب ويضر الوطن ، ويفسد الأمر على الناس جميعاً ؟..

ان القوانين لا تتدخل في حريتك الشخصية في بيتك أو في كل مكان محصور لا تطلع عليه الأعين ، ولكنها تتدخل فتمنع القمار في الأندية ، وتعاقب المقامرين اذا اجتمعوا سراً ولو كانوا بحيث لا تراهم العيون ، كما تمنع بيوت البغاء السري ولو كانت الفاحشة تفعل بحيث لا يراها الناس .. وكذلك تحكم شرائع الله . فأنت بينك وبين نفسك لاتتدخل الشريعة في عقوبتك على ما تفعل من مخالفة لأمر الله ، وانما تؤخر عقابك الى يوم الدين .. ولكنك حين تجاهر بالمعصية على ملأ من الناس ، تعاقبك الشريعة على ذلك في الدنيا قبل الآخرة ..

أما بعد .. فاننا لا نجد فرقاً بين العدوان على أموال الناس وحقوقهم ، وبين العدوان على عقائدهم وآدابهم ، بل ان هذا العدوان أشد ضرراً وأسوأ نتيجة .. فالانسان قد يتساهل في ماله وحقه ، ولكنه لا يتساهل في عقيدته وأدبه وذوقه .. فهل لهؤلاء الذين يؤمنون بالحرية الشخصية ويدعون اليها من غير قيد ولا نظام ، أن يشعروا بحق المجتمع عليهم ، وبحق اخوانهم المواطنين عليهم ، فلا يؤذوهم في عقائدهم أو آدابهم أو أذواقهم أو شعورهم أو كرامتهم ؟ وهل لهم أن يصونوا الحرية الفكرية من أن تنقلب الى تسميم العقول والأفكار ، والحرية الدينية من أن تنقلب الى ايذاء القلوب والضمائر ، والحرية الصحفية من أن تنقلب الى نهش الأعراض واستباحة الحرمات ، والحرية الشخصية من أن تنقلب الى اشاعة الفوضى والاباحية ؟..

ان مجتمعنا الحاضر بحاجة الى من يضبط له أمره ، ويصون له أخلاقه ، ويرده الى حظيرة الحق ، ويلزمه حدود الشرائع والقوانين ، وان ذلك كله أمانة في أعناق العلماء والمفكرين والمصلحين والخطباء والكتاب والصحفيين .. فليتقوا الله فينا ، فان العبء ثقيل ، والأمانة جسيمة ، والحساب بين يدي الله عسير :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (١) » « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (٢) »

---

(١) الأنفال : الآية ٢٧ (٢) آل عمران : الآية ١٠٤

بين الحزم والاستبداد

أذيع مساء الاثنين : ٢٧ من شوال ١٣٧٣
٢٨ من حزيران ١٩٥٤

لا يصلح المجتمع من غير نظام يضبط أمره ، ويحجز بين الناس بعضهم عن بعض ، ومن طبيعة النظام أن يرعى مصلحة المجموع ولو كان فيه تفويت المصلحة على بعض الأفراد ، فتحريم المخدرات مفيد للصحة العامة وان كان مضراً بالذين يتاجرون بها ، ومنع القمار مفيد للاخلاق العامة ، وان كان مضراً بالذين يربحون منه ، ولن تجد قانوناً يحقق مصالح كل فرد ، ولا يؤذي مواطناً ما ، وانما العبرة بمصلحة الكثرة الغالبة ، أو بكرامة الوطن في كيانه العام .

ومن طبيعة النظام أن يحرص على التسوية بين المواطنين جميعاً في الحقوق والواجبات ، لا يفرق بينهم بسبب غناهم وفقرهم أو جاههم وخمولهم ، أو علمهم وجهلهم ، فالقتل جريمة ولو صدر من عالم ، ومخالفة القانون جريمة ولو صدرت من غني أو زعيم ، وميزة النظم والقوانين هي أن تصهر الأمة كلها في بوتقة واحدة من حق يقابله واجب، وواجب يقابله حق .

ومن طبيعة النظام أن يشتد على مخالفيه من غير رحمة ، وأن يؤكد العقوبة من غير تردد ، ذلك لأن القوانين انما تشرع لمصالح الناس ، فمن الرحمة بهم أن يضرب على كل يد تعبث بمصالحهم وتفوت عليهم حقوقهم ، وفي مثل ذلك يقول شاعرنا العربي :

فقسا ليزدجروا ومن يكُ راحماً فليقسُ احياناً على مَن يرحمِ

تلك هي طبيعة النظام : رعاية لمصلحة الجمهور وان كان فيها تفويت لمصالح بعض الافراد ، وتسوية بين المواطنين ، وشدة على المخالفين .

ومن أجل هذا كان لا بد من أن تشرف على القوانين في كل دولة وجماعة يد حازمة ، لا تضعف في تنفيذها ولا تغفل عن تطبيقها ، وكلما كانت اليد الحاكمة أو المشرفة على شؤون الجماعة حازمة في تطبيق الأنظمة والقوانين ، كانت الأمة في نعمة شاملة وأمن سابغ ، وسعادة ترفرف على الناس جميعاً ..

وكما تشكو الجماهير من الحاكم الضعيف أو المتحابي حتى لتفضل عليه الحاكم المستبد ، تشكو من الحاكم الحازم فتنعته بالقسوة أحياناً ، وتنعته بالاستبداد أحياناً .. وكلا الموقفين خطأ وانحراف ..

ان الحاكم الضعيف قد يذهب ضعفه بهيبة الحكم ، لكنه لا يدوس حرية الشعب ويطمس ارادته كما يفعل الحاكم المستبد ، والحاكم الحازم قد يقسو ويشتد وهي قسوة مقيدة بالقانون والنظام ، وهي لمصلحة الشعب ولضمان حقه ، ولكنه لايستبد ولا يتحكم لان الاستبداد قسوة نابعة من هوى الحاكم الطاغية ، وأما الحزم فهي شدة منبعثة من رحمة القانون بأمن المجتمع وسلامته .. وشتان ما بين هوىً يستبد ، وبين رحمة تعدل .. وشتان ما بين قسوة من غير نظام ، وبين شدة يضبطها قانون ، ويمسك بزمامها نظام ..

سرقت عربية متاعاً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجيء بها متلبسة بالجريمة ، فكلّمه بعض الصحابة في اسقاط العقوبة عنها فقال :

« أيها الناس انما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد . أمَا والله لو أن

فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها [1] ..» فهذا هو الحزم والعدل.

وخطب زياد بن أبيه حين ولي البصرة لمعاوية بن أبي سفيان فكان مما قال : أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح بالسقيم ، من غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن بيته ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً .. فقام اليه رجل فقال : لقد أنبأنا الله بغير ما قلت .. قال الله تعالى : **« وابراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان الا ما سعى (٢) »**

وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم والمطيع بالعاصي .. فقال زياد : « انا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض اليكم الباطل خوضاً » . وهذا هو الهوى والطغيان والاستبداد ..

اننا كثيراً ما نخلط بين الحزم والاستبداد مع بعد ما بينهما في الدلالة والأثر في حياة الأمة .. بل ان تاريخنا كله مدين في صفحاته البيضاء الى الحزم ، وفي صحائفه السوداء الى الاستبداد ..

لو لم يحزم أبو بكر في قتال أهل الردة لأنشبت الفتنة أظفارها في الدولة الاسلامية الفتية فقضت عليها في مهدها ، وحرمت الانسانية من كل ما قدمته الدولة الاسلامية في عصورها الزاهرة من خير وبر وفضل على الناس أجمعين .

ولو لم يحزم عمر بن عبد العزيز في رد مظالم بني أمية وانفاذ الحق عليهم كما ينفذ سائر أبناء الشعب ، لما كان في تاريخنا هذه الصفحات

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة (٢) النجم : (٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩)

الخالدة ، من عدل شمل أقطار الدولة المتباعدة ، ومن غنى شمل الناس جميعاً ، حتى ليقول عامله في افريقيا : كنا نطوف بالصدقات على الناس فلا نجد من يقبلها قد أغنى الناس عمر بن عبد العزيز ..

ولولا حزم صلاح الدين في مقاومة الغزاة الغربيين من الصليبيين لظل وطننا في القيود بعد ذلك مئات السنين ..

ولولا استبداد الحجاج وزياد وأمثالهما من ولاة الأمويين ، وسفكهم للدماء وارهاقهم للشعب بالمظالم والمغارم ، لما قامت تلك الثورات الداخلية التي قضت على ملك بني أمية في أمد قصير ، وخلّفت وراءها جروحاً دامية في جسم المجتمع الاسلامي كان من آثارها كل ما انبعث بعد ذلك في التاريخ الاسلامي من مآس وفتن وكوارث ..

ولولا استبداد بعض خلفائنا وملوكنا ورؤسائنا في العصور الماضية ، استبداداً قضى على كل مظاهر الكرامة والعزة في نفوس الشعب ، لما هوت أمتنا في منحدر سحيق من الجهالة والفوضى والتأخر مئات السنين ، حتى أفقنا على جيوش الاحتلال تشتت وحدتنا ، وتهدر كرامتنا ، وتعفي على البقية الباقية من مظاهر عزتنا وسيادتنا ..

وفي تاريخنا الحديث : هل نسينا مآسي الاستبداد في الحكم ، والطغيان في الرئاسات ؟.. ومن المؤسف أن الضعف هو الذي ولد البغي ، والتراخي هو الذي جر الى الطغيان .. ومع ذلك فلقد شهدنا بأعيننا من مآسي الديكتاتورية والاستبداد ما جعلنا نؤمن بأن الحكم الشعبي على ضعفه وتراخيه ، خير من الحكم الفردي على قوته وهيبته..

ان الاستبداد يكتم أنفاس الأمة ، ويزيف ارادتها ، ويشل تفكيرها ، ويسوقها كالغنم الى حتفها دون أن تملك حق التعبير عن آلامها وعن نهايتها المفجعة .. وان الاستبداد يزدري عقل الأمة ووعيها ونضجها ،

ويجعل عقول الملايين خلف عقل واحد ، ان انحرفت وان ضل ضلت ، حتى ليكاد يزعم المستبد أن تفكيره وحـده هو الميزان الحق لأفكار الشعب .. وأنه معصوم من الخطأ والانحراف من حيث يعتقد في عقول الأمة كلها سوء التفكير وبطلان التدبير ..

ومن مآسي الاستبداد ، انه يلبس الحق بالباطل ، فيظلم وهو يزعم أنه عادل ، ويهدم وهو يزعم أنه يبني ، ويضعف شأن الأمة من حيث يزعم أنه يعلي مكانتها بين الأمم .. وليس أدل على ذلك من ماض قريب كانت تسير فيه البلاد بخطى سريعة نحو الافلاس والانهيار ، من حيث يزعم الطاغية أنه يسير بها نحو القوة والمجد ..

ومنطق الاستبداد دائما يستند على فوضى الحكم واضطراب الأمر ، وقد يكون ذلك واقعياً ، ولكنه لا يبرر ما يقوم به الطاغية من تعسف واضطهاد وعدوان ..

كتب عدي بن أرطاة والي البصرة الى عمر بن عبد العزيز يقول له : ان قبلي أناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالا عظيماً ، لست أرجو استخراجه من أيديهم الا أن أمسهم بشيء من العذاب ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك فعلت .. فكتب اليه عمر بن عبد العزيز « العجب كل العجب من استئذانك اياي في عذاب بشر كأني لك جُنَّةٌ من عذاب الله ، وكان رضاي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل ، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقر به .. وأيم الله لأن يلقوا الله عز وجل بخياناتهم أحب الي من أن ألقى الله بدمائهم ..

وكتب اليه أحد ولاته يقول له : اني قدمت الموصل فوجدتها من أكثر البلاد سرقاً ونقباً ، فان أذنت لي آخذ الناس بالظنة ، وأضربهم على التهمة

فعلت ، ولن يصلحهم غير ذلك •• فكتب اليه عمر يقول : « خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنَّة ، فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله » •

ذلك هو الطريق الى حكم الشعب حكماً صحيحاً آمناً ، نطق به عمر بن عبد العزيز قبل ثلاثة عشر قرناً من عصرنا هذا ، وكأنه يضع لنا اليوم أصول حكم ديمقراطي حديث من أقوم الحكم وأمضاه وأصلحه ••

ولعل من الأخطاء الشائعة ما ينقل عن جمال الدين الأفغاني رحمه الله، من قوله : « لا يصلح الشرق الا مستبد عادل •• » وأنا أشك في نسبة هذا القول الى ذلك المصلح الكبير •• فان المستبد لن يكون عادلا أبداً ، والعادل لن يكون مستبداً أبداً • وما يقع الاستبداد الا مقترناً بأبشع أنواع الظلم والبغي وانتقاص حقوق الأمة واهدار كرامتها ••

ولعل الكلمة الصادقة هي أن الشرق لا يصلحه الا حازم عادل لا مستبد عادل ، فان الحزم والعدل صنوان لا يفترقان •• ونحن في أشد الحاجة الى عدل يصون الحقوق من استبداد يهدر الحقوق ويزري بالكرامة ••

أما بعد ، فلقد أسرف الشعب في طلب الحرية حتى وصل الى الفوضى، وأسرف الحكام السياسيون في مرضاة الشعب هتى أهدروا كرامة الحكم ، وأسرف الطغاة المستبدون في شدة الحكم حتى أهدروا كرامة الشعب ، والخير وسط بين هذا كله •• وقديماً قيل : الفضيلة وسط بين رذيلتين ••

يقول الله تبارك وتعالى : **« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل (١) »** وهذا أساس الحكم الذي لا يظلم ولا يسرف •

---

(١) النساء : الآية ٥٧

ويقول تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين (١)**)) وهذا هو أساس النظام الذي لا يحابي ولا يتراخى .

ويقول تعالى : ((**وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله (٢)**)) وهذا هو أساس السلطان الذي لا يستبد ولا يخور ..

واذا كانت تجارب الماضي البعيد قد أنستنا هذه المبادىء التي دلنا عليها الله في كتابه الخالد ، فان تجارب الماضي القريب ما تزال تذكرنا بالحقيقة التي لا يجوز أن ننساها أبداً .. وهي أن فوضى الحكم في الأمة هو أول سبيل الى الاستبداد ، وأن الاستبداد هو أقتل شيء لكرامة الأمة وحريتها ..

فهل نطمع أن يقوم فينا حكم يعدل في الحق ولا يظلم ، ويشتد في الحكم ولا يستبد ؟ وهل نطمع أن يقوم فينا حكام يعدلون ولا يجاملون؟ ويشتدون في الحكم ولا يستبدون ؟

اللهم انها أمنية تجول في خاطر كل فرد من أبناء هذه الأمة ، فابعث فينا مثل هذا الطراز الجديد من الحكام حتى يعيدوا للأمة كرامتها ، وللدولة هيبتها ، وللحكم قوته واستقراره ..

---

(١) النساء : الآية ١٣٤ (٢) آل عمران : الآية ١٥٩

بين الصدق والكذب

اذيع مساء الاثنين : ٥ ذي القعدة ١٣٧٣
٥ تمـوز ١٩٥٤

قال عبد الله بن المقفع : « ان الكذاب لايكون أخاً صادقاً ، لأن الكذب الذي يجري على لسانه انما هو من فضول كذب قلبه ، وانما سُمِّي الصديق من الصدق » .

وهذا حق ، فان الكذاب لن تكون أخوته صادقة ، ولا معاملته صادقة ، ومن ثم فلن يكون الكذاب زعيماً صادقاً ، ولا حاكماً صادقاً ، ولا موظفاً صادقاً ، ولا عاملا صادقاً ، ولا عالماً صادقاً ..

ومن هنا لم يُجمع علماء الأخلاق ، وعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع ، على الاشادة بفضيلة كفضيلة الصدق ، والتنويه برذيلة كرذيلة الكذب وخطره على الأفراد والجماعات ..

ولو استعرضت مشاكل العالم كله ، لوجدتها ترجع الى شيء واحد هو الكذب : كذب السياسي على شعبه ، وكذب الرئيس على أمته ، وكذب الحزب على أتباعه ، وكذب النائب على ناخبيه ، وكذب العالم على العامة ، وكذب التاجر على زبائنه ، وكذب الصديق على صديقه ، ولو صدق هؤلاء جميعاً لاستقامت الحياة واستفاضت الثقة ، واطمأن الناس بعضهم الى بعض ، فوفروا على أنفسهم خصومات وعـداوات وخلافات لم تنشـأ الا من فقدان الثقـة بالأحاديث والمواثيق والعقود والمعاملات ..

عيَّن أبو بكر في خلافته عمر للقضاء بين الناس •• قالوا فمكث عمر سنة لا يختصم اليه اثنان !• أترى هذا لأن الناس في عهد عمر لم تكن طبائعهم من طبائع البشر التي تختلف وتتنازع ، أم ترى ذلك لأن الناس في عهد عمر لم يكن لهم شيء يختصمون عليه ويتنازعون ؟ •• كلا ! لا هذا ولا ذاك ، وانما هو الصدق الذي يحجز كل واحد من المتنازعين عن أن يصور الخلاف لنفسه كما يشتهي ، بل يصوره كما هو في الواقع والحق ، فاذا هو ينصف من نفسه اذا كان ظالماً ، ويرد الحق اذا كان معتدياً ، ويتسامح اذا كان مجنياً عليه •• وبهذا لم يحتج الناس الى عمر ليقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ••

وما بالنا نذهب بعيداً في أعماق التاريخ ، ونحن كنا نشاهد حتى الأمس القريب كيف كان الناس يتعاملون بالثقة ، ويتبايعون بالصدق ، فلا أيمان ولا مواثيق ولا صكوك ولا سندات •• كان التاجر يسافر من حلب الى دمشق ، في عصر لم يكن فيه غير الجمل والبغل والحمار وسيلة للسفر ، وكانت الطرقات غير آمنة من اللصوص والمجرمين •• ومع هذا فلقد كان التجار يهرعون اليه حين سفره يحمّلونه أكياس الذهب ليسلمها الى عملائهم في دمشق ، من غير أن يأخذوا منه ايصالا أو سنداً أو وثيقة ، فيسلمها الى أصحابها دون أن يأخذ منهم ايصالا أو توقيعاً •• واننا لنرى اليوم بأعيننا حقوقاً تنكر ، وأموالا تهدر ، وتجاراً يعلنون الافلاس رغم كل ما قدموه لأصحاب الأموال من رهن وتوثيق في البنوك والمصارف •• فهل ترى سبباً لهاتين الحالتين المتباينتين ، بين الأمانة في عصر آبائنا ، والخيانة في عصرنا ، الا كثرة الصدق في عهدهم ، وفشو الكذب في عهدنا ؟••

ان الصدق عدا عن كونه أساس الفضائل النفسية ، هو ضرورة من ضرورات الاجتماع ، بل هو أكبر أبواب السعادة للأفراد والجماهير ،

فالزعيم الصادق أنجح الزعماء مسعى وأكثرهم أتباعاً ، والسياسي الصادق أكثر السياسيين تأييداً من الشعب وأجلهم في عيونه مقاماً ، والتاجر الصادق أكثر التجار زبائن وأكثرهم ربحاً ، وحسبك أن ترى نفسك مسوقاً ـ حين تريد ابتياع سلعة من السلع ـ الى أن تفتش عن متجر عرف صاحبه بالصدق لتدفع له ثمن سلعته كما يريد ، واذا أردت أن توكل محامياً في دعوى ، سألت عن أصدق المحامين وأوثقهم ، لتكل اليه أمر قضيتك وأنت مرتاح البال مطمئن النفس •

ولقدرأينا في حياتنا السياسية أن الأزمات حين تشتد لا يحلها الا رجال عرفوا بالصدق في حكمهم فتسعى اليهم الأحزاب المختلفة ، ملقية بين أيديهم زمام الحكم ثقة منها بصدقهم وأمانتهم وتجردهم ، والأمانة والتجرد نوعان من الصدق العملي •

ولعل أصدق ميزان لرقي أمة من الأمم ، صدق أفرادها في أقوالهم وأعمالهم •• ولقد كانت أمتنا في عصور الخير والمجد ، من أشهر الأمم بالصدق ، حاكمها أصدق حكام الدنيا ، وعالمها أصدق علماء الأرض ، وتاجرها أصدق تجار الأمم ، وقائدها أصدق قادة الجيوش ، وبذلك كانت كلمة العهد والأمان تصدر من قائد من قوادنا ، أقوى وأبلغ أثراً وأكثر خيراً من المعاهدات السياسية والعسكرية ، التي توقع في عصرنا الحاضر بين الدول ، ثم لا يكون لها من القيمة أكثر من قيمة الورق الذي كتبت عليه ، والحبر الذي سجلت به •

ومن هنا كانت الأزمة التي يعانيها العالم اليوم ، أزمة الثقة بالوعود والأقوال •• ان منبر هيئة الأمم ليشهد كل يوم زعماء الدول الكبرى يتبارون في الدعوة الى السلام ، والتنفير من الحرب ، والتشهير بالعدوان ، ما لو صدقوا فيه جميعاً لما كان على وجه الأرض نزاع ولا شقاء ولا حروب •• ولكنهم جميعاً لايثق بعضهم ببعض ، وكل واحد منهم

ينطوي في قرارة نفسه على الشك بصدق ما يقول الآخرون . وبذلك أخفقت المؤتمرات وفشلت المفاوضات ، بل فشلت هيئة الأمم نفسها في تنفيذ مبادئها التي أعلنتها ، لأن أقوى الدول فيها يكذب على أضعف الدول فيها بما تسرف من وعود ، وبما تقول من أحاديث ..

وقل مثل ذلك في حياتنا السياسية .. فلو كان زعماؤنا ورجال أحزابنا يثق بعضهم بأقوال بعض ، لما وصلنا الى هذه الحال المؤسفة من الفوضى وعدم الاستقرار .. والا ففيم تختلف الأحزاب في مبادئها وغاياتها ؟ وهب أنك اختلفت ، ففيم تقتتل ويسب بعضها بعضاً ؟ انه فقدان الثقة بالأقوال والأحاديث والخطب .. يجعل كل فريق يقف من الآخر موقف الذي يشك ولا يثق ، ويتهم ولا يبرىء ، ويسيء الظن ولا يحسنه .

نستطيع اذاً أن نؤكد مرة أخرى أن مشكلة العالم كله اليوم تبدأ من فقدان الصدق وانتشار الكذب .. الكذب في الأقوال ، والكذب في الأعمال ، والكذب في النيات ، والكذب في المظاهر ، فليس غريباً اذاً أن تقف الشرائع كلها متشددة في خلق الصدق ، منكرة رذيلة الكذب .

والاسلام هو أشد الأديان وطأة على الكذب والكذابين ، وأكثرهم تنويهاً بالصدق والصادقين ، فهو يجعل الصدق قرين التقوى ، فمن فقد الصدق فقد التقوى ، حين يقول القرآن الكريم : **« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (١) »** بل هو يعتبر الصدق مفتاح البر ، والكذب مفتاح الاثم والفجور حين يقول صلى الله عليه وسلم : « الصدق يهدي الى البر ، والبر يهدي الى الجنة ، والكذب يهدي الى الفجور ، والفجور يهدي الى النار ٢ » ومن فلسفة الكذب في الاسلام أنه عنوان خيانة كبرى ، يقول عليه الصلاة والسلام : « كبرت خيانة أن تحدث

---

(١) التوبة : الآية ١٢٠ (٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما

أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب [1] » بل هو من آية النفاق « آية المنافق ثلاث : اذا حدّث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان [2] » بل الكذب لايلتقي مع الاسلام ولا يطبع عليه المسلم ، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « كل خصلة يُطبع عليها المسلم الا الخيانة والكذب [3] » وقد سئل عليه الصلاة والسلام : أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعم ، قيل : أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم ، قيل أفيكون كذاباً ؟ قال : لا [4] » وهذا موقف تتقطع له ظهور الـذين يخشون على دينهم وعلى كرامتهم ، ما دامت فيهم رجولة وايمان ..

ان الكذب جبن وخسة وجرأة على الله يستحق الكاذب من أجلها اللعنة والطرد من رحمة الله « **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين (٥)** »

والكذاب لن ينجح في حياته ، ولن يهتدي الى الحق والخير ، فسينكشف للناس عن جبن وخسة تجعل الخيبة ملازمة له في شأنه كله .. ذلك وعيد الله للكاذبين حين يقول : **ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٦)** وحين يقول : « **وقد خاب من افترى (٧)** »

ومن الجدير بالذكر أن الاسلام حرم الكذب حتى في حالة المزاح ، وكان من أوصافه صلى الله عليه وسلم أنه كان يمزح ولا يقول الا حقاً .. جاءته امرأة عجوز تسأله أن يدعو الله لها بدخول الجنة فقال عليه السلام يمازحها : ان الجنة لا تدخلها عجوز .. فولّت باكية نادبة ، فقال عليه السلام ردّوها ، ثم قال لها : انك لا تدخلين الجنة وأنت عجوز ، ولكنك

---

(١) رواه أبو داود وأحمد (٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما (٣) رواه الامام احمد والبزار
(٤) رواه الامام مالك (٥) آل عمران : الآية ٦١
(٦) المؤمن : الآية ٢٨ (٧) طه : الآية ٦١

تدخلينها شابة ، أوما قرأت قول الله تبارك وتعالى :((**انا أنشأناهن انشاءً ، فجعلناهن أبكاراً ، عرباً أتراباً**)) فابتسمت وفرحت ..وجاءته امرأة تشكو زوجها فقال لها : أزوجك الذي في عينيه بياض ؟ فجزعت وقالت ياويلتاه أزوجي مصاب ببياض في عينيه ؟ فقال لها عليه السلام : أليس في كل عين بياض ؟..

هذا هو طرف من موقف الاسلام من الصدق والكذب ، وفيه ما ترون من تحر للصدق حتى في أوقات المزاح ، ومنه تعلمون قبح العادة الفاشية بين الناس المسماة بـ « كذبة نيسان » .. وهي بدعة ممقوتة نقلناها عن الغربيين ، وليست من تقاليدنا الصالحة في شيء .

نعم قد أباح الاسلام الكذب في مواطن محصورة أربعة هي لمصلحة المجتمع ، ولأمن الناس ، وسلامة الأسر ، فقد أباح الاسلام الكذب في انقاذ نفس بريئة من القتل ، وفي الحرب مع الأعداء ، وفي الاصلاح بين الناس ، وفي حديث الرجل لزوجته ، وهذا ما يقوله صلى الله عليه وسلم: « كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة ، الا أن يكذب الرجل في الحرب ، فان الحرب خدعة ، أو يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها [1] » وجدير بنا أن نشير الى الحالة الثالثة ، وهي ارضاء الرجل لزوجته ، فان كثيرين من المتزمتين ، يرون كلمة لطف أو محبة يقولها الرجل لزوجته ، يجانب التقوى والورع ، مع أنها سبب من أسباب الهناءة الزوجية ولو كانت صادرة عن مجاملة .. وما أجمل ما يسمي الغربيون هذا النوع من المداعبة بين الزوج وزوجته « تزييت

---

(١) رواه الترمذي واحمد .

العجل [1] » وما دمنا بسبيل من بيان موقف الاسلام من الصدق والكذب، فجدير بنا أن نذكر أثر هذه التعاليم في تربية المسلمين على الصدق، حتى تركوا في التاريخ أروع الأمثلة على تمسكهم بهذا الخلق في مختلف أطوار حياتهم ..

ذهب بلال وصهيب من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم الى أهل بيت من العرب يريدان أن يتزوجا منهم فقيل لهما : مَنْ أنتما ؟ فقال بلال : أنا بلال وهذا أخي صهيب . كنا ضالين فهدانا الله، وكنا مملوكين فأعتقنا الله، وكنا عائلين فأغنانا الله، فان تزوجونا فالحمد لله، وان تردونا فسبحان الله، فقال القوم : بل تُزَوجَّان والحمد لله، ثم انصرفا، فقال صهيب لبلال : لو ذكرت مشاهدنا وحروبنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال بلال : أسكت فقد صدقت فزوجك الصدق . ولما جلس الحجاج لقتل بعض الأسرى قام رجل منهم فقال : أصلح الله الأمير : ان لي عليك حقاً ! قال وما حقك ؟ قال سبَّك عبد الرحمن بن الأشعث يوماً فرددت عليه ! قال الحجاج : من يعلم ذلك ؟ فقام رجل من الأسرى فقال: قد كان ذلك أيها الأمير ! فقال خلُّوا عنه، ثم قال للشاهد : ما منعك أن ترد على ابن الأشعث كما رد صاحبك ؟ فقال له الشاهد : لقديم بغضي اياك .. فقال الحجاج : خلوا عن هذا لصدقه ..

أما بعد، فما أجدر الساسة والزعماء ورجال الأحزاب بأن يتحلوا بالصدق لتستقيم حياتهم فتستقيم حياة الأمة، وما أجدر الناس من تجار وعمال وموظفين ومتعلمين أن يتحلوا بالصدق لتعود الى النفوس ثقة فقدناها ففقدنا الأمن والحب والسعادة والاستقرار . وما أجدر المربين أن يربوا أبناءنا وبناتنا على الصدق حتى ينشأوا كراماً مطبوعين على

---

(١) يقصدون بذلك أن المجاملة بين الزوجين، تزيد الحياة الزوجية قوة، والحب بينهما توثقاً، كما يعمل الزيت على صيانة عجلات السيارة واطرادها في المسير .

الجرأة والعفة والأمانة . وليحذر الآباء والامهات من أن يكثروا الكذب على أطفالهم ، أو يعودوهم عليـه ، ولو كان لاسكاتهم من بكاء ، أو لتهدئتهم من غضب ، فان ذلك تعويد على أقبح خلق ، عدا عن أنه يفقد أطفالهم الثقة بأقوالهم ، فلا تنجح موعظة ، ولا يؤثر حديث . قال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال حتى أعطيك ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمراً ، فقال : أما انك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة [1] » .

احذر ياصديقي الكذبة الواحدة ، فانها تفتح لك باب الكذب على مصراعيه ، ومن عرف بالكذب مرة واحدة سقطت مكانته ، وقلّت الثقة بحديثه ، فلا يلومن بعد ذلك الا نفسه ، وما أروع ما يقول زياد في خطبته البتراء : « ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فاذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، فاذا سمعتموها فاغتمزوها فيّ واعلموا أن عندي أمثالها » فهل يسمع هذا مرشحو النيابة ، وزعماء الأحزاب ، ودعاة الاصلاح ، وساسة الشعوب ؟..

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي

بين الدين والطائفية

أذيع مساء الاثنين : ١٢ ذي القعدة ١٣٧٣
١٢ تموز ١٩٥٤

من أبرز ظواهر الحياة الاجتماعية في تاريخ الانسان ، تدينه العميق الذي يجعله خاضعاً لاله قدير ، يرجو رحمته ويخاف عذابه ، ومن أبرز خصائص الديانات أثرها الكبير في توجيه الأفراد والجماهير ، وسلطانها على مشاعرهم واتجاهاتهم . ومن هنا لعبت الديانات دوراً كبيراً في قيام الحضارات ونشوء الأمم واندثارها ، ولا تكاد تجد ديناً خلا من النزعة الانسانية الرحيمة . فكل الأديان تأمر بالرفق ، وتحث على الحب ، وتنهى عن الخصام ، وتمقت القسوة والأذى ، وهي بذلك عامل من أكبر العوامل في نشر السلام بين الناس ، وقيام الثقة والتعاون بينهم في شؤون معاشهم ومعاملاتهم .

وأدياننا الكبرى في الشرق العربي والاسلامي تلتقي عند هذا الغرض في كثير من آدابها وشرائعها .. وحسبك من المسيحية قول السيد المسيح عليه السلام : « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم » وما كان يبديه المسيح من عطف على الفقراء ورحمة بالبائسين وصفح عن المسيئين . ولقد عاش ما عاش من حياته بين الناس وهو مثلهم الأعلى في الحب والرحمة والتواضع والبر بالناس أجمعين .

أما الاسلام فلا تكاد تحصي آيات القرآن في الحب والصفح والرحمة وعمل الخير للناس ، ولا تكاد تحصى الأحاديث التي تحث على ذلك

وترغب فيه ، وحسبك من الاسلام قول الله تبارك وتعالى في وصف عباده المؤمنين : « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً (١)** » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله ٢ » .

وهكذا تتعاون دياناتنا على نشر الوئام بين الناس ، وترغيبهم في العيش معاً أخوة متحابين ، لا يعتدي بعضهم على بعض ، ولا يسفك بعضهم دم بعض ، ولا يحول اختلاف دياناتهم دون اطمئنانهم جميعاً على حرياتهم وأموالهم وأعراضهم وكفاءاتهم . بل ان القرآن لينص على أن اختلاف الديانات والحكم بينها فيما تختلف فيه ، يجب أن يوكل أمره الى الله وحده ، والله وحده هو الذي يحكم يوم القيامة بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون . يقول الله تبارك وتعالى : « **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم .. فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (٣)** »

بل ان الاسلام ليقرر أن اختلاف الناس في أديانهم وعقائدهم أمر طبيعي من ضرورات الحياة ، وفي ذلك يقول الله عز وجل :

« **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم (٤)** »

بهذه الروح اتسعت تاريخ الديانات عندنا لتسجيل أروع الصفحات في تاريخ التعاون على الخير بين أبنائها تعاوناً أدى الى خير الانسانية وتقدمها . وهل ننسى ما كان لتعاون الاسلام والمسيحية في العصر العباسي من آثار عظيمة في العلم والثقافة ؟ وهل ننسى كيف كان يجتمع

---

(١) الفرقان : الآية : ٦٣ (٢) رواه البزار (٣) البقرة : الآية ١١٣ (٤) هود : الآية ١١٩

المسلم والمسيحي والمجوسي في حلقة الخلفاء ينثر كل منهم ما في كنانته من علم وأدب ، والخلفاء يضفون عليهم جميعاً ظلا ظليلا من الرعاية والاكرام ؟

في تلك العصور كان من أبرز أخلاقنا الاجتماعية تعاوننا على بأساء الحياة وضرائها مع اختلاف أدياننا وعقائدنا ، حتى اشتركنا في كثير من الحروب جنباً الى جنب نقاوم الغزاة ونطرد المعتدين .. ولست أرى في التاريخ أروع من موقف شيخ الاسلام ابن تيمية حين جاء الى أمير التتار يطلب اليه اطلاق سراح الأسرى ، فأجابه الأمير التتاري الى اطلاق سراح أسرى المسلمين وحدهم دون المسيحيين واليهود ، فأبى شيخ الاسلام رحمه الله وقال : لا بد من اطلاق سراح هؤلاء أيضاً فانهم أهل ذمتنا لهم ذمة الله ورسوله ، فأطلق الأمير سراحهم جميعاً .. هذا مثل من أمثلة السمو في أخلاقنا الاجتماعية يومئذ تعلم منها أننا فهمنا الدين أداة خير وعنوان تعاون وأساس خلق كريم ، من أبرز خصائصه الشهامة والنجدة والوفاء بالعهد . وهذا هو التدين .. وهذه هي روح الدين في حقيقته الالهية الخالدة ..

ويوم ينقلب الدين مفهوماً ضيقاً يتميز بالحقد والعداء ، ويبعث على النزاع والشحناء ، وينتهي الى الفتن وسفك الدماء .. يومئذ يكون الدين قد تحول الى طائفية ذميمة تنذر بشر العواقب وأوخم النتائج ..

في أوائل القرن الثامن الهجري شهدت مصر أعواماً سوداء ذهبت بعشرات المعابد ، وأودت بعشرات النفوس ، وملأت القلوب حقداً والأرض فساداً .. فقد أساء بعض الموظفين من أهل الذمة معاملة المسلمين ، وأذاقوهم ألواناً من الذل والمهانة ، فقابلهم جهلة المسلمين باحراق بعض الكنائس ، فرد عليهم بعض المتعصبين من الكهان والرهبان باحراق بعض المساجد .. وكادت تتحول القاهرة الى أتون مستعر لو لا

أن حزم السلطـــان أمره ، وعاقب مسببي الفتنة من الجانبين بما أطفـأ نارها •• وتلك هي الطائفية السوداء •• ان اســاءة الموظف المسيحي لمواطنيه المسلمين أمر لا تدفعه اليه مسيحيته ، وانما تدفعه اليه طائفيته الجاهلة بسماحة المسيحية وأخلاقها •• وان احراق المسلم لبعض الكنائس أمر لا يدفعه اليه اسلامه ، وانما يدفعه اليه جهله بالاسلام ومبادئه في معاملة غير المسلمين •• وان احراق الكاهن المتعصب لبعض المساجد أمر لا يدفعه اليه المسيح ، وانما يدفعه اليه جهله بروح المسيح وآدابه وأخلاقه •• وهكذا تنبعث الطائفية من الجهل ، ثم تنمو وتترعرع في تربة الحقد والاستغلال ••

وإذا كان في تاريخنا بعض المآسي الدينية ، فليس مردها الا الى الطائفية المنبعثة من الجهل ، واذا كان في تاريخنا بعض الحروب الدينية ، فليس مردها الا الى الطائفية المستثمرة من العدو •• وهل ننسى حوادث الستين ، وكيف كانت الدول الاستعمار يـــة الكبرى هي التي تؤجج نيرانها ، كل دولة تؤيد طائفة •• حتى دمرت الطوائف بيوتها بأيديها ، وشوهت جمال أرضها بجهل عامتها واستغلال زعمائها ؟ •

وان من الحق أن نجهر بأننا لا نزال نعيش في أجواء الطائفيةالبغيضة في كثير من الأحيان •• بل ان في بعض البلاد الغالية من أرض الوطن العربي موجةمن الطائفيةالبغيضةالتي ترميالى استعباد طائفةلطائفة،وطرد طائفة لطائفة من جميع دواوين الدولة وأراضيها •• وفي بعض البلاد النائية من الوطن الاسلامي تتحكم الأكثرية في الأقلية تحكماً لا بد أن ينتهي الى الابادة أو الردة أو التشرد •• فما علة هذا ؟ وما سببه ؟ ومن الذي يستفيد منه ؟ وما طريق القضاء عليه ؟

أما انه ما من شك في أن العلة هي الجهل بالدين ، وأن السبب ما توارثناه عن آبائنا من خلق اجتماعي ذميم ، وأن الذي يستفيد منه هم

أعداء الأمة من المستعمرين والطغاة والظالمين ، وأن العلاج الوحيد أن يذكر الناس جميعاً بالمبادىء الانسانية العالية في كل دين ..

ان كثيرين يظنون أن علاج هذه الطائفية المدمرة هي دعوة الناس الى ترك أديانهم .. وليس أبعد في الوهم والخطأ والضلال من هذا الظن .. فما كانت الأديان يوماً وسيلة حرب ولا أداة خراب ولا باعثة شقاء وفناء .. وها هي تعاليم الأديان في كتبها المقدسة : أين يجد الناس فيها ما يدعو المؤمنين بها الى أن يحتقروا مخالفيهم ويعتدوا عليهم ويسلبوهم أموالهم وأعراضهم وهناءتهم ؟ .. بل متى ابتليت أمتنا بهذه الطائفية الذميمة ؟ أفي عصور الخير والمجد ؟ أم في عصور الضعف والانحطاط ؟ أفي عهود الدين الأولى ؟ أم في أيامه الأخيرة ؟.. أيوم كان الناس مستمسكين بتعاليمه ؟ أم يوم انحرفوا عنه ولم يتقيدوا بأوامره وزواجره ؟.. ان الجواب عن هذا لا يختلف فيه اثنان ممن يقرأ التاريخ .. فالمؤمنون الأولون الصادقون كانوا أوسع الناس صدوراً ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأكرمهم معاملة ، وأكثرهم وفاء .. فهل ذلك الا لأن دينهم يأمرهم به ولو أمرهم بغيره لفعلوا ؟ وألا تكون الطائفية الحاقدة وليدة الجهل بالدين لا العمل به ولا الوقوف عند حدوده ؟

ثم ألا تكون الدعوة الى ترك الدين كعلاج للطائفية ، غفلة قاتلة لا تقع فيها أمة واعية ؟..

ان الفرق بين الدين والطائفية هو فرق ما بين العلم والجهل ، والحق والباطل ، والخير والشر ، والايمان والعصيان .

الدين اخاء وتعارف ولقاء .. والطائفية عداء وتقاطع وجفاء ..

الدين حب ورحمة وسلام .. والطائفية كره وقسوة وخصام ..

الدين وفاء وحسن خلق وطيب نفس وسماحة يد .. والطائفية غدر وسوء خلق وخبث نفس وقذارة يد ..

الدين شرعة الله ورسالته .. والطائفية شرعة الشياطين ووسوستهم ..

الدين هداية الرسل الى الله وطريق الناس الى الجنة .. والطائفية قيادة الأشرار الى الدمار ، والطريق المستقيم الى النار ..

هذا هو الفرق بين الدين وبين الطائفية ، وهو فرق عميت أنباؤه على كثير من الزعماء ورجال الأحزاب ودعاة الاصلاح ، فحاربوا الدين وهم يظنون أنهم يحاربون الطائفية ، وكرهوا دعوة الدين وهم يظنون أنها دعوة الى الطائفية .. وما دروا أنهم بذلك يجردون الأمة من أقوى أسلحتها للقضاء على الطائفية وما تجر وراءها من بلاء وشقاء ..

ولئن جاز لأحد أن يبرر الدعوة الى ترك الدين لأنه أسيء استعماله، فقد جاز لكل انسان أن يدعو الى ترك الطب لأنه اسيء استعماله ، والى ترك الأدب لأنه وضع في غير موضعه ، والى اغلاق معاهد العلم لأنها انحرفت بكثير من طلابها عن طريق الهدى والرشاد ..

ان الانحراف بالحق لا يبرر المطالبة بالغائه ، وما من حق في الدنيا الا وقد شابه من الأغراض ما شوه جماله .. أفترى نظامنا النيابي وما أصابه من تعثر في خطواته يبرر لأحد ممن يؤمن بحرية الفكر وحق الشعب وكرامة الفرد ، بأن يطالب بالغائه ليقوم مقامه نظام استبدادي يجعل الحياة ظلمات بعضها فوق بعض ؟ ان على الذين يحاربون دعوة الدين على وجهه الصحيح لئلا تؤدي الى عصبية طائفية شوهاء أن يقدروا كم تتعرض الأمة من الأخطار المادية والخلقية والفكرية حين تجرد من دينها ، فلا يحجز بعضها عن بعض وازع ولا رقيب ؟.. وكم تطفىء في قلوب الناس من جذوة مشتعلة تبعث على التضحية والفداء حين تحتاج الأمة الى البذل والفداء .. ان الدين يعوض الشهيد عن

حياته الدنيا جنة عرضها السماوات والأرض ، فبماذا تعوض الدعوة الى ترك الدين الشهيد عن أولاده وحياته ولذته ونعمته ؟.. انني لا أتصور انتحاراً جماعياً أشد في قبحه وشناعته من ترك الأمة لدينها واعراضها عن الله .. ولست أتصور خلقاً اجتماعياً كريماً يمكن أن تتخلق به الأمة بعد أن تطرح دينها وراءها ظهرياً ، فالى أية هاوية ننحدر اليها بجهلنا التفرقة بين الدين والطائفية ؟!

أيها الناس : ارجعوا الى الدين .. واطرحوا طائفيتكم ..

أيدوا دعوة الدين .. وحاربوا دعاة الطائفية ..

كونوا متدينين .. وحذار أن تكونوا طائفيين ..

بين التعصب والتسامح

أذيع مساء الاثنين : ٢٦ من ذي القعدة ١٣٧٣
٢٦ من تمــوز ١٩٥٤

من ألفاظ الهجـاء والمدح الشائعة في مجتمعنا ، لفظـا التعصب والتسامح ، فاذا أراد الناس أن يذموا رجلا ويشنعوا عليه ، قالوا عنه انه متعصب ، واذا أرادوا أن يمدحوه ويثنوا عليه قالوا انه متسامح ، فما هو نصيب هذا من الحق ؟ وما أثره في حياتنا الاجتماعية ؟

هنالك حقوق للأفراد وحقوق للجماعات . ومن حقوق الأفراد ما هي أساسية لا يعتبر الانسان سعيداً في الحياة بدونها ، كحق الحياة وحق الحرية وحق العلم وحق العمل وحق الكرامة .. ومن واجبه أن يدافع عنها ويتعصب لها . فأنت من حقك أن تدافع عن حياتك ، وتتعصب لهذا الحق ، ومن أراد العدوان على حياتك فدافعته بكل ما تملك من وسيلة ، كنت معذورا في نظر الشريعة والقانون ، ولا يفكر بأن يعيبك على ذلك وأن ينعتك بالتعصب الا رجل مخبول لا عقل له . وقل مثل ذلك في حقك في الحرية : الحرية في جسمك والحرية في فكرك وعقيدتك ، ولا ينكر عليك حق الدفاع عنها والتعصب لها ، الا طاغية أو مستعمر . وكذلك حقك في العمل والكسب .. انه حق مقدس فمن منعك الأكل أو اللباس أو السكن أو حاجاتك الضرورية ، كان ظالماً أنانياً مجرماً ..

وهكذا يكون تعصب الانسان لحقوقه الأساسية ودفاعه عنها فضيلة يحمد عليها ، وتسامحه فيها نقيصة يذم عليها ويلام من أجلها ..

أما في الحقوق الجزئية الثانوية كحقك على فلان بمال استدانه منك، أو حقك في أرض ينازعك فيها جارك ، فالتمسك بحقك مشروع لا عيب فيه ، وان كان التسامح فيه من مكارم الأخلاق ..

وأما حقوق الجماعة كحقها في الاستقلال والكرامة والأمن والسعادة، فهي حقوق مقدسة لا يجوز التفريط فيها ، بل يعتبر التفريط فيها خيانة تستحق العقوبة البالغة والنكال الأليم ..

أترى رئيس دولة أو زعيم أمة يتسامح في حق أمته ولا يدافع عن استقلالها وسيادتها ، أترى مثل هذا مستحقاً للمدح والثناء ، أم هو خائن مفرط في حق أمته وبلاده يستحق غضب الله ولعنة التاريخ ؟

وهل ترى مما يعاب عليه رجل الدولة أن يكون شديداً في تطبيق القانون متمسكاً بمبدأ العدالة بين أبناء الشعب ، متعصباً للحق شديد النكاية بالعابثين بالأمن ؟ أذلك مما يعاب عليه أم يمدح به ؟

واذاً فتعصب الفرد لحقوقه الضرورية ، وتعصبه لحقوق أمته وبلاده، خلق كريم يعود على المجتمع بالخير والبركة ، كما أن تفريطـه بذلك وتسامحه فيه خلق ذميم ينشأ عنه كل فوضى في المجتمع ، وكل اهدار لكرامة الأمة وسيادة الدولة ..

ومن هنا نلمس سر عظمة أبي بكر رضي الله عنه حين وقف ذلك الموقف الحازم الشديد من المرتدين .. فلقد أراده بعض الصحابة على أن يهادنهم ويجيب بعضهم الى ما أرادوا من الامتناع عن دفع الأموال لخزينة الدولة ، فأبى ذلك وخالفهم جميعاً وقال قولته المشهورة : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونـه الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم لقاتلتهم عليه .. » انه هنا يقف موقف المتشدد في حق الجماعة المنكر على من يتمرد عليها ، المتعصب لقوانينها وأنظمتها ، الحريص على نصيبها

في أموال الأفراد .. فهو هنا في أشد صور التعصب الكريم الحميد ، ومن ثم كان في مكان الصدارة بين الرؤساء الخالدين .

ولا ريب في أن العقيدة مظهر من مظاهر الحياة الحرة الكريمة للأفراد والجماعات ، بل لا معنى للحياة بدونها ، بل هي الميزة الفاصلة بين الانسان والحيوان . فهي حق من حقوق الفرد والجماعة والتمسك بها من دلائل الخير في كل مجتمع على السواء ، ذلك لأن العقيدة ان كانت دينية فهي من أضبط المقاييس لأهواء الفرد ونزعاته ، وأقوى الروادع بين الجماهير والجماعات ، وان كانت فكرية فهي دليل الوعي ، والوعي دليل الشخصية الحية التي تعقل وتفكر .. فليس عيباً أن يتمسك الانسان بدينه ويعمل بعقيدته ، بل العيب أن يعتنق ديناً فلا يعمل به ، ولا يخضع لنظمه ، ولا يضحي بأهوائه احتراماً لمثله العليا ..

الدين في حقيقته كما يريده الله طريق حب للناس وسلام فيما بينهم كما قال عليه الصلاة والسلام « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [1] » وهو عمل الخير للناس جميعاً كما قال عليه الصلاة والسلام « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله [2] » وهو قيام بالحق واقامة للعدل « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي (٣)** »

فمن تمسك بالدين على هذا ومن تعصب له ضمن هذه المثل العليا ، فقد تعصب للحب والخير والحق والعدل ، ومن تساهل فيها وأعرض عنها ، كان متسامحاً في هدم كيان المجتمع واشاعة الشر والعدوان والظلم فيه .

والدين الحق يأخذ بيد المظلوم ويضرب على يد الظالم ، ويحفظ كرامة البائسين والمشردين ، ويوازن بين الأقوياء والضعفاء حتى لا يطغى

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد (٢) رواه البزار (٣) النحل : الآية ٩٠

قوي ولا يمتهن ضعيف ، فهو على هذا دعوة اصلاح اجتماعي وعـدالة اجتماعية ، لا جرم ان كان المتمسك به والمتعصب له من أنبل الناس نفساً، وأقواهم رحمة ، وأكثرهم شعوراً بالمعاني الانسانية النبيلة . وبهذا نقف أمام صلابة الرسل والمصلحين وأصحاب العقائـد في دعواتهم موقف الاكبار والاجلال ..

انك لتقرأ في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيملك عليك لبك وقلبك ونفسك ، موقفه يوم دعاه عمه أبو طالب الى التخفيف من اندفاعه في دعوته الجديدة ، فقال له وهو يبكي : « والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهرَه الله أو أهلك دونه » انه هنا صاحب رسالة يتعصب لها ويصمم على المضي في سبيلها ولو وقفت الدنيا في وجهه .

وتقرأ في تاريخ العظماء والمصلحين وزعماء النهضات مواقف تدل على الصلابة في مبادئهم وآرائهم لايحيدون عنها ولا ينحرفون ، وتلك لعمري هي منافـذ الطرق الى تحرير الأمم وانقاذ الشعوب واسعـاد الانسانية ..

وان موقفاً واحداً من مواقف الشدة في الحق والتعصب له ، قد يكون سبباً في تغيير مجرى التاريخ لأمة من الأمم أو للعالم كله .. أترى لو أن الرسول صلى الله عليه وسلم استجاب لدعوة عمه أبي طالب وتخلى عن رسالته ، أكانت هذه الأسفار الضخمة من المجد والخلود في تاريخ العرب والمسلمين ؟

هذه هي حقيقة التعصب الكريم للعقيدة وتلك هي حدوده وآثاره.. أما التعصب الذميم ، فهو أن تضطهد مخالفيك في العقيدة ، وتحقـد عليهم وتسيء معاملتهم وتسلب أموالهم وتهين كرامتهم ، كما يفعـل الجهلاء من أصحاب العقائد والديانات .. فهذا هو سبيل الشقاء والخراب

في حياة الأفراد والجماعات وهذا هو ما نهى عنه كل دين حق ، وهذا هو ما جاء الاسلام للقضاء عليه بين صفوف المتدينين ..

يقول الله تبارك وتعالى : ((**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين(١)**))

فهذا هو الخلق الذي يكشف عن سماحة الدين ويسره وعمله لسعادة الجماهير ..

ان التاريخ لا يزال حتى اليوم يقف موقف الاجلال والاكبار للذين أظهروا سماحة الدين في حكمهم وفتوحاتهم ، كما يصب لعنته وسخطه واحتقاره للذين قاموا بأبشع صور التعصب في انتصاراتهم وسيطرتهم ..

حين دخل عمر بيت المقدس ، وأعطى أهلها أماناً على معابدهم وكنائسهم وعقائدهم وأموالهم ، كان مثالا لصاحب الدين في سماحته ونفسه الانسانية الكبيرة .

وحين دخل السلطان محمد الفاتح القسطنطينية ، وأعطى بطريركها سلطاناً داخلياً على رعيته ، لا يتدخل في عقائدهم ولا في عباداتهم ، كان مثالا لرجل الدين الذي يتسع صدره للناس جميعاً ، والذي يرى أن من حق الناس أن يعبدوا الله أحراراً كما يشاءون .

وحين استولى الاسبان المتعصبون على اسبانيا المسلمة ، فشردوا أهلها واضطهدوا عقائدها وامتهنوا معابدها ، وأعملوا فيهم سوط السجن والتعذيب والاحراق والقتل ، لم يكونوا يمثلون سماحة الدين الذي يعتنقونه ، وانما كانوا يمثلون حقد المتدين الجاهل الذي لايرى مكاناً على ظهر الأرض لغير المتدينين بدينه ..

ان مآسي التفرقة والعداء والحروب والفتن الدينية لم تكن ناشئة من التعصب الكريم لمبادىء الأديان الكريمة ، وانما كانت ناشئة من التعصب اللئيم للجهل والحقد والخرافة والضلالة ..

---

(١) الممتحنة : الآية ٨

وكما أضر بنا هذا الضرب من التعصب الديني ، أضر بنا التعصب للبلد ، والتعصب للقبيلة والعائلة ، والتعصب للحزب والزعيم ..

ان من الجائز المقبول أن تذكر محاسن بلدك ومفاخر قبيلتك ومبادىء حزبك وفضائل زعيمك ، ولكن من غير الجائز أن تزري بكل بلد غير بلدك ، وبكل قبيلة غير قبيلتك ، وبكل زعيم غير زعيمك ، فهذا هو الجهل والتعصب للباطل ، وهذا هو الداء القاتل للأمم والهيئات والأحزاب ..

أيها المستمعون الأحبة :

يقول الله تبارك وتعالى : **((يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين (١)))**

وهذا هو مبدأ التعصب لحق الجماعة واطراح عصبية الأهل والولد والأقربين .

ويقول تبارك وتعالى : **((فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (٢)))**

فهذا خطاب للجماعة أن تتعصب لحقها ولا تتسامح فيه أبداً .

ويقول تعالى : **((ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣)))**

فهذا هو خطاب للفرد أن يتسامح مع الناس ويسعهم بصدره وخلقه .

فهل لنا أن نقف عند حقوق الجماعة فنتعصب لها ، وعند حقوق الأفراد فنتسامح فيها ؟

وهل لنا أن نفرق بين التعصب لمبادىء الدين الأساسية ، وبين التعصب ضد غيرنا من أبناء الديانات الأخرى ؟

اننا ان فعلنا ذلك حللنا أكبر مشكلة من مشاكلنا العامة ، وارتفعنا بمستوى أخلاقنا الاجتماعية الى مستوى السلف الصالح من آبائنا الخالدين .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٣٤ (٢) البقرة : الآية ١٩٤ (٣) فصلت : الآية ٣٤

بين الأمانة والخيانة

اذيع مساء الخميس : ١٢ من شوال ١٣٧٤
٢ من حزيران ١٩٥٥

من الأخلاق الاجتماعية التي تدل على سمو المجتمع وتماسك بنيانه أن ينتشر في المواطنين خلق « الأمانة » ومن بواعث الشكوى والقلق وازدياد الخصومات والجرائم أن تكثر الخيانة في الناس فلا يأمن صديق صديقه ، ولا زوج زوجه ، ولا أب ولده ، ومن المجمع عليه لدى علماء الأخلاق والنفس والاجتماع أن الأمانة من ألزم الأخلاق للفرد والجماعة على السواء . ويكاد لاينازع في ذلك أحد ، فما زلنا رغم ارتفاع الأصوات بالشكوى من تحلل المجتمع من كثير من قيود الفضيلة والأخلاق نجمع على مدح المتخلق بالأمانة وذم المتصف بالخيانة ، فما معنى الأمانة؟ وما حدودها ؟ وما واقعها في حياتنا الاجتماعية الحاضرة ؟

ان كثيراً من الناس يحصرون « الأمانة » في أضيق معانيها وحدودها، فيرونها قيام الانسان بحفظ ما يودع لديه من مال ، فان وفاه صاحبه كان أميناً ، وان أنكره وتلاعب به كان خائناً ، وهذا وان كان من معاني الأمانة الا أنه في الواقع أضيق حدودها .

يقول الله تبارك وتعالى : **« انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، انه كان ظلوماً جهولا (١) »**

وبدهي أن الأمانة هنا ليست حفظ المال فقط ، فذلك ما لا يفيده نص الآية ولم يقل به مفسر من المفسرين ، وانما نستشعر أن المراد بالأمانة

(١) الاحزاب : الآية ٧٢

هنا شيء تأباه طبيعة العوالم كلها الا الانسان ، وأن الانسان وحده هو الذي أهّل بطبيعته واستعداده للاتصاف بـه . وبذلك يكون معنى الأمانة ملازماً للعقل الانساني والروح الانسانية ، فأصبح تحديد للأمانة الواردة في الآية هو التزام الواجبات الاجتماعية وأداؤها خير أداء ...

ولعل هذا هو التعبير الحديث عن المعنى الذي ذهب اليـه أكثر المفسرين في تفسير هذه الآية وهو طاعة الله وأداء الفرائض التي شرعها الله للناس والتي يثاب فاعلها ويعاقب تاركها ...

وهذا هو المعنى الصحيح لاباء السموات والأرض والجبال أن تحمل الأمانة لأنه ليس في طبيعتها أن تعقل أو تخضع غرائزها لقوانين الخير ، والانسان وحده من بين هذه العوالم هو الذي يستطيع أن يتحكم في غرائزه وميوله ، فيخضعها لمقاييس الحق ، ويكون بين الناس وفيّاً بما التزم نحوهم من عهود ، عاملا على بث الطمأنينة في أوساطهم ، فان نكل بعد ذلك عن القيام بهذا الواجب كان خائناً للأمانة عاملا على الأذى ظالماً لنفسه ولمجتمعه جاهلا بما تجره الخيانة عليه وعلى الناس من شر وفساد.

وعلى هذا تكون الأمانة شاملة للقيام بجميع التكاليف والالتزامات الاجتماعية والأخلاقية .

فالعقل أمانة لدى الانسان ان عمل بمقتضاه ونظمه بالعلم والمعرفة كان قائماً بحق الأمانة مؤدياً لها خير أداء .

والجسم أمانة لديك ، فان أنت غذيته وصححته ورفقت به فلم ترهقه بالأعمال ولو كانت عبادة كنت محسناً محافظاً على الأمانة ، وفي ذلك يقول عليه السلام : « نفسك مطيتك فارفق بها » .

وزوجك وولدك ووالداك وكل من تشترك معهم في أواصر القربى، ويلزمك حفظهم والنصح لهم هم أمانة عندك فان رعيت حقوقهم وبذلت لهم النصح وأسديت لهم الخير وأبعدت عنهم الأذى كنت قائماً بالأمانة أحسن قيام **« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً (١) »**

---

(١) التحريم : الآية ٦

وحق المجتمع عليك في اشاعة الطمأنينة والسلام والخير فيه ، أمانة تلزم بالوفاء بها فان لم تفعل ذلك كنت مسيئاً الى الناس خائناً لأماناتهم .

والشعب في أيدي الحاكمين والمسؤولين أمانة فان قاموا بما يجب عليهم نحوه من نصح ورعاية وصيانة لكرامته وحريته كانوا أمناء أوفياء « الامام راع وهو مسؤول عن رعيته [1] » والا كانوا من أغش الناس وأكثرهم خيانة « من بات غاشاً لرعيته لم يرح رائحة الجنة [2] » والدين أمانة في أعناق رجال الشريعة ، ان شرحوه للناس وصانوه من التحريف والتلاعب ، وبينوا ما فيه من حق وخير وحالوا دون العدوان على شرائعه وآدابه ، كانوا أوفياء لأقدس ما في الحيـــاة من معنى كريم ، وان لم يفعلوا ذلك كانوا مرتكبين لأبشع صور الخيانة وأشدها خطراً « **واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون (٣)** »

والعلم أمانة في نفوس العلماء ، ان وطؤوا للناس سبله ، وكشفوا في الكون أسراره ، واستعملوه في رفاهية الانسانية وخيرها وسلامها ، كانوا أمناء أوفياء ، يستحقون ثواب الله وخلود التاريخ « **انما يخشى الله من عباده العلماء (٤)** »

وان استعملوه فيما يشيع الذعر ويشقي الأمم ، ويشجع الطغاة على العدوان والاجرام ، كانوا خونة آثمين مجرمين يلحق بهم عار التاريخ وتحق عليهم لعنة الله ... « **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به (٥)** »

والمال في أيدي الناس أمانة ، فان أحسنوا التصرف به والقيام عليه، وأداء الحقوق الاجتماعية فيه ، كانوا أمناء أوفياء ، لهم الذكر الجميل في الدنيا ، والنعيم المقيم في الآخرة ، والا كانوا خونة ظالمين « **وأنفقوا مما**

---

(١) رواه البخاري ومسلم (٢) رواه الطبراني ورواه البخاري ومسلم بمعناه
(٣) آل عمران : الآية ١٨٧ (٤) فاطر : الآية ٢٨ (٥) المائدة : الآية ١٤

جعلكم مستخلفين فيه (١) » « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم (٢) »**

وهكذا نجد الأمانة تنتظم الاستقامة في شؤون الحياة كلها،من عقيدة وأدب ومعاملة وتكافل اجتماعي ، وسياسة حكيمة رشيدة وخلق حسن كريم .

والأمانة بهذا المعنى وهذه الحدود ، سر سعادة الأمم أو شقائها،ويوم كانت أمتنا من أصدق الشعوب في حمل هذه الأمانة والوفاء بها ، كانت أمتنا خير أمة أخرجت للناس ..

سرقت امرأة عربية متاعاً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أهلها يستشفعون لدى الرسول ليسقط عنها العقوبة فغضب عليه السلام من هذه المحاولة ثم قال : « أيها الناس انما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد أما والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها [٣] » فهذه هي أمانة الحاكم في تنفيذ القانون على الناس جميعاً ..

واستدان ولد لعمر بن الخطاب من أبي موسى الأشعري حين كان والياً على الكوفة أموالاً من خزينة الدولة ليتاجر بها ، على أن يردها بعد ذلك كاملة غير منقوصة ، واتَّجر ولد عمر فربح فبلغ ذلك عمر فقال له : انك حين اشتريت أنقص لك البائعون في الثمن لأنك ولد أمير المؤمنين ، ولما بعت زاد لك المشترون لأنك ولد أمير المؤمنين ، لاجرم ان كان للمسلمين حق فيما ربحت ، فقاسمه نصف الربح ، واسترد منه القرض وعنفه على ما فعل ، واشتد على أبي موسى في العتب لأنه أسلف ولد أمير المؤمنين من أموال الدولة ما لا يصح أن يقع مثله ، هذه هي أمانة الحاكم الذي يسهر على مال الشعب فلا يحابي فيه صديقاً ولا قريباً . ولقد كان

---

(١) الحديد : الآية ٧ (٢) التوبة : الآية ٣٥ (٣) رواه البخاري ومسلم

صلاح الدين الأيوبي رحمه الله من أكثر ملوك عصره توفيقاً في الفتوح والنصر ، وكان نصيبه من الغنائم كبيراً جداً ، أوقفه كله مدارس ومستشفيات ومساجد مما لايزال بعض آثاره باقياً خالداً حتى اليوم ٠٠ ولم يترك لنفسه ولأولاده شيئاً ، حتى قالوا انه حين مات ، مات وهو من أفقر الناس لم يترك درهماً ولا ديناراً ولا أرضاً ولا عقاراً ، وهذه هي أمانة القائد المجاهد الذي يأبى أن يتاجر بجهاده ويرضى بالله وجنته وثوابه بديلا ٠

وأراد عثمان رضي الله عنه أن يقرض بعض الناس من الخزينة العامة وطلب الى خازن بيت المال أن ينفذ رغبته في ذلك فأبى عليه الخازن ، فقال له عثمان : أتأبى ذلك وأنت موظف عندنا،فجاء الى المسجد وقال للناس بصوت يسمعه كل من في المسجد : أيها الناس لقد زعم عثمان أني خازن له ، وانما أنا خازن بيت مالكم لا بيت ماله ، وها هي مفاتيح بيت المال أردها اليكم ، ثم رمى بالمفاتيح وخرج ٠ وهذه هي أمانة الموظف الكريم يأبى أن يتجاوز القانون ارضاء لرئيس أو زعيم ٠

ومر علي رضي الله عنه في المسجد فرأى واعظاً يعظ الناس فقال له : أتعرف أحكام القرآن وناسخه ومنسوخه ؟ قال : لا ، فقال له علي : هلكت وأهلكت ، ثم منعه من التحدث الى العامة ٠٠

وهذه هي أمانة رئيس الدولة في صيانة العلم وحفظ عقائد الناس من أن يفسدها الجاهلون٠٠

ووقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام قاضي القضاة في دمشق مرة في وجه سلطان دمشق ، وأنكر عليه تعامله مع الأفرنج لقاء نجدتهم اياه في حربه مع أخيه سلطان مصر ، واعتبر الشيخ ذلك خيانة للمسلمين وجريمة في حق البلاد ، فلما عزله السلطان عن منصبه أبى أن يسكن في بلد يخون فيها حاكموها حقوق الشعب واستقلاله وسيادته ، ولم يرض بالعودة الى دمشق مع كل ما بذل السلطان بعد ذلك من وعود واغراء ،

وهذه هي أمانة العالم يصدع بالحق في وجه الحاكم الظالم ، ويكشف خيانته للشعب دون أن تأخذه في الله لومة لائم •

وتصدقت عائشة رضي الله عنها يوماً بمائة ألف درهم وهي صائمة تلبس ثوباً خلَقاً ، فقالت لها جاريتها : لو أبقيت لنا ما نفطر عليه اليوم فليس عندنا ما نأكله ! فأجابتها لو ذكرتيني لفعلت ، وهذه هي أمانة الغني المؤمن نسي جوع نفسه ليذكر جوع غيره من أبناء الشعب •

أيها المستمع الكريم !

هذه بعض أحاديث الأمانة في مجتمع كانت الأمانة فيه خلقاً بارزاً يتعامل به الناس بعضهم مع بعض ، ويحرص عليه الجاهل كما يحرص العالم ، والفقير كما يحرص الغني ، وابن الشعب كما يحرص الحاكم •• خلقاً أشاع الطمأنينة والثقة فيهم ، فاذا هم يتعاملون بالحب ويتجاورون بالوفاء ، ويتعايشون بالطمأنينة ، ويتساندون بالحق رضي الله عنهم ورضوا عنه •

واليوم •• وقد ارتفعت الشكوى من سوء الأوضاع في مجتمعنا الحاضر ، حتى لاتجد راضياً يتحدث اليك عن مجتمعه حديث المطمئن الى سعادته ، الواثق بحقه ، فهل تجدون لذلك سبباً يجمع أسباب اضطرابنا كلها الا وصفاً واحداً وهو ترك الأمانة ••

لقد تخلى العالِم عن أمانة العلم ، فاذا هو — الا من عصمة الله — يبيع علمه لمن يشتريه من طغاة وحكام وظالمين ومفسدين ، وتخلى الحاكم عن أمانة الشعب فاذا هو — الا من عصمه الله — يفرق بين المواطنين ، ويتجاوز عن أخطاء اتباعه من الموظفين ، ويهمل القانون ويتلاعب بنصوصه لأن له هوى قد ملك عليه لبه وغرضاً لايجد غير الحكم وسيلة لتحقيقه •

وتخلى الشعب عن أمانة المراقبة لزعمائه ، فتملقهم وأغفى عن خطيئاتهم ، وسار وراءهم — الا من عصمه الله — يصفق لهم بيده ، وهو

ينحرف عنهم بقلبه ، ويؤيدهم بلسانه وهو ينكر عليهم في نفسه .

وتخلى الموسرون عن أمانة المال فاكتنزوه ، واحتبسوه عن الفئات المتخلفة في المجتمع ، ثم رضوا أن ينقلبوا في النعيم ، ومن حولهم يشقى في البؤس والجحيم .

وتخلى الرجل عن أمانة الأسرة فلم يبال بما يتعلم ولده ، وما تلبس زوجه ، وما يفعل أخوه ، حتى اجتمع في البيت الواحد التقي والفاجر ، والمتزمت والمتحرر ، والجنة والسعير ، والشمال واليمين .

هذه حالنا اليوم وذلك هو رأس مشاكلنا .. وعلاجه ليس بالعسير ان فاء كل منا الى ربه واستيقظ فيه ضميره ، وذكر الجنة وما أعده الله للأوفياء في أماناتهم من ثواب مقيم وذكر النار وما أعده الله للخائنين في عهودهم من عذاب أليم .. ان ذلك ليسير على من أحيا قلبه بتعاليم دينه السمحة واستمع الى رسوله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته [1] » .

اللهم أحيي قلوبنا بنور معرفتك ، وأيقظ ضمائرنا بتعاليم شريعتك ، اللهم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ...

---

(١) رواه البخاري ومسلم

كلنا سياسيون

اذيع مساء الخميس : ١٩ من شوال ١٣٧٤
٩ من حزيران ١٩٥٥

كنت راكباً مرة في الترام ، فسمعت حواراً بين شخصين بجانبي يتحدثان عن السياسة العامة في البلاد ، وكان حديثهما ينمّ على أنهما غير مثقفيْن ، وكان مما قاله أحدهما للآخر : ان السياسيين في هذه البلاد لا يفهمون ، ولو أن الحكومة تأخذ برأيي لانحلت كل المشكلات التي تعانيها ، ثم تأفف وهز برأسه وقال ، ما دام كل الذين يشتغلون في الأمور السياسية في بلادنا لا يفهمون فكيف تتقدم ؟ وكيف نصبح كبقية الناس؟

هذا حديث سمعته منذ بضعة شهور ، ونسمع مثله دائماً في الأسواق والمجالس والطرقات وهو يدل على ظاهرتين جديرتين بالاهتمام :

أما أولاهما فهي أننا شعب يعنى جميع أفراده بالقضايا السياسية العامة ، فهو يتتبع أنباءها في الصحف والاذاعة والأحاديث التي تدور في المنتديات .. وهي ظاهرة تدل على وعي وتبشر بخير ، وان من علائم الحياة في أمة أن لا ينفرد ساستها وحكامها بالعناية بالقضايا العامة ، بل يشاركهم فيها الشعب بمختلف اتجاهاته وثقافاته ، وقديماً علّمنا الاسلام أن نهتم لما يجري في المجتمع من خير أو شر ، وأن نتكافل جميعاً في اقامة النظام الاجتماعي على أساس من التناصح والتعاون ، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان [1] » .

(١) رواه مسلم وأحمد

واهتمام المواطن بشؤون وطنه يدل على شعوره بأنه جزء منــه ترتبط سعادته بسعادة المواطنين جميعاً ، وبؤسه ببؤسهم ، والى هذا المعنى يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم [1] » ٠

وأما ثانيتهما فهي أن هذا الوعي لم يكتمل بعد ، ولم ينظم بحيث تستفيد منه البلاد ، فلا يكفي أن أتتبع أخبار بلادي وحوادثها ، بل لابد من أن أعرف حدودي في النقد واللوم والتأييد والمعارضة ، وحين يبلغ الأمر بالذين لا يعرفون مداخل السياسة وأوضاعها ومجرى الحوادث وظروفها ، أن يحكموا — من غير ثقافة تساعدهم ولا تجربة تبصرهم — بأنهم أفهم من السياسيين جميعاً ، وأعلم بطرق الخير من كل من يتصدى للعمل العام من أحزاب وجماعات ونواب ومسؤولين ، يكون ذلك دليل الفوضى والسذاجة في الوعي الاجتماعي للأمة ٠

اننا لا نستطيع أن نباشر جميع حاجياتنا بأيدينا ، وأن نصنعهــا بمعرفتنا ، فثوبنا ندفعه للخياط ليخيطه ، وبيتنا نسلمه للبنــاء ليُحكِم بناءه ، وطعامنا نرسله الى أزواجنا أو الطاهيات في بيوتنا ليهيئنه ، ولا نجد من الحق والذوق أن نتدخل في عمل الخياط ، ونحن لا نعرف علم الخياطة ، او ننكر على البنّاء أسلوبه ونحن لا علم لنا بالهندسة ولاالبناء، وأن نرمي نساءنا أو طاهياتنا بالجهل وقلة الذوق فيما صنعن من طعام ونحن لا نكاد نعرف طعم فمنا كما يقول العامة ٠٠ فاذا ذهب أحد منا الى أكثر من ذلك فزعم أن الخياطين في بلده جميعاً لايفهمون في فن الخياطة ، وأن الأطباء كلهم جهــال يودون بالمرضى الى الموت ، وأن البنّائين منأجهل الناس بأصول البناء ، وان الطاهيات جميعاً لا يُحسِنَّ طهي الطعام، وأن النساء جميعاً لايُحسِنَّ تربية الاولاد، وأنه هو وحده الذي يعرف الخياطة أو الطب أو الهندسة أو الطهي أو التربية ، فقــد برهن عن غباوةوجهل وغرور ذهب بعقله كله ، ولو بقيت لهمظاهر العقلاء من حديث أو اشارة أو عمل أو حركة !

---

(١) رواه الحاكم والطبراني

والحق أننا في شؤوننا العادية نكاد نسلّم جميعاً بهذا المبدأ ، ومن أمثالنا العامية في ذلك : « أعط خبزك للخباز ولو أكل نصفه » واذا اختلف اثنان منا في أمر احتكمنا الى ذوي الخبرة فيه ، فالتاجران حين يختلفان يحتكمان الى شيوخ التجار ، والمؤجر والمستأجر اذا اختلفا في الايجار احتكما الى ذوي المعرفة بقيم الدور وأجورها ، ولكننا جميعاً نكاد ندعي المعرفة والخبرة والفهم أكثر من كل انسان في أمرين اثنين لهما بالغ الخطورة في حياتنا وهما : الدين والسياسة .

فأما الدين فيكاد يزعم كل واحد منا أنه يفهم دينه تمام الفهم ، وأنه أعلم بدينه من علماء الشريعة وفقهائها .. ونجد هذا الزعم واضحاً في فريقين من الناس : الجاهلين من المتدينين ، والجاهلين من المتحررين ، أولئك يجرأون في الفتوى على الله فيحللون الحرام ويحرمون الحلال من غير معرفة بنصوص الشريعة وقواعدها ، وهؤلاء يجرأون على الحق فيزعمون أن الدين ما وافق أهواؤهم وطابق ميولهم من غير علم بمبادىء الشريعة وأحكامها وأصولها العامة ، ومن هنا نشأت في أوساط الجاهلين المتدينين فنون البدع والخرافات ، وفي أوساط الجاهلين من المتحررين مظاهر الانحلال والتفلت من الدين ونظامه . ولو أن هؤلاء وأولئك حين عرفوا أن لكل شيء حدوداً ، ولكل علم أصولا ، وقفوا عند حدود الشريعة فيما يعلمون ، وسألوا الفقهاء بدين الله عما لا يعلمون ، لاستقام شأن المجتمع وانتظمت حياة الناس ، ولما استبيحت الحرمات وحرمت الطيبات ، وسفكت الدماء وقطعت الأرحام باسم الدين والدين من كل ذلك براء .

وأما السياسة فكل واحد منا يدعي أنه أفهم بها من غيره ، وأدرى بوجوهها الصحيحة ممن عداه ، ثم نحن نمنح أنفسنا العصمة فيما نرى من وجوه السياسة لا نخطىء فيها أبداً ، من حيث نمنع على غيرنا الصواب فيما يرى من وجوه السياسة فهو لا يصيب فيها أبداً ، وليت الأمر اقتصر عند هذا بل يتجاوزه الى الاتهام في النوايا ، والاتهام في الضمائر ،

والاتهام في السلوك ، فكل من يخالفنا في السياســة خائن ، وكل من نعارضه في الحكم مرتش سارق ، وهكذا ضاعت المفاهيم السياسية الصادقة والقيم الأخلاقية المستقيمة ، فزُرع الشك في تربة الوطن زرعاً، ولم يعد شعب يثق بسياسي ، ولا سياسي يحترم شعباً .

اني لا أنكر أن من بواعث هذا الانحراف الخطير في أخلاقنا السياسية والاجتماعية انحراف كثير من السياسيين عن سنن الحق والاستقامة ، وانتشار الروح الحزبية البغيضة عن جهل وتعصب مقيت ، واسراف الصحف المعارضة في النقد ، والصحف الموالية في التأييد ، فكل ذلك كان له أثر كبير فيما نشاهده من مرض التطاول والغرور في أحكامنا ونظرتنا الى من سوانا ، ولكن هذا لايعفي المجتمع نفسه من تبعة هذا المرض ، فلو كان المجتمع على وعي صحيح ، لما أثَّرت في نفسه الدعايات المضللة ، والأكاذيب الملفقة ، ولطالب مروجي التهم بالأدلة على مايدعون، ولأعرض عن المغرقين في الحزبية العمياء اعراضاً يكون فيه التأديب الأدبي لهم حتى يرعووا عن خطتهم ، والمجتمع الواعي الصحيح لا يزول فيـه الاختلاف في القضايا العامة ، ولكن اختلافه يكون أكثر التئاماً مع الحق، وأكثر انسجاماً مع المصلحة العليا للأمة ، وفي بلاد العالم المتحضر أحزاب مختلفة المناهج ، وسياسيون متباينو الآراء ، ولكنهم مع هــذا يحترم بعضهـم رأي بعض ، ويفســح بعضهم مجـالا لنظريات بعض ، حتى وفي الحزب الواحد قد تختلف الآراء وتتعارض الأنظار ولكن الأمر لا يعدو أن يكون اجتهاداً في الوصول الى الصواب من الخطة والصحيح من النهج ، فان لم يكن اجماع بعد ذلك فأكثرية تلتقي على رأي وأقلية تخالفها ثم تسير معها .

وهذا هو نهج الاسلام أيضاً ، فلقد أمر الاسلام باجتماع الكلمة فقال: **« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا (١) »** فاذا اختلفت الآراء

---

(١) آل عمران : الآية ١٠٣

حول أمر اجتهادي وجب المسير مع الجماعة « يد الله على الجماعة ومن شذ شذ الى النار [١] » وألزم الاسلام الانسان أن يسأل أهل العلم بالشيء حين يجهله ويريد معرفته فقال : **« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون [٢] »**

وعاب على الذين يتَّبعون الظن ولا يتحققون فيما ينقلون أو يحكمون فقال **« قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون [٣] »** أما الذين يستمعون الى أقاويل السوء فينشرونها من غير تحقيق ولا يرجعون الى حسن الظن والتثبت في اتهام الناس فقد أنَّبهم القرآن في قصة الافك أشد تأنيب ومن قوله تعالى في ذلك **« ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ان كنتم مؤمنين [٤] »**

ومما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ثلاثٌ مهلكات: شحٌ مُطاعٌ وهوىً متَّبع ، واعجاب كل ذي رأي برأيه [٥] » وصدق رسول الله فما يهلك الفرد أو الجماعة أكثر من بخل يستولي على النفس حتى تخضع له ، ومن هوى يتحكم في الانسان فاذا هو المسيطر عليه في أحكامه على الناس وعلاقاته بجيرانه ، ومن اعجاب بالرأي حتى لا يتبع جاهل عالماً ، ولا صغير كبيراً ، ولا فرد جماعة ، ولا يخضع أحد لمنطق أحد أو حجته ، وانما هو الاستمساك بالرأي مع تخطئة الآخرين ، والاعجاب بالفكرة حتى تسد عليه مسالك النظر في صحتها أو بطلانها.. أفليس هذا هو الذي نقع فيه الآن ؟ أوليس هذا هو مبعث الاضطراب وفقدان الثقة في حياتنا السياسية والاجتماعية ؟..

أيها المواطن الكريم

ان من واجبك أن تتبع الحوادث التي تقع في بلادك بكل يقظة

---

(١) رواه الترمذي (٢) النحل : الآية ٤٣ (٣) الانعام : الآية ١٤٨
(٤) النور : الآية ١٦–١٧ (٥) رواه الطبراني

وانتباه ، فالوطن هو وطنك ، والخير الذي يعمّه ان حسنت أحواله هو خير لك ولأبنائك وأحفادك ، والنار التي تحيط به ان امتدت اليه لاسمح الله ستمتد فيما تمتد الى بيتك وولدك وزوجك ومالك ، فكن يقظاً في تتبع الحوادث ، وكن عادلا متزناً في الحكم فيها ، فما تبين لك أنه الحق بعد امعان نظر وسداد منطق فاحرص عليه ، ولا تجامل فيه أحداً ، ودافع عنه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما تبين لك أنه الباطل بعد تثبت وتحقق واستيفاء لأدلة الحكم الصحيحة فاجتنبه ، واحذر مع ذلك أن تتخذ منه ذريعة الى التهديم أو وسيلة الى التفرقة ، فانما عليك أن تجتنب الخطأ وتنبه اليه ، وحجتك في ذلك البيان السديـد ، ووسيلتك في التعبير وسيلة المؤدّب الذي لا يفحش في السبـاب ولا ينغمس في التجريح ، وما ترددت فيه فلم تتبين وجه الحق فيه من الباطل ، فاسأل عنه أهـل الخبرة به ، ممن ترتضي عقولهم وتأنس بفطنتهم وتطمئن الى استقامة ضمائرهم ، ولا تحاول أن تستعلي عليهم بحكم جازم لم تـهيّأ لك أدلته ، ولا تظهر بمظهر المغرور الذي حجبه الغرور عن جهله فاذا هو في غروره من أجهل الناس وأحمقهم •

هذا هو موقفك الذي ينبغي أن يكون من أحداث قومك وشؤون بلادك ، وهو النهج الذي سنّه لك المعلم الأكبر محمد صلوات الله وسلامه عليه حين قال : « انما الأمور ثلاثة : أمرٌ تبيَّن لك رشدُه فاتبعه ، وأمر تبين لك غيّه فاجتنبه ، وأمر اختـُلِف فيه فردّه الى عالم [1] » •

اللهم آتنا سداد الرأي وبعد النظر وجنبنا الغرور والتجاوز في معرفة أقدار أنفسنا ، حتى لا نراها فوق ما هي عليه ، ولا نرى أنفس الناس دون ما هي عليه ، واهدنا اللهم بفضلك سبل الخير والحب والسلام •

---

(١) رواه الطبراني في الكبير

بين أب وفتاة

اذيع يوم الخميس : ٢٦ من شوال ١٣٧٤
١٦ من حزيران ١٩٥٥

كتبت الي معلمة من حلب متخرجة في كلية الحقوق تعرض مأساة من مآسينا الاجتماعية بصورة مؤثرة فتقول في كتابها :

أريد أن أشرح لسيدي الأستاذ وضع طفلة في الثانية عشرة من عمرها، تحيا حياة بؤس وشقاء ، في كنف والد أقل ما يمكن أن يوصف به انه لا يفقه للانسانية والمثل العليا أي معنى ، قدّ قلبه من صخر ، وتجرد عن أي مفهوم من مفاهيم القيم الأخلاقية مما نسميه بالرحمة والشفقة والوجدان ، وتعيش فتاته كذلك في ظل زوجة أب تكيل لها من العذاب الشيء الكثير ، وفي دار فيها عشرة أولاد هي أكبرهم سناً ، تجبرها زوجة أبيها على أن تخدمهم جميعاً أشد وأقسى مما تقوم به الخادم من أعمال التنظيف والطهي ، عدا عن الاهانة القاسية التي تلقاها من أبيها وزوجته ، هكذا تعيش هذه الفتاة في هذا الجو المحموم ، حتى أصبحت في حالة يأس مستول على نفسها ، تنقم من الحياة وأهلها ، وتحاول أن تفر منها بالانتحار أو التشرد ، ولطالما حاولت الانتحار فأخفقت ، وهي فتاة كما قلت لك في الصف الخامس الابتدائي لاتزيد على اثني عشر عاماً .. ثم تتابع المعلمة الفاضلة قصة هذه الفتاة البائسة فتقول : ان هذه الطفلة ياسيدي حرمت عطف أمها وهي في التاسعة من سني حياتها ، اذ أن أباها طلّق أمها فتلاعب بالرباط القدسي دون مبرر ما ، اللهم الا ارضاء نزوة طائشة ونزولا عند ارادة ذويه الذين عز عليهم رؤية ابنهم يحب زوجته ويحترمها ، فأرادت أمها المطلقة أن تضم اليها فتاتها التي

منحتها كل ما تملك في الحياة من حب وجهد وعطف ، فأبى عليها الشارع ذلك وأسلمها الى يد هذا الأب القاسي الذي وصفته لك ، ثم تعقب هذه الكاتبة على قصة الفتاة فتقول : حيال هذا الموقف يقف تشريعنا صامتاً وينظر الى الطفولة المعذبة بارتياح ، أو هذا هو تشريعنا السمح الذي تحسدنا عليه بقية الأمم ؟ وهل الترك والاهمال والقضاء على الطفولة المعذبة من تعاليم الاسلام ؟ تصور ان هذه الطفلة البائسة قريبة لك فما هو الحل لتخليصها من هذا الوضع قبل أن تفلح في الانتحار أو تعمد الى الهرب من البيت وتهوي في منحدرات الضلال ؟ ولقد تعلمنا فيما تعلمنا من دروس الشريعة في كلية الحقوق ، أن الاسلام جاء لسعادة الفرد والمجتمع ، وضمن حقوق الناس كافة ، فهل في الاسلام ما يكفل لهذه الفتاة حياة كريمة بعد حياة الشقاء والهوان ؟..

هذا هو خلاصة كتاب المعلمة الفاضلة في الحديث عن فتاة بائسة ليست هي أول فتاة ولا آخر فتاة تلقى مثل هذا الجحود من قلب أبيها الفظ الغليظ .. ويخيل الي أن الكاتبة تريد أن تلقي باللوم على تشريعنا العائلي ، اذ بدأت المأساة بطلاق الأم من غير مبرر ، وانتهت بحرمانها من حق الحضانة لبنتها وهي أولى بها من ذلك الأب المتحجر القلب .. ولكن الكاتبة لا تفقد أملها بالاسلام في أن ينقذ هذه الفتاة من الموت أو العار وتسأل الطريق الى هذا الانقاذ ..

أما ان هذه الفتاة بائسة فهذا ما لاشك فيه ، وأما ان هذه المأساة قائمة في مجتمعنا فهذا ما لاشك فيه ، وأما انها صورة عن بعض مظاهر الانحراف في أخلاقنا الاجتماعية فهذا ما لا شك فيه ، ولعلنا جميعاً نذكر مثل هذه الفتاة فيما نعرف من بيوت أصدقائنا وجيراننا ، وكم من أطفال وفتيات عوملوا مثل هذه المعاملة القاسية من زوجة أب ماتت أمهم أو بانت بالطلاق .. ولا شك في أن مثل هؤلاء الأطفال يلقون من عنت الزوجة الجديدة وقسوة الأب العابث ، مايكونون به في مستقبل حياتهم

فريسة للآلام والأمراض والعقد النفسية والانحراف عن المجتمع والنقمة عليه •• وهي من مشاكلنا الاجتماعية القائمة التي يجب أن يعني بها دعاة الاصلاح وعلماء التربية •• ولكن مَنِ الملوم في ذلك ؟ أهو نظام الأسرة الذي نعيش في ظله ؟••

ان هذه المشكلة تنشأ غالباً من الطلاق أو موت الزوجة ، فأما موت الزوجة فلا يد فيه لانسان ، ولا يمكن أن نطلب من الرجل ان ماتت زوجته ولها أطفال صغار أن لا يتزوج ، فان مصلحة الأولاد وسنة الحياة قد تجعل الزواج في هذه الحالة أمراً محتماً ، ولذلك أباحته كل الشرائع بلا استثناء ••

وأما الطلاق فهو في هذه القصة التي تتحدث عنها قد كان ظلماً لا مبرر له ، اذ ان الزوج كان يحب زوجته الأولى ويحترمها ، ولكن أهله هم الذين ألجأوه الى هذا الطلاق • ولا أعتقد أن مثل هذا الظلم من مثل هذا الزوج يجعلنا نلقي اللوم كله على نظام الطلاق •• فالطلاق شرع في الشرائع التي أباحته ــ ومنها الاسلام ــ لضرورات عائلية واجتماعية ، وهو في الاسلام من أبغض الحلال الى الله ، وقد ذهب كثير من العلماء الى أن الأصل فيه الكراهة وانما يباح للضرورة •• فاذا أساء بعض الناس استعمال هذا الحق لم يكن ذلك مبرراً لالغائه أو التحامل عليه ، والا لجاز لنا أن نطالب بالغاء مهنة الطب لأن بعض الاطباء يسيؤون استعمال مهنتهم ، ولجاز لنا بأن نطالب بالغاء دور العلم لان بعض المعلمين يسيؤون استغلال العلم ، ان الحق حينما يقرر انما ينظر الى غلبة الخير فيه بالنسبة الى أكثر الناس ، ومهمة الدولة أن تقلل من اساءته على قدر ما يمكن •• وها هو الطلاق في أوروبا وأمريكا أبيح بعد منع فكم أسيء استعماله ؟ وكم جنى لسوء استعماله على الحياة العائلية في تلك البلاد ؟ وليس كل رجل يستعمل حق الطلاق يكون مثل هذا الزوج الذي تتحدث عنه ، والعلة في قصته من خلقه ورجولته قبل كل شيء ، فلو كان رجلا

كامل الرجولة لأبى أن يهدم صرح سعادته استجابة لرغبات الجاهلين من أقربائه ، ولو كان فيه بقية من خلق كريم لأبى أن يسمح باهانة أطفاله وفلذات كبده ارضاء لزوجته الجديدة القاسية الجاهلة .. ولو كان فيه بقية من دين لعلم أنه ظلم زوجته الأولى بطلاقها من غير مبرر ، وقد لعن الله الظالمين ، ولعدل بين أولاده وقد أمر الله بالعدل مع البعداء فكيف مع الأبناء والبنات ؟ ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضل بعض الأولاد على بعض في العطية والهبة ، جاءه أحد أصحابه يوماً ليشهده على أنه وهب أحد أولاده شيئاً مما يملك ، فسأله صلى الله عليه وسلم : أله أخوة ؟ قال : نعم ، قال : فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ قال: لا ، فقال صلى الله عليه وسلم : ليس يصلح هذا واني لا أشهد الا على حق [1] » .

هذا بالنسبة الى تفضيل بعضهم على بعض في الهبات والعطايا ، فكيف يجوز أن يمتهن بنتاً له ويعذبها ، ويدخل على نفسها الحسرة والألم ، ويشعرها بالذلة والمهانة وهي في أشد الحاجة الى بسمة من وجه كريم ، أو خفقة من قلب يفيض بالرحمة والحنان ، انه هنا مغضب لله ولرسوله بعيد عن رحمة الله ورضاه ..

وأما حضانة الأولاد في مثل هذه الحالة ، فالفقه الاسلامي يتسع للأخذ بكل ما فيه صيانة هؤلاء الأطفال من الضياع والتشرد..فالاجماع منعقد على أن الطفل ذكراً كان أو أنثى اذا كان دون السابعة من العمر فأمه أحق بكفالته من سائر الناس ، واختلف الفقهاء فيما بعد هذه السن، فعن مالك أن الأم أحق بالبنت حتى تتزوج وتدخل ، وذهب الشافعي وأحمد الى أن الولد يخير بين أبيه وأمه فان اختار أباه كان معه وان اختار أمه كان معها ، ومذهب الحنفية فيما روي عن أئمتهم أن الأم أحق بالبنت حتى تبلغ ، واختار المتأخرون منهم أن حضانة الأم تنتهي حين يكمل

---

(1) رواه البخاري ومسلم

الغلام السابعة وتكمل الفتاة التاسعة ، وفي قول حين يكمل الغلام التاسعة والفتاة الحادية عشرة ، وهذا ما أخذ به قانوننا الجديد للاحوال الشخصية اذ جعل من حق القاضي أن يأذن بحضانة المرأة للصغير الى تمام تسع سنين والصغيرة الى احدى عشرة [1]

وهكذا نرى أن من فقهاء الاسلام من جعل البنت في حضانة أمها حتى تبلغ وبعضهم حتى تتزوج ، وكان من الممكن أن يؤخذ بهذا القول لولا أن العمل قد جرى على ما نص عليه قانون الأحوال الشخصية ، ويخيل الي أن انتزاع البنت من حضانة أمها حين تبلغ تسعاً أو احدى عشرة هو من مصلحة الأم والبنت على السواء ، فأما الأم فان من الظلم لها أن تشغلها بنتها عن طلب الحياة الزوجية لها ، وكثير من الناس لايتزوج بامرأة اذا كان لها ولد أو أولاد في حضانتها ، فهذا من شأنه أن يفرغ الأم للنظر في شأنها الخاص أو أعمالها الخاصة بعد أن نمت بنتها وكادت تبلغ سن الزواج ، وأما الفتاة فان الشأن في الأب أن يحرص على رعايتها وتهذيبها وضمان مستقبلها ، وهو أقدر في ذلك من المرأة بحسب أوضاعنا الاجتماعية ، أما أن يظلم الأب فتاته ويعرضها للمهانة فهذا انحراف عن طبيعة الأبوة المستقيمة ، وقسوة لا يعهدها الحيوان بالنسبة الى أولاده ، فاذا انحط الأب عن مرتبة الحيوان كان ذلك مرضاً خاصاً به يعالج كما يعالج كل مريض ..

وهنا أريد أن أنبّه الى أن الاسلام لايقف مكتوف اليدين ازاء هذه القصة التي قصتها علينا المعلمة الفاضلة في رسالتها الينا .. فان الاسلام لم يجعل الأب صاحب الحق في حضانة البنت الكبيرة أو الولد الكبير من غير أن يراقبه في سلوكه وفي صلته بأولاده ، فاذا ثبت أن ولايته عليهم تضر بمصلحتهم وتؤذي كرامتهم في أخلاقهم أو معيشتهم أو مستقبلهم نزع منه هذه الولاية وأعطاها لغيره ممن يليه في حق الولاية.. وهذا مبدأ مسلّم به لدى الفقهاء قاطبة .. واذا كان الاسلام ينتزع ولاية

---

(١) المادة : ١٤٧ من قانون الاحوال الشخصية

الرجل على ماله اذا اساء استعماله ، أفلا ينتزع ولايته على أولاده اذا اساء اليهم ، والولد في المجتمع أعز وأغلى من المال ، والثروة الانسانية أعظم قيمة وأثراً من الثروة النقدية .. وهكذا يسلب الاسلام ولاية كل من أساء ولايته على مال أو ولد أو أرض أو مدرسة أو شعب . وفي قصة هذه الفتاة البائسة ان ثبت أنها تعاني هذا الشقاء الذي ألجأها الى التفكير في الانتحار يكون من حقها ومن حق أقربائها أن يرفعوا أمرها الى القضاء ويطلبوا سلب ولاية أبيها عنها ، وقد نص قانوننا الجديد للأحوال الشخصية على هذا الحق حين قال في الفقرة الثانية من المادة ١٤٦: «اذا ثبت ان الولي ولو أباً غير مأمون على الصغير أو الصغيرة يسلمان الى من يليه في الولاية » وهذا في رأيي نص صريح يحتم على القاضي حين يرفع اليه أمر هذه الفتاة البائسة أن ينقذها من هذا الأب الظالم، ويخلصها من حياة المهانة والشقاء ..

وبذلك نعلم أن نظام الاسلام في الحضانة نظام مستقيم عادل لم يترك ثغرة لتحكُّم الآباء والزوجات الجدد في الأطفال الصغار ، ولو طبق كما ينبغي لما وقعت فيه مثل هذه المآسي التي نراها من ظلم الأطفال واهمالهم ...

أما بعد .. فان قسوة القلب ، واهمال الواجب، وموت الضمير، كما يقع من بعض الآباء في مجتمعنا يقع في مجتمعات العالم كلها ، فنحن نقرأ كل يوم من ظلم الأزواج لزوجاتهم في اوروبا وامريكا حتى يصل الأمر الى الضرب والتعذيب والقتل ما نكاد نعتقد معه اننا أحسن حالا من أولئك في هذه الناحية .. وقل مثل ذلك في قسوة الآباء على الأبناء فانه ليقع كثيراً عند القوم في الغرب ما لا يكاد يقع مثله عندنا ، فمن الخطأ أن يحصر سبب ذلك في بلادنا بالزواج بامرأة ثانية ، واننا لنرى ممن لم يتزوجوا الا امرأة واحدة من يجورون على أولادهم ويعاملونهم بالقسوة

التي تعامل بها فتاتنا البائسة في حديثنا الليلة ، فالمرض اذاً ناشىء عن ضعف الوازع الخلقي والديني في نفوس أمثال هؤلاء المنحرفين عن سنن الطبيعة المستقيمة والخلق الكريم ، وليس كالدين في أثره في النفس الانسانية وحملها على القيام بالواجب ومعاملة الناس بالحسنى ، وامتلاء القلب بالحب والرحمة لا للأبناء والزوجات فحسب بل للبعداء ، بل للاعداء ، بل لغير بني الانسان من حيوان ونبات ..

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان امرأة تقوم الليل وتصوم النهار ولكنها تؤذي جيرانها ، فقال «هي في النار[1] » . أترون كيف كان ايذاء امرأة لجيرانها سبباً لدخولها النار دون ان تشفع لها صلاتها وعبادتها فكيف بمن يؤذي أولاده ، وكيف بمن يعرّض بنته للهوان والآلام ؟ . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان امرأة دخلت النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض [2] » . أترون الله يعذب انساناً لايلام قطة ثم لايعذب أباً لتعريض بنته للعار أو الجائها الى الانتحار ؟.

أيها المؤمنون .. اذكروا أن اولادكم قطعة من أكبادكم وأنكم مطالبون بصيانتهم من النار **« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً (٣) »** فكيف تدخلون النار بسببهم ؟. كيف تدخلون النار باهمالهم وعذابهم ومهانتهم وملء قلوبهم بالحسرات والآلام ؟..

ان رسولكم صلى الله عليه وسلم يقول : « ان خيركم خيركم لأهله[4] » . فهذا هو السبيل الى سعادة الدنيا ، وراحة القلب ، ورضا الله وجنات النعيم .

---

(١) رواه البخاري ومسلم (٢) رواه البخاري ومسلم واحمد
(٣) التحريم : الآية ٦ (٤) رواه ابن ماجه والحاكم

مشكلاتنا العائلية وأسبابها

أذيع مساء الخميس : ٣ من ذي القعدة ١٣٧٤
٢٣ من حزيران ١٩٥٥

ما أعتقد أن في الحياة سعادة تفوق سعادة الانسان في بيته ، ولا شقاء يعدل شقاءه مع أهله .. فمن كان في بيته سعيداً عاش مع الناس سعيداً ، ومن كان في بيته منغصاً يفقد الهدوء النفسي عاش مع الناس سيىء الخلق متبرماً بهم ، ضيق الصدر في معاملتهم .. واذا كان الغربيون يقولون في أعقاب كل جريمة « فتش عن المرأة » فان من الواجب أن نقول في أعقاب كل مشكلة اجتماعية وكل انحراف خلقي « فتش عن البيت » والمشكلات التي تنشأ عن اضطراب الحياة الزوجية كثيرة ، وكم أدت الى جرائم اجتماعية كبرى .. وليس اضطراب الحياة الزوجية مقصوراً على بيئة معينة ، ففي الأوساط المتعلمة قد تنشأ المشاكل كما تنشأ في الأوساط الجاهلة ، وفي الأوساط الغنية المترفة قد تفقد السعادة الزوجية كما تفقد في الأوساط الفقيرة .. وفي البيئات المتدينة المحافظة قد تقع الخصومات العائلية كما تقع في البيئات المتحللة .. وهو في الغرب كما في الشرق ، وعند المتمدنين كما عند المتأخرين .. انها مشكلة المجتمعات الانسانية في كل عصر .. غير أن هذه المشكلة تبدو واضحة الأثر كثيرة الظهور في البيئات التي ضعف فيها وازع الدين والخلق ، وأقصد بالدين ، الدين النيّر العميق في النفس ، لا الدين السطحي الذي يعتمد على المظاهر والشارات ، فكثيراً ما رأينا بعض المتدينين من أسوأ الناس معاملة لأزواجهم ، لأن الدين لم يكن عندهم ضابطاً مسيطراً على الأهواء والنزعات ، وانما هو

طقوس باهتة لا تسمو بروح ، ولا تزكي نفساً •• والأسباب التي تنشأ عنها المشاكل العائلية كثيرة متعددة سنقتصر على أكثرها انتشاراً ووقوعاً.

فمن ذلك تحكيم العاطفة أو المصلحة المادية عند اختيار الزوج أو الزوجة ، فكثيراً ما ينشأ الزواج عن حب عاطفي مشبوب لا يلبث أن يفتر بعد الزواج بأشهر قلائل ، وما يلبث أن يكتشف الزوجان أن بينهما بوناً شاسعاً في الأخلاق أو المزاج أو الثقافة أو الميول •• وكثيراً ما ينشأ الزواج عن الاعجاب بالجمال في الزوج أو الزوجة ، يعجب الشاب بجمال فتاة ، فيطلب الى أهله أن يخطبوها له ، ثم سرعان ما ينكشف له الجمال الجسمي عن قبح نفسي ودمامة خلقية .

وقد تعجب الفتاة بشاب وسيم الطلعة فتسرع الى اجابة طلبه ، ثم يشتد بها الأسى حين تكتشف فيه خلقاً سيئاً أو طبعاً دنيئاً •• وكثيراً ما ينشأ الزواج عن طمع في الثروة •• فهذا خاطب ذو وظيفة أو دخل كبير أو غني كبير •• أولى في نظرنا من خاطب ليست له ثروة واسعة أو ليس له أب غني •• وكثيراً ما يكون مع الغني المفرط الفساد المتلف ، وأقبح ما يكون الزواج في مثل هذه الحالة أن تزف الفتاة لم تبلغ العشرين الى الشيخ العجوز الذي جاوز الستين •• وما يحدو بأهل الفتاة الى تزويج فتاتهم منه الا الطمع في ثروته الكبيرة أو أراضيه الواسعة •• وما يدري هؤلاء أنهم جنوا على فتاتهم جناية أبشع من القتل ، فالقتيل يذوق مرارة الموت لحظات ثم يرتاح •• وهذه الفتاة المسكينة تذوق مرارة الشقاء كل لحظة •• ان الله شرع الزواج لسكن النفس ، فكيف تسكن نفس الفتاة في أول تفتحها للحياة الى نفس ودعت الحياة واستقبلت الموت ؟ ولقد أحسن قانوننا الجديد للاحوال الشخصية حين أعطى القاضي الحق في أن لا يوافق على الزواج اذا كان الخاطبان غير متناسبين سناً .

ومن أسباب المشاكل العائلية سوء فهم كل من الزوجين لطباع الآخر •• فقد يكون الزوج حاد المزاج شديد الاحساس يتأثر لأقل الأشياء التي

يراها مخالفة لذوقه ، فلا تراعي زوجه فيه هذا .. فتضحك وهو غضبان ، وتعرض عنه وهو يوجه اليها الخطاب ، ويتكلم الكلمة فتجيبه عليها بعشر كلمات .. فما هي الا أن تثور العاصفة وينفجر البركان .. وقد تعجب الزوجة باللون الأحمر من الثياب فيجبرها الزوج على أن تلبس الأبيض مثلاً ، وقد تحب شرب اللبن وهو لايميل اليه ، فيجبرها على أن تترك ما تميل اليه الى ما يميل هو اليه .. فما تلبث الزوجة أن تشعر بالانقباض ، ثم ينقلب الانقباض الى تبرم ، ثم يؤدي التبرم الى النزاع لأقل سبب ..

ومن أسباب المشاكل العائلية عدم تقدير الزوجة لأعباء زوجها وواجباتها الاجتماعية ، فقد يكون الزوج سياسياً من واجبه أن يجتمع الى الناس ويستقبلهم .. وقد يكون عالماً أو أستاذاً من واجبه أن يقرأ ويكتب ، فتضيق زوجه بالاجتماعات العامة ، وتتبرم من قراءاته وكتاباته ، بل تتبرم من كتبه وتتأفف منه حين تراه يدخل البيت وفي يده كتاب جديد .. ولقد كانت زوجة الامام الزهري تتبرم منه حين تراه منكباً على كتبه وتقول له : « والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر » . ولئن كان من حق الزوجة أن يخصص لها وقتاً ليؤنسها ويأنس بها ، فليس من حقها أن تنكر عليه تفرغه لواجبه الاجتماعي أو العلمي ، أو أن تظهر السخط على عمل يرتاح اليه ضميره وتطمئن اليه نفسه ..

ومن أسباب المشاكل الاجتماعية تدخل الزوج في الشؤون البيتية أكثر مما ينبغي ، وكم من رجل فارغ من العمل يقف مع زوجته في المطبخ فيقول لها : الماء الذي وضعتيه قليل .. أكثري من الملح .. خففي النار .. حركي الطعام .. وهكذا تضيق زوجته بفضوله ، فما تلبث يوماً بعد يوم أن تنفجر وتثور .. واذا كان من حق الزوج أن يبدي رغبته في الطعام الذي يأكله فليس من حقه أن ينصب نفسه طاهياً يعلّم امرأته أصول الطهي كل يوم ..

ومن أسباب المشاكل العائلية عدم مراعاة الزوجة لأوضاع زوجها

المالية •• فهي تريد أن تلبس كما تلبس صديقتها تلك ، وتريد أن تستكثر من الزينة أو أثاث البيت كما استكثر فلان من أثاث بيته وزينته •• دون أن تلاحظ الفرق بين ثروة زوجها وزوج صديقتها أو جارتها •• وما أكثر المناسبات عندنا لشراء الثيــاب •• فكلما تزوج قريب للمرأة وجب أن تخيط لعرسه ثوباً جديداً تلبسه فيه ، وكلما تغيرت الأزياء وجب أن تتغير الثياب •• وهكذا يرهق الزوج في ميزانيته ، ويضطر الى أحد أمرين : اما أن يستدين ويرهق نفسه نزولاً عند رغبة زوجته ، واما أن يتحمل الخصام والخلاف بينه وبينها ليحافظ على ميزانيته وكرامته بين الناس •• وأنا لا أنكر أن بعض الأزواج يبخلون بالانفاق على زوجاتهم مع القدرة•• ولست أتكلم في مثل هؤلاء ، فقد أعطى الاسلام الحق للمرأة التي يمتنع زوجها عن الانفاق عليها بما تحتاج اليه من ثياب وطعام يليق بها وهو قادر على ذلك أن تأخذ من ماله بغير اذنه ، فقد جاءت امرأة أبي سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو اليه زوجها وتقول له ان أبا سفيان شحيح لا يعطيني ما يكفيني وأولادي ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : « خذي من مال زوجك ما يكفيك وولدك بالمعروف [1] » • وهذا كما قلنا في النفقات الضرورية التي يمتنع الزوج عنها شحاً وبخلاً •• أما اذا كان امتناعه عن الانفاق فيما يكون سرفاً وتبذيراً ، أو فيما فيه ارهاق له بما لا يحتمله،فليس من حق الزوجة أن تعرّضه وتعرّض بيتها للفقر والضيق•

ومن أسباب المشاكل العائلية •• سوء الظن •• فقد يسوء الرجل بزوجته ظناً في أماناتها المالية ، ويتهمها بأنها تسرق من جيبه بعض نقوده وهو نائم ، فاذا عد بعض دراهمه يوماً فوجدها ناقصة بادر الى اتهام زوجته قبل كل شيء من غير تحقيق ولا تثبّت ، فينشب النزاع ويتعالى الصراخ ، ثم ما يلبث الزوج أن يتذكر أنه كان قد اشترى شيئاً قبل قدومه للبيت ، أو دفع ديناً أو أقرض انساناً أو أعطى بعض أولاده نقوداً ، وهذا

---

(١) رواه الستة الا الترمذي

أمر يقع كثيراً ، وأنا لا أنكر أن بعض النساء يفعلنه بغير حق •• وقد سمعت أن احدى المتصديات للوعظ والارشاد وهي جاهلة بالدين ، كانت تقول لمن يحضر حلقات درسها من النساء : ان المرأة اذا سرقت من جيب زوجها أو ابنها تبسمت الملائكة سروراً •• وهذا جهل بالدين وافتراء على الله ، وتشجيع على ما يؤدي الى النزاع والخصام بين الزوج والزوجة ، وقد يسيء الرجل ظناً بزوجته في حشمتها أو مشيها في الطريق أو نظرها من النافذة ، فيتهمها بما يسيء الى كرامتها وسمعتها وهي بريئة محتشمة عفيفة ، ولكن الشيطان يسوّل لبعض النفوس الجاهلة أن تشتد في الغيرة أكثر مما أمر الله •• وكثيراً ما وقعت جرائم قتل وطلاق من سوءظن لا يلبث بعد التحقيق أن يتبين خطؤه •

ومن أكبر أسباب المشاكل العائلية سوء خلق الزوجة ، فيثور أحدهما لأقل سبب ويغضب لأقل كلمة •• واني لأعرف من اشترى مرة قطعة من القماش وأتى بها الى بيته ، وأفهم امرأته أنه اشتراها ليخيطها لنفسه ، وجاء في اليوم الثاني يسألها عن القماش فمازحته زوجته بأنها خاطتها لنفسها وهي لم تفعل ذلك وانما أرادت مداعبته ، فما كان منه الا أن فتح خزانتها وكانت حديثة عهد بالزواج منه وأخذ يلقي بثيابها الجديدة في بركة الماء حتى لم يبق لها ثوباً ، ولم يكتف بذلك بل أخذ يفتش عن جواربها ليمزقها بالمقص ، ودهشت المرأة وأسرعت فأخرجت له قطعة القماش كما هي وأرته أنها كانت تمازحه ، فندم الأحمق ولكن بعد أن أتلف ماله ومال زوجته •• وكم ثارت في البيوت مشاكل من ضيق الصدر وسوء الخلق ! وكم انهارت بيوت لحمق الزوج أو الزوجة يضيق أحدهما ذرعاً بكلمة قد تبدر من الآخر فلا يجد لها مخرجاً حسناً ، ويخيل له سوء الخلق أن كرامته أهينت أبلغ الاهانة ، وأنه لا يمكن أن يحتمل هذه الاهانة •• وأنا أشهد أن الأزواج أكثر تجنياً في ذلك من الزوجات ، فالمرأة تتحمل من زوجها غالباً أكثر مما يتحمل زوجها منها لغروره وشعوره

بسلطته وقوته •• اللهم في حالات تكون فيها بعض الزوجات سليطة اللسان شرسة الخلق ، فان الزوج مهما كان حليماً لا بد من أن تخرجه عن حلمه وسماحته بلسانها الطويل ولفظها القبيح •• ويا ويل من كانت زوجته أقوى منه جسماً وأطول منه لساناً •

أيها المستمعون والمستمعات ••

هذه بعض أسباب مشاكلنا العائلية •• لم أسردها كلها وقد تركت منها ما نعرفه جميعاً كمشكلة الكنّة والحماة ، ومشكلة الزوجة والأخوات، فانها تشكل ثمانين بالمائة من مشاكلنا العائلية •• وهذه الأسباب كلها كان من الحكمة أن تتداركها اذا تذكرنا الحقائق التالية :

الأولى ــ اننا ننظر الى الحياة الزوجية بمنظار مادي فنحن نعتبر الزواج الموفق هو الذي توفر فيه الجمال أو الجاه أو الثروة ، وهي مقاييس قد يكون معها السعادة ولكنها وحدها لا تعطي السعادة ، ثم هي لا دوام لها ، فالجمال يذبل ، والجاه قد يزول ، والثروة قد تتبدد، وما بني على ما يتغير ويتبدل فهو معرض للزوال ، والخير أن ننظر الى الحياة الزوجية بمنظار معنوي روحي قبل كل شيء ، أي أن نجعل أساس الاختيار في الزوج أو الزوجة ما يبقى فيهما لا ما يتبدل ، وما يقوى مع الزمن لا ما يضعف ويفنى •• ذلك هو الدين والخلق •• ان المتدين عن عقيدة واقتناع وتربية لن يكون في البيت ــ زوجاً أو زوجة ــ الا ريحانة مملوءة بالحب والسلام •• وان صاحب الخلق الكريم الأصيل لن يكون في البيت ــ أماً أو أباً ــ الا دوحة مثمرة تجني منها الأسرة أطيب الثمار : أبناء صالحين وعملاً اجتماعياً كريماً •• وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضع لنا أسس الحياة الزوجية التي تدوم سعادتها وتثمر أزهارها بقوله : « لا تزوّجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أنْ يرديهن، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن •• ولكن تزوجوهن

على الدين [1] » وبقوله أيضاً : « اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة وفساد كبير [2] » .

الثانية ــ أننا كشعب متدين يأمره دينه بحسن الخلق يجب أن نكون من أحسن الناس أخلاقاً مع أزواجنا وزوجاتنا .. يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً الرجال : « **وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً [3]** » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيرُكم خيركم لأهله [4] » ولست أرى أقبح من رجل يتزين للناس ببشاشة الوجه وحلاوة اللسان حتى اذا انقلب الى أهله بدا فظاً غليظاً عابس الوجه ثقيل الظل .. وكذلك المرأة تتزين للزائرات وتحسن لهن الكلام واللقاء ، ثم تكون مع زوجها سيئة اللقاء والكلام والمعاملة .. وكما تثير الكلمة السيئة عواصف من الشر توجد الكلمة الطيبة أجواء من الحب والسعادة

الثالثة ــ اننا ننسى التكافل العائلي بين الزوج والزوجة .. فالزواج قد ربط مصير الزوجين في غالب الأمر حتى نهاية الحياة ، فما يصيب أحدهما من ضيق أو عسر أو مهانة يصيب الآخر .. فاذا لم يذكر الزوج الا نفسه ولم تذكر الزوجة الا نفسها ، فقد أذهبا هذا الرباط المقدس وجعلا نفسيهما كشريكين همّ كل واحد منهما أن يربح على حساب الآخر ! وانه لشقاء ما بعده شقاء .. لقد كان من عادة نساء السلف اذا خرج الرجل من منزله أن تقول له زوجه أو بنته : اياك وكسب الحرام ، فانّا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار .. ومما أخرجه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه قالت : تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا شيء غير فرسه وناضحه أي بعيره فكنت أعلف فرسه وأسوسه وأدق النوى لبعيره وأستقي الماء وأخرز غربه (أي أضبط دلوه)

---

(١) رواه ابن ماجه (٢) رواه الترمذي ، ورواه الديلمي في الفردوس بلفظ « اذا جاء الأكفاء فانكحوهن » (٣) النساء : الآية ١٨ (٤) رواه ابن ماجه والحاكم .

وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ (أي مسافة ساعة تقريباً) حتى أرسل الي أبو بكر بخادم يكفيني سياسة الفرس فكأنما أعتقني .. وكان نساء السلف الصالح يشجعن أزواجهن على الجهاد ويصحبن معهن أولادهن في المعارك فيجد الأزواج والأبناء فيهن خير معين على القيام بالواجب والنشاط فيه .. لما نزل قول الله تبارك وتعالى : ((**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له**)) قال أبو الدحداح الأنصاري يارسول الله وان الله ليريد منا أن نقرضه ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناوله الرسول يده فقال له أبو الدحداح : اشهد يا رسول الله أني قد أقرضت ربي حائطي (أي بستاني) وكان له بستان فيه ستمائة نخلة وفي البستان زوجته أم الدحداح وأولاده يسكنونه ، ثم جاء الى البستان فنادى زوجته : يا أم الدحداح قالت : لبيك ، قال : اخرجي أنت وأولادك فقد أقرضت الله بستاني .. فما أعولت زوجته ولا عنفته ولا صرخت في وجهه ولكن استبشرت وقالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ثم نقلت متاعها وصبيانها .. هكذا يعيش الأزواج سعداء حين يعين كل منهما الآخر على الحياة وواجباتها .

والحقيقة الأخيرة التي يجب أن تتذكرها أزواجاً وزوجات .. أن الحياة والصحة والسعادة أثمن من أن تضيع في الخصام والنزاع .. وأن ما ينفقه أحدنا من صحته ووقته وراحته وهدوء أعصابه حين يثور في البيت ويغضب ، هو أغلى وأثمن من المال الذي يغضب له ، أو الكرامة التي يثور لها ، أو الخلل الذي يريد أن يصلحه .. وخصوصاً اذا كان في البيت أولاد صغار يتأثرون بما يشاهدون من خلق الأب أو الأم ، وينشأون على ما ينشأ عليه الآباء والأمهات من خلق حسن أو ذميم .

أيها الأزواج .. أيها الزوجات ..

ان السعادة في الحياة هي كل ما في الحياة ، فالتمسوا أسباب السعادة في أنفسكم وفي بيوتكم قبل أن تلتمسوها في الأسواق أو الشوارع أو المدارس أو المنتديات .

بناتنا في البيوت

أذيع مساء الخميس : ١٠ من ذي القعدة ١٣٧٤
٣٠ من حزيران ١٩٥٥

تلقيت رسالة من فتاة في دمشق تقص علي قصتها مع بعض اخوتها في البيت ، فهي على ما يشملها أبواها من رعاية وحنان ، وعلى ما تلقاه من أخويها الكبيرين من حسن معاملة ، يعاملها أخوتها الآخرون بالقسوة والغلظة ، يمتهنونها امتهان الخادم ، وينتهرونها انتهار السيد لعبده المذنب ، وياويلها ان أراد أحدهم تناول الغداء فتأخرت في تحضير المائدة ، أو قدمت له ما لا يستلذه من أنواع الطعام ، هنالك ينفجر كالبركان ، ويغمرها بالشتائم والسباب ، وقد يحطم الأطباق ، ويكسر أبواب الغرفة ، ويمزق ما يلقاه في طريقه من ثياب وأثاث ، ثم يخرج ساخطاً حانقاً ويستمر في هجرها أياماً أو شهوراً ، هذا وهو يبدو لأصدقائه ولمعارفه من ألطف الناس عشرة وأكثرهم أدباً وأرقهم شمائل وخلقاً .. ثم تقول الفتاة في ختام رسالتها : هل لك يا سيدي الأستاذ أن تفهم مثل هؤلاء الأهل أننا بشر لنا عواطفنا واحساساتنا ، وأننا نتأثر بالكلمة الطيبة كما ننفعل للكلمة القاسية .. وأننا لسنا خادمات ولا أجيرات بل بشر لنا كرامتنا في الحياة ..

ومنذ يومين ألقت فتاة في ريعان الصبا بنفسها تحت عجلات القطار فمزقها أشلاء متناثرة ! وقيل في أسباب ذلك : انها أرادت أن تتخلص من شقاء فرضه عليها أهلها حين أجبروها على الزواج بمن تكره ..

وفي الحق أن ما تلقاه تلك الفتاة من قسوة اخوتها ، وما لقيته المنتحرة

من ظلم أهلها يقع كثيراً في بيوتنا ، فنحن في الكثير الغالب وخاصة في الأوساط الجاهلة أو الفقيرة لا نزال نعامل بناتنا في البيوت معاملة القسوة والاهمال والامتهان .. تقذف البنت من أرحام الأمهات الى الحياة ، فنستقبلها بالتجهم والعبوس ، واذا كانت ثالثة أخواتها أو رابعتهن ، كانت ولادتها مصيبة تجزع لها قلب الأم ، اذ هي تخشى ألم الأب واستياءه ! ولقد لقيت ذات ليلة امرأة تبكي ساعة ولادة ابنتها فسألتها عن سر البكاء وهي في ساعة فرح وسرور ! فقالت .. هذه هي المولودة الرابعة لابنتي ، وأخشى أن يكرهها زوجها فيطلقها ! واذا نشأت الطفلة في البيت كانت أول ما تسمع كلمات الدعاء عليها بالموت ونحن نمازحها ونداعبها ، فاذا طلبت شيئاً وألحت في طلبه ، ازدريناها وأفهمناها أنها أرخص من أن تعطى ما تطلب ، فاذا اختصمت مع أخيها الصبي فضربته ، ضربناها وصرخنا في وجهها وأرينا أخاها كيف نبالغ في الانتصار له عليها ليطمئن ويرضى .. فاذا كبرت عاملناها كالخادم ، فعليها أن تقوم بطهي الطعام وغسيل الثياب وتنظيف المنزل ، نأمرها كما نأمر الخادم المهين . ثم نضن عليها بكلمة تشجيع أو ثناء ، وبابتسامة رضا أو حب .. فاذا بلغت سن الزواج نقطع الأمر دونها فنرد ونقبل ونأخذ ونعطي ، ونشرط من الشروط ما نشاء ، ونطلب من المهر ما نريد ، لا يؤخذ لها رأي ولا يعرض عليها ما يراد لها .. فاذا رضي الأبوان بالزوج الخاطب ، زفت اليه مكرهة أو ساخطة ، ويا ويلها ان أبدت رأيها بالاعراض ، أو لوحت بالانتقاد ، انها حينئذ الفتاة الوقحة السيئة الأدب، التي لم يبق عندها خلق ولا يرتجى منها خير ! .

ان النتيجة الطبيعية لهذه المعاملة سيئة بالغة الخطورة في المجتمع . فهي أولاً تغرس في نفس البنت شعوراً بالمهانة والضعف ، حتى اذا أصبحت أماً لم يكن في استطاعتها أن تبث في نفوس أبنائها الشعور

بالعزة والاعتداد بالكرامة ، وكيف تفعل ذلك وهي تفقد في نفسها هذه المعاني ولا تجد لها ظلاً ؟

وهي ثانياً تشعر الفتاة بأنها مظلومة مهضومة الحق ، والشعور بالظلم مع الضعف والمهانة يولد الحقد والرغبة في الانتقام ، وليس أسوأ خطراً ولا أشد انحداراً للمجتمع من أن تبنى بيوته على الحقد والميل الى الثأر ! وليس أمامها من تثأر منه وتنتقم الا زوجها وأولادها ، ومن ثم يبدأ النزاع ، ويكون الخصام ، ويفقد الحب ، وتقع المشاكل التي لا تنتهي .

وهي ثالثاً تحمل الفتاة من حيث لا تشعر على الجموح في سلوكها ، والخروج على آداب المجتمع وتقاليده ، والتبرم بحياة البيت وعاداته .. فان أحيطت بجو قاس ورزقت تديناً وحياءً من المجتمع ، كبتت احساسها وشعورها ، وعاشت مريضة في جسمها أو نفسيتها .. وان وجدت مجالاً ولو ضيقاً لنسيم الحرية خارج بيتها ، انفلتت ثم انتهت الى أحد أمرين : اما العار واما الانتحار ..

هذا هو الأثر المحقق لسوء معاملة البنت في البيت ، وبذلك يسهل علينا الاحاطة بأسباب هذه الجرائم الكثيرة التي أخذت تتزايد يوماً بعد يوم ، وليس يجدينا أن نرفع أصواتنا بالشكوى ، وأن يندد الكتاب والخطباء والعلماء بهذا الوضع المؤلم ، بل لا بد من أن نعالجه معالجة جذرية تقضي على المرض من أساسه ..

ولا شك في أن الاسلام قد وضع النظام الصالح لايجاد جيل من الفتيات ، يبنين المجتمع ولا يهدمنه ، ويؤسسن الأسرة ولا يهربن منها ، وينشرن الخير والحب ، ولا يتمادين في الشر والبغض ..

لقد وضع الاسلام أساسه التربوي الصالح للبنات ، على انكار عادة التشاؤم بولادتهن كما كان يفعل عرب الجاهلية وكما نفعل اليوم ، فلِمَ

تتشاءم من الفتاة ؟ ما ذنبها ؟ ما ضررها اذا أحسنت تربيتها ؟ ولمـاذا يكون الفتى دائماً خيراً منها ؟ •• ومتى كانت البنات كلهن شؤماً وكان الصبيان كلهم خيراً ؟ والبنت اذا ولدت ماذا يرد من المصيبة بها ـ لو كانت مصيبة ـ الجزع منها أو اظهار الامتهان لها ؟ ان التشاؤم سفه وحمق ومعاندة لله في خلقه من حيث لا يملك أقوى انسان أن يرد قضاء الله في ولادة البنات • ((**واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ١**)) •

ومتى كان الأمر كذلك كان السبيل الصحيح ـ في نظر الاسلام ـ أن تستقبل البنت حين الولادة بالبشر ، وأن تشعر الزوجة من زوجها أنها لم تأت بأمر ينفر منه ، وأن يشعرها الزوج بفرحه بولادتها وسلامتها ، حتى تنتقل الطمأنينة من نفس الأم الى نفس البنت ، وتقبل الأم على فتاتها حانية رفيقة محبة •• فاذا درجت البنت على الأرض ، وبدأت تفهم ما حولها ، شعرت بجو من الحب والكرامة تزداد له فهماً كلما تقدمت بها الحياة •• فليداعبها الأب ، ولتضمها الأم ، وليضحك لها الاخوة ، فان من شأن ذلك أن يحبب اليها الحياة والبيت والأسرة ، وأن يشعرها بقيمتها ومكانتها في نفوس أبويها وأخوتها •• أخرج البخاري عن أبي قتادة قال : بينا نحن على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع ، وأمهـا زينب بنت رسول الله صلى الله عليـه وسلم وهي صبية فصلى وهي على عاتقه ، يضعها اذا ركع ويعيدها على عاتقه اذا قام ، حتى قضى صلاته ••

هكذا ينبغي أن يكون الأب مع البنت حتى في العبادة بين يدي الله عز وجل ، وكانت فاطمة بنت الرسول اذا دخلت على أبيها رحب بهـا

---

(١) النحل : الآية ٥٨ ـ ٥٩

وقام اليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه [1] .

ومن اكرامها أن لا تشعرها بتفضيل أخيها الصبي عليها ، بل استحب الاسلام أن تفضلها على أخيها في الهدايا ، لتزول من نفسها كل معنى من معاني الشعور بالغبن أو الضعف أمام أخيها .. يقول عليه السلام : « من خرج الى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئاً فحمله الى بيته فخص به الاناث دون الذكور نظر الله اليه ومن نظر الله اليه لم يعذبه [2] » أما العناية بتأديبها وتعليمها فلقد حث عليه الاسلام بما لا مزيد عليه حين قال عليه السلام : « من كانت له ثلاث بنات يؤدبهن ويكفيهن ويرحمهن فقد وجبت له الجنة . قيل يارسول الله وان كانت له بنتان ؟ قال وان كانت له بنتان . قيل وان كانت له بنت واحدة ؟ قال : وان كانت لـه بنت واحدة .. [3] » وهو في كل ذلك ينفق عليها برضى وطيب نفس ، لا يبخل عليها بما تحتاج اليه ، ولا يمن عليها بما ينفق . حدثت عائشة أم المؤمنين قالت : جاءت امرأة معها ابنتان فلم أجد ما أعطيها غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت ، فدخل الرسول بعد ذلك فحدثته فقال : « من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن كن له ستراً من النار .. [4] » .

ويذهب الاسلام بعد ذلك الى كراهة الاساءة اليها وضربها واساءة معاملتها .. كان لعبد الله بن رواحة جارية تتعاهد غنمه فعدا ذئب عليها فأكل واحدة منها ، فضربها عبد الله على وجهها ثم ندم ، فأخبر الرسول بما فعل ، فغضب الرسول غضباً شديداً حتى احمر وجهه وهاب أصحابه أن يكلموه وقال لعبد الله : ضربت وجه مؤمنة ؟ وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب ؟ وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب ؟ ومـا زال يكرر ذلك [5] ..

---

(١) رواه ابو داود والحاكم والبخاري في الأدب المفرد (٢) رواه الخرائطي
(٣) رواه احمد والحاكم والطبراني وأبو داود بألفاظ متقاربة
(٤) رواه البخاري ومسلم (٥) جامع مسانيد أبي حنيفة : ٢ — ١٦٢

هكذا يحيط الاسلام الفتـاة في البيت بجو من الحب والاكرام والصفح عن الاساءة والتعهد بالتربية والرعاية حتى اذا شارفت سن الزواج نهى أن يفتات الأب عليها في اختيار الزوج ، وأمر بأن يؤخـذ رأيها فيه واعتبر سكوتها حياء دليل الرضا .. « واذنها صماتها أي سكوتها[1] » .. ومذهب أبي حنيفة أن البنت البالغة العاقلة لا ينفـذ زواج أبيها لها الا اذا رضيت .. قالت الخنساء بنت خذام : ان أبي زوجني من ابن أخيه وأنا لذلك كارهة فشكوت ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : أجيزي ما صنع أبوك ، فقلت : ما لي رغبة فيما صنع أبي ، فقال : اذهبي فلا نكاح له ، انكحي من شئت .. فقلت قد أجزت ما صنع أبي ، ولكني أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من أمور بناتهم شيء ، فلم ينكر عليها الرسول مقالتها[2] .. « وكانت بريرة جارية لعتبة ابن أبي لهب ، فزوجها عبداً ما كانت لترضاه لو كان أمرها اليها ، وشكت أمرها الى عائشة فاشترتها واعتقتها ، وقال لها الرسول : ملكت نفسك فاختاري (أي أنت حرة) وقد بنْت من زوجك فاختاري من تشائين فتركت زوجها وكان يحبها حباً جماً حتى كان يمشي خلفها ويبكي وهي تأباه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له ؟ ثم قال: اتقي الله فانه زوجك وأبو ولدك، فقالت: أتأمرني؟ فقال : لا ، انما أنا شافع .. فقالت : اذاً فلا حاجة لي اليه[3] » ولعل من أروع ما يؤثر في هذا الباب ـ باب اكراه الفتيـات على الزواج بمن لا يحببن ـ ما وقع من عبد الله بن جعفر سيد الأسخياء في عصره .. أصابته ضائقة شديدة وله بنت طلبها الحجاج بن يوسف فزوجها عبد الله منه وهي كارهة وما أغراه بهذا الزواج الا ما دفع الحجاج من مهر بلغ ألف ألف درهم (أي مليون درهم) فلما زفت اليه بكت ، فقال لها

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي (٢) المبسوط : ٢/٥ (٣) المبسوط : ٩٩/٥

الحجاج لم تبكين ؟ قالت أبكي من شرف اتضع ومن ضعة شرفت ، تعني بذلك شرفها ونسبها بالنسبة الى شرف الحجاج وسيرته ، حتى اذا علم عبد الملك بن مروان بأمرها كتب الى الحجاج بطلاقها فقال لها الحجاج : ان أمير المؤمنين كتب الي بطلاقك ، فقالت : هو والله أبر بي من أبي الذي زوجني منك ..

هكذا يحول الاسلام دون عسف الآباء في التحكم بمصائر بناتهن ومستقبلهن ، ولقد ذهب بعض الأئمة الى بطلان زواج الأب أو الجد لبنته الصغيرة أو ولده الصغير . وهذا ما ذهب اليه قانوننا الجديد للاحوال الشخصية ، وجعل من حق القاضي أن يأذن في زواج الفتى اذا بلغ خمسة عشر عاماً والفتاة ثلاثة عشر عاماً ، على أن يقترن ذلك بموافقة الأب أو الجد .. ومتى أتمت الفتاة السابعة عشرة وأرادت الزواج طلب القاضي من وليها بيان رأيه خلال مدة يحددها له ، فاذا لم يعترض أو كان اعتراضه غير جدير بالاعتبار ، أذن القاضي بزواجها بشرط الكفاءة .. وبهذا يصان مستقبل الفتاة من العبث ، وتصان كرامة العائلة من الأذى .. ولو أن هذه الفتاة التي انتحرت تحت عجلة القطار تخلصاً من زوجها الذي أراد أهلها أن يكرهوها عليه ، رفعت أمرها الى القضاء لأنصفها القاضي وحال بينها وبين الكارثة ..

وبعد فنحن لا ننكر أن بعض الفتيات يسرفن في طلب الحرية اندفاعاً مع الهوى والعاطفة ، وأن منهن من يخترن أزواجهن بتأثير حب جارف وغرام مشبوب ، وكثيراً ما تعقب مثل هذا الزواج الحسرة والندم ، ونحن لا ننكر أن القانون وحده لا يحمي الفتاة من عبث أبويها ، فأية فتاة تجرؤ على أن تشكو أبويها الى القضاء في مجتمع كمجتمعنا الا أن تنتظر الموت يغتالها فجأة بسكين أو فأس تهوي على رأسها ؟ ..

نعم لا ننكر هذا ولا ذاك ، ومن أجل ذلك نعتقد أن العلاج الوحيد

لظلم الفتاة في بيتها وانحراف الفتاة في سيرتها ، هو أن تنشىء الفتاة منذ الصغر على الدين والفضيلة ، وأن يغرس ذلك في نفسها غرساً بالاقناع والتربية لا أن تحمل عليه حملاً بالاكراه والاضطهاد ..

ان القسوة لا تربي في الفتاة حصانة ولا تزينها بفضيلة .. وهبك ضربت فتاتك في البيت أو أكرهتها على العبادة .. فمن الذي يضمن لك أن لاتنحرف حين تخرج .. ان كانت في المدرسة أو كانت في السوق أو كانت في الشارع ؟ .. ونحن نعلم فتيات يخرجن من بيوتهن أمام آبائهن وأمهاتهن بأكمل حشمة ، حتى اذا ابتعدن عن البيت خلعن لباسهن وبدون للأعين كأتم ما يكنّ زينة وفتنة واغراء ! .

ان السبيل أيها الناس لاستقامة فتياتكم وسعادتهن زوجات وأمهات .. أن يقتنعن لا أنتم بأن مستقبلهن ومستقبل الوطن بأيديهن .. وأن يشعرن في قرارة أنفسهن بأنهن مسؤولات أمام الله عن أعمالهن وسلوكهن . أما الضرب بالعصى والغلظة في القول والاجبار على الزواج بمن تشاؤون لا بمن يشأن ، فلن يكون من ورائه الا العار أو الانتحار أو النار ..

والسبيل الى اقناع فتياتكم بهذا ليس العلم في المدرسة فحسب ، ولا قراءة الكتب فحسب ، فذلك قد يفيد وقد لا يفيد ، ولكن السبيل المضمون الى ذلك أن تغرسوا في قلوبهن حب الله وخوفه والرغبة في ثوابه والرهبة من عذابه ، وقلب المرأة أسرع الى التأثر بالدين وتعاليمه من الرجل .. وهي أرق شعوراً وأكثر احساساً وأقوى عاطفة وأعمق تديناً . ولقد جربت بنفسي أثر الدين في الفتيات والفتيان اذ كان الدرس الذي القيه على طالباتي في المدارس الثانوية فتسيل له عبراتهن ، لا يعدو عند طلابي من أن يهز مشاعرهم هزاً رقيقاً ..

وأنتن يا أخواتي الفتيات •• اذا شكوتن ظلم آبائكن وامتهان أخوانكن ، فالجأن الى الاسلام ينصفكن من الظلم والمهانة •• الجأن الى دين آبائكن واخوتكن ، الجأن الى قلوبهم ، الى ضمائرهم ، الجأن الى تذكيرهم بما فرض الله عليهم من رعايتكن واكرامكن واحترامكن•• فان لم ينفعكن دينهم في رفع الظلامة عنكن ، فلن ينفعكن التمرد على المجتمع ، ولا الانفلات وراء الحرية القاتلة •• لن تجنين من ذلك الا الشقاء والحرمان والتشرد ، ثم العار الذي ينتهي الى النار ، ونعوذ بالله من أمرين أحلاهما مر •

أزواجنا في البيوت

وفيه بيان لحقوق الزوج على زوجته

أذيع مساء الخميس : ١٧ من ذي القعدة ١٣٧٤
٧ من تمــوز ١٩٥٥

من قدر له أن يحيط بوضع الأسرة في مجتمعنا ، وما تعانيــه من مشكلات نفسية وخلقية واجتماعية ، ويقف على ما يقدم الى محاكمنا الشرعية والمذهبية والملية من دعاوى الخصومة الزوجية ، أيقن أننا في أشد الحاجة الى اصلاح اجتماعي يهتم قبل كل شيء بوضع العــائلة والعلاقات بين أفرادها ، فاضطراب الحياة الزوجية عامل كبير من عوامل اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية العامة ، ونعتقد أن هــذه المشكلة ليست قائمة في مجتمعنا فحسب ، بل هي في مجتمعات الشعوب كلها ، كما نعتقد أيضاً أن هذه المشكلة ناشئة عن الغموض والفوضى في الحقوق والواجبات بين الزوج والزوجة ، فلو استقام الأمر بينهما على حب روحي كريم ، وعلى حق واضح صريح يعرفه كل واحد منهما ، ويطبقه على نفسه ، ويطالب به نفسه قبل أن يطالب به الآخر ، لارتفع المستوى الاجتماعي في البيت الى حيث تنعم الأسرة كلها بالأمن والسعادة والاستقرار .

ويوم كانت أمتنا تقود ركب الانسانية الى الخير ، وتحمل مشعل الهداية الى الشعوب ، كانت في داخل بيوتها تنعم بما لا يعرف له التاريخ مثيلاً ، من استقرار السعادة الزوجية ، وشمول الطمأنينة والحب والتعاون لجميع أفرادها ، ذلك أن الاسلام وضع لكل من الزوجة والزوج والآباء والأبناء ، حدوداً واضحة يتميز فيها حق كل فئة عن حق الفئة الأخرى ،

وهي حقوق متكافئة منسجمة تؤدي الى ملء القلوب بالحب ، وملء البيوت بالنعيم ، وملء المجتمع بالنسل الصالح الذي يبني ولا يهدم ، ويسمو ولا ينحدر ٠

وهذه الحقوق أقامها الاسلام على دعامتين من العدل والحب ، لا ينبع خير في الحياة الا منهما ، ولا يستقيم شأن في المجتمع بدونهما ٠ والعدل هو دعامة التشريع الاسلامي ومدار فلسفته ونظامه ، والحب هو روح التربية الاسلامية وأساس رسالته ، ان العدل والحب قام عليهما نظام الأسرة في الاسلام ، وبهما استقام شأن العائلة المسلمة يوم كانت تقيم أحكامه وتلزم حدوده ٠٠ فما هو العدل في علاقة الزوج بزوجته ؟ وكيف يكون الحب وتنمو بذوره في قلب الزوجين ؟

أما الحب فذلك حين رغب الاسلام الى كل من الرجل والمرأة أن يكون الباعث على اشتراكهما في الحياة الزوجية أمراً نفسياً يربط بين قلبيهما برباط وثيق من الحب والألفة ينمو مع الزمن ، ولا تزيده الأيام الا توثقاً واستمساكاً ، ذلك هو اعجاب كل منهما بخلق صاحبه واستقامته ودينه ، لا الرغبة في ماله ، فالمال يزول ، ولا في جماله فالجمال يذبل ، ولا في جاهه فالجاه ينهار ٠٠ ان الزواج في نظر الاسلام سكن نفسي واطمئنان روحي وتعاون قلبي على قطع مرحلة الحياة بما يقوي المجتمع ويمنحه خيراً ، ومن هنا كان عقد الزواج عقداً تباركه يد الله وتشمله رعايته ، وانظر ما أروع هذا التعبير عن غاية الزواج وحقيقة الرابطة بين الزوجين حين يقول الله تبارك وتعالى : **((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ١))** وانظر ما أبلغ هذا التشبيه الجميل في قوله تعالى : **((هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ٢))**

---

(١) الروم : الآية ٢١ (٢) البقرة : الآية ١٨٧

أي أن حاجة كل منهما للآخر كحاجة الانسان الى اللباس وملازمته له ، فالرجل لولا المرأة لكان قبيحاً كقبح العاري تبدو سوأته للناس جميعاً ، والمرأة لولا الرجل لكانت مزدراة تنبعث منها الشرور كما تنبعث من امرأة عارية لا حياء ولا حشمة ..

وعلى الأساس القوي الرائع من الحب والاعجاب والغايات الروحية النبيلة ، يبدأ الرجل والمرأة حياتهما الزوجية المشتركة ، وفي ظل هذا الحب تحل كل المشاكل الناشئة بينهما فيما بعد .. انها ليست مشاكل تقوم بين غريبين لا رابط بينهما الا المنفعة ، بل بين حبيبين لا جامع بينهما الا الوفاء .. وعلى هذا الأساس وضع الاسلام الحدود الفاصلة بين حق الزوج وحق المرأة ، وسنرى كيف جعلها الاسلام حقوقاً يحتمها الحب والوفاء ، قبل أن يحتمها العدل والقانون ..

نحن الآن سنذكر طرفاً من حقوق الزوج على زوجته ، وحقوق الزوجة على زوجها . فمن أحب من الأزواج والزوجات أن يمسك بيده قلماً يدوّن به هذه الحقوق ليرى مقدار مايؤديه منها نحو الآخر، حتى اذا فاته شيء منها علم الباب الذي ينفتح منه الشر وتتكاثر به المشاكل ..

لنبدأ بحقوق الزوج .. فأولها طاعة الزوجة له بالمعروف ، وهي طاعة تحتمها المصلحة المعنوية المشتركة بين كل شريكين .. انها ليست طاعة العبد لسيده ، ولا الذليل لمستعبده ، وانما هي طاعة الأخ الصغير للأخ الكبير ، والزوجة غالباً تكون دون الرجل سنّاً ، وهي طاعة المساهم الصغير للمساهم الأكبر ، والزوجة لا تساهم في نفقات البيت كما يساهم في ذلك الزوج ، وهي طاعة الأساتذة لمدير المعهد اذ كان لا بد له من مدير يضبط النظام ويحل المشاكل ويلزم التلاميذ حدود الأدب ويحول دون عدوان بعضهم على بعض ، هذه هي الطاعة التي يطلبها الاسلام من الزوجة لزوجها ، وهي القوامة التي أشار اليها القرآن بقوله :

« **الرجال قوامون على النساء (١)** » وهي سهلة على نفس المرأة المفطورة على المسالمة والموادعة والرفق واللين .. ومن هنا كان أثرها كبيراً في استقامة الحياة الزوجية وسعادتها وحسن تربية الأولاد واستقامتهم في الحياة .. ومن هنا أيضاً كان أجرها عند الله كبيراً .

اجتمع النساء مرة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسلن احداهن الى الرسول لتقول له : يا رسول الله أنا وافدة النساء اليك .. هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فان يصيبوا أثيبوا وان قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم فما لنا من ذلك الأجر ؟ فأجابها عليه الصلاة والسلام بقوله : « أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة للزوج واعترافاً بحقه يعدل ذلك (أي أجر المجاهدين في سبيل الله) وقليل منكن من يفعله [٢] » . وصدق رسول الله ! فطاعة المرأة لزوجها جهاد من نوع آخر غير جهاد السيف .. انه جهاد العاطفة والهوى والنفس ، واخضاع ذلك كله لمصلحة الأسرة وسعادة الأولاد .. ومن هذا القبيل قوله عليه الصلاة والسلام : « اذا صلّت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت [٣] » . انه لثواب عظيم ما أجدر زوجاتنا أن يحرصن عليه ، جنة عرضها السموات والأرض تعطى ثمناً لطاعة الزوج وعبادة الله ! ما أرخص الثمن وما أغلى المبيع ! . ونحب أن ننبه هنا الى أن الطاعة المطلوبة من المرأة لزوجها انما هي في حدود الشريعة والمصلحة المحققة لها ولأولادها .. فمن أمرها زوجها بشرب المسكرات أو مرافقة الرجال أو ضرب الأبناء ضرب التلف .. لم تلزمها الطاعة بل تحرم عليها الطاعة في مثل هذه الأوامر ، والقاعدة العامة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق [٤] » .

---

(١) النساء : الآية ٣٣
(٢) رواه البزار والطبراني
(٣) رواه احمد والطبراني
(٤) رواه احمد والحاكم

ومن حقوق الزوج أن تعنى الزوجة ببيتها وتحفظ للزوج ماله وأثاثه، وتوفر له راحته وهدوءه ، وكلما كانت حريصة على البيت وأمواله لا تفرط فيه ولا تعطي منه شيئاً الا باذن الزوج كانت أجدر بثقته واطمئنانه ، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من حق الزوج على زوجته أن لا تعطي شيئاً من بيته الا باذنه ، فان فعلت ذلك أي أعطت بغير اذنه، كان له الأجر وعليها الوزر ، وفي رواية أثمت ولم يتقبل منها . ان الزوجة في البيت راعية وقد قال عليه السلام : « والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها [1] » .

ومن حق الزوج على زوجته أن ترعى شعوره فتبتعد عما يؤذيه من قول أو فعل أو خلق ، وأن تراعي ظروفه المالية ومكانته الاجتماعية ، فلا تضيق ذرعاً بعمله خارج البيت ما دام عملاً شريفاً يكتسب منه ، ولا تعرض عما تقتضيه مكانة زوجها الاجتماعية من حد لبعض تصرفاتها أو ملابسها أو أهوائها ، فانها شريكة الزوج في نجاحه الاجتماعي وحسن سمعته بين الناس ، ينالها ما يناله في ذلك من خير أو شر أو ذم أو ثناء.. ومن ذلك أن لا تكلفه من النفقات ما لا يطيق ، قد تكون على حق فيما تطلب من نفقة ، ولكن زوجها لا يستطيع أن يقدم لها ذلك الا أن يسرق أو يستدين ، فأية زوجة تلجىء زوجها الى السرقة أو الاستدانة الا أن تكون قاسية القلب لا تعيش مع زوجها بروحها ولا بقلبها ، وانما تعيش معه بجسدها ولذتها ؟ ولقد كان من عادة نساء السلف رضوان الله عليهم أن تقول الزوجة أو البنت للرجل حين يخرج من البيت : اتق الله واياك وكسب الحرام ، فانا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار، وقد اجتمع نساء النبي عليه الصلاة والسلام يوماً وتذاكرن ما هن عليه من خشونة العيش وضيق الحال وقلة الطعام فأجمعن أن يطلبن من

---

(١) رواه البخاري ومسلم

الرسول التوسعة عليهن . فاغتم الرسول لذلك وأحزنه حزناً شديداً ، وهجرهن شهراً لا يكلمهن حتى نزل قوله تعالى : ((**يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً** [١])) .

أمره الله أن يخير زوجاته بين الطلاق وبين الاقامة على ما هن عليه من عيش ضيق وحياة قاسية .. فبدأ بعائشة وتلا عليها الآيات وقال لها : ما أحب أن تتعجلي حتى تستأمري أبويك (أي تأخذي رأيهما في الاقامة مع الرسول أو الطلاق) .. فبكت عائشة وقالت : أفيك أستأمر أبوي يا رسول الله ؟ بل أختار الله ورسوله والـدار الآخرة ! ثم عرض على كل زوجة من زوجاته مثل ما عرض على عائشة فكان جواب كل واحدة ما أجابت به عائشة من تفضيلها الاقامة مع زوجها رسول الله على الافتراق عنه [٢] » .. هكذا كانت أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .. وهكذا ينبغي أن تكون كل زوجة كريمة من زوجات المؤمنين ..

ومن حقوق الزوج أن توفر له الزوجة سكن النفس واطمئنانه في البيت، بنظافة جسمها ونظافة بيتها ، وأن تتزين له حين يقدم بما يقربها اليه ويزيد حبه لها وشوقه اليها .. قالت أسماء بنت خارجة الفزاري لابنتها عند الزفاف : يا بنية ، انك خرجت من العش الذي فيه درجت ، فصرت الى فراش لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكوني له أرضاً يكن لك سماء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً ، وكوني له أمة يكن لك عبداً لا تلحفي به فيقلاك (أي لا تلحي عليه فيكرهك) ولا تباعدي عنه فينساك ، ان دنا منك فاقربي منه ، وان نأى فابعدي عنه ، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشمن منك الا طيباً ، ولا يسمع الا حسناً ، ولا ينظر الا جميلاً .

---

(١) الاحزاب : الآية ٢٨ ، ٢٩ (٢) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة

وهكذا تكون المرأة الناجحة في امتلاك قلب زوجها .. لا كتلك التي تستقبل زوجها بثياب المطبخ شعثة الشعر رثة الهيئة ثم لا تتزين الا حين تخرج لاستقبال أو تستعد لزيارة .

ومن حقوق الزوج أن لا تخرج من بيته بغير اذنه ، وأن لا تبدي زينتها للأجانب ليطمئن قلبه وتسكن نفسه ، ومن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لاتخرج الزوجة من بيته الا باذنه فان فعلت (أي خرجت بغير اذن زوجها) لعنها الله وملائكة الغضب حتى تثوب أوترجع ، ومن أدب القرآن « **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولايبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني اخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون ١** » .

ومن حقوق الزوج أن تترك له زوجته وقتاً يفرغ فيه لنفسه ولفكره فان كان عابداً تركت له وقتاً تطمئن فيه نفسه الى عبادة الله بخشوع وحضور قلب . وان كان عالماً تركت له وقتاً يقرأ فيه أو يكتب أو يؤلف أو يفكر .. ان اللذة التي يجدها العابد في خلوته ، والعالم في قراءته ، والأديب في هدأته ، لا تعدلها لذة في الحياة ، وقد لا تشعر الزوجة بهذه اللذة فلا تفهم لها معنى ، وقد تؤولها على معنى الكره والبعد عنها .. وهي في ذلك متجنية على زوجها ومتجنية على نفسها .. فاذا أبت الا أن تعكر عليه صفو هدوئه ولذته الروحية والعلمية فقد أجبرته على أن يكره جو البيت ، وأن يفر منه الى مكان ينجو فيه من مضايقتها وازعاجها ، وقد تمتد النفرة من البيت فتصل الى حد النفرة منها هي ، فلا يطيق رؤيتها ولا يحب معاشرتها ، وهنا تكون الكارثة على الزوج والزوجة والأولاد والبيت بأجمعه ..

---

(١) النور : الآية ٣١

كان تولستوي (أكبر كتاب الروس في عهد القياصرة) من أسعد الناس بحياته الزوجية في أول عهده بالزواج .. ثم كان من أشقى الناس بزوجته حتى لم يعد يطيق رؤيتها ، ذلك أنه كان في اول حياته مترفاً منعماً ، وكانت زوجته مترفة تحب رغد العيش ورفاهيته .. وعاشا معاً أمداً من الدهر كأسعد ما يكون الزوجان حباً وسعادة .. ثم تغيرت أفكار تولستوي وآراؤه في الحياة فمال الى الزهد وصمم على أن يكرس حياته لانقاذ البؤساء ونصرة الفقراء ومكافحة الظلم والطغيان ، فألف وكتب وخطب وعاشر الفلاحين في قراهم وهجر حياة الترف والنعيم .. فلم تستطع زوجته أن تسايره في حياته الجديدة ، بل لم تفهم عليه هذا الاتجاه الجديد ، فما زالت به تنغص عليه عيشه وتضايقه في اتجاهه الجديد حتى لقي الموت بسببها ! أتدرون كيف كان ذلك ؟ .. انها لم تسقه السم ، ولم تخنقه في الفراش ، ولم تطعنه بسكين ، ولكنها ألجأته الى هجر البيت فتسلل منه هارباً في ليلة باردة عاصفة ممطرة من ليالي الشتاء وخرج هائماً في ظلام الليل لا يدري الى أين يتجه فأصيب بالتهاب رئوي لم يمهله أكثر من أحد عشر يوماً ، حيث وجدت جثته ملقاة في فناء احدى محطات السكك الحديدية ، وقد كان مما أوصى به قبل موته أن لا يؤذن لزوجته برؤيته ..

يازوجاتنا الفضليات .. احرصن على سعادتكن بسعادة أزواجكن .. اجعلن من بيوتكن جنات يأوي اليها الأزواج حتى يجدوا فيها من قلوبكن وبشركن ونظافتكن وتعاونكن ما يحبب اليهم البيت على الهرب منه ..! حذار يا زوجاتنا أن تقتلن علماءنا وأدباءنا ومفكرينا .. حذار أن تقتلن أزواجنا كما قتلت تولستوي زوجته الحمقاء ..!

أما حقوق الزوجة على زوجها فالى اللقاء في الحديث القادم ان شاء الله .

زوجاتنا في البيوت

وفيه بيان لحقوق الزوجة على زوجها

أذيع مساء الخميس : ٢٤ من ذي القعدة ١٣٧٤
١٤ من تموز ١٩٥٥

كان حديثنا في الأسبوع الماضي عن حقوق الزوج على زوجته ، وسيكون حديثنا اليوم عن حقوق الزوجة على زوجها ، ويحسن أن أشير قبل البدء بالحديث الى أننا كنا منذ عشرين سنة نشكو من قسوة الأزواج في معاملتهم لزوجاتهم معاملة تقوم على التحكم والاستبداد ، وحرمان الزوجة من أبسط الحقوق التي منحتها الشرائع لها كانسان ذي روح حي كريم ، واذا بنا اليوم — وقد أفلت القيد ، وأفرط كثير من الأزواج في منح الحرية لزوجاتهم — ازاء طائفتين من الأزواج تأخذ كل منها أقصى الطرف الأيمن أو الأيسر ، حتى ليجد الدارس لأخلاقنا الاجتماعية في الأسر أننا نعيش في مجتمع تتناقض مظاهر الحياة في داخل بيوته ، من افراط في حرمان الزوجة أبسط مبادىء الحرية التي شرعها الاسلام ، الى افراط في منح الزوجة فوق مبادىء الحرية المتزنة التي تسمح بها الشرائع والمبادىء الأخلاقية الكريمة ، نحن بين فئتين : فئة متزمتة لا ترى للزوجة حقاً في أن تتكلم أو تخرج من بيتها لنزهة أو سيارة ، وفئة متحررة تطلق العنان لزوجاتها أن تختلط في المجتمعات التي تتحدث فيها الشهوات والأهواء والنزوات الخفيَّة بلغة أبلغ من لغة الكلام والعبارات . والسعادة الزوجية والكرامة العائلية هي في الموقف الوسط بين الموقفين المتباينين .. وقبيح في دين الله من يغالي أو يقصر في أحكامه وتعاليمه

على حد سواء • وها نحن نعرض الميزان القسط ، والحدود الفاصلة بين الخير والشر ، والحسن والقبح ، في حقوق الزوجة على زوجها كما يقررها الاسلام دين الله الذي جاء لاسعاد الناس جميعاً ••

١ ــ فمن أول حقوق الزوجة على زوجها أن ينظر اليها على أنها سكن له تركن اليها نفسه ، وتكمل في جوارها طمأنينته ، وترتبط بالحياة الكريمة معها سعادته أو شقاوته • فهي ليست أداة للزينة ولا مطية للشهوة ، ولا غرضاً للنسل فحسب ، بل انها تكملة روحية للزوج يكون بدونها عارياً من الفضائل النفسية ، فقيراً من بواعث الاستقرار والطمأنينة، والى هذا يشير القرآن الكريم حين يقول « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** (١) » فأساس كل حق للزوجة على زوجها أن يعاملها على أنها سكنه الروحي والنفسي ، وعلى أنه قد ارتبط معها برباط عميق من المودة والرحمة هو أوثق من رابطة العقد القانوني الذي يلزمه نحوها بوجائب مالية أو حقوق مادية•• وحين ينظر الزوج الى زوجته بهذا المنظار الجميل تزول من طريق الحياة الزوجية كل ما يشوبها من أشواك وعثرات ، ويكون الافتراق فيها عن طريق الطلاق أو الهجر انتزاعاً للحياة من جسمي الزوج والزوجة على السواء • في الحياة الزوجية التي لا يغيب فيها عن الزوج أبداً حاجته الروحية والنفسية والقلبية الى زوجه لا يقع الطلاق وان أبيح ، ولا يحصل التعدد وان شرع ، ولا يقف الزوجان أمام القضاء وان اختلفا في البيت ، ولا يبغي أحدهما على الآخر في حقه ما دام هذا المعنى أساس الحقوق الزوجية كلها •

٢ ــ ومن واجبات الزوجة على زوجها أن ينفق عليها بالمعروف، وهو في حدود المسكن الصالح الذي تصان فيه حرمة الزوجة وصحتها وكرامتها،

---

(١) الروم : الآية ٢١

واللباس الصالح الذي يصونها من الابتذال ويدفع عنها أذى الحر والبرد ويعتاده أمثالها من قريبات أو جارات .. والطعام الصالح الذي يغذي الجسم ويدفع المرض ، ويأكله الناس عادة من غير سرف ولا تقتير ، وكل ذلك في حدود الاستطاعة المالية للزوج **« لا يكلف الله نفساً الا وسعها [1] » « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف [2] »** أما أن تطلب الزوجة من النفقة أكثر مما تحتاج وفوق ما يطيق الزوج فهذا عنت وارهاق يعرض العائلة للفقر والحرمان ، لا تلجأ اليه زوجة عاقلة تريد أن تعيش في بيت الزوجية مكرمة هانئة مطمئنة ، وأما أن يقصر الزوج عن الانفاق على زوجته في الحدود التي تحتاجها كرامة الزوجية وسعادة الأسرة وهو قادر على ذلك ، فهذا بخل يمقته الله وتكرهه المروءة ، وسبب كبير من أسباب انحراف الزوجة وشقائها ، وأشد من هذا مقتاً وكرهاً أن يضن الزوج على زوجته بالنفقة الواجبة ، بينما هو يجود بماله على رفاق السوء ، وفي الليالي الحمراء ، وعلى الموائد الخضراء ، كما يقع كثيراً ممن لا خلاق لهم ولا مروءة .. ولقد رأينا بأعيننا بيوت أمثال هؤلاء الأزواج يخيم عليها البؤس ، ويجثم فوق صدور أفرادها الشقاء. ومن ابتليت بمثل هذا الزوج فصبرت وعفت كانت في طليعة المجاهدين عند الله أجراً وثواباً ، فحسبها أنها قد بذلت راحتها وقلبها في سبيل المحافظة على أبنائها وسمعتها وشرفها .. ولو كانت حدود الله تقام في المجتمع لنكل بهذا الزوج الآثم أشد النكال ، وحسبه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء اثماً أن يضيع من يقوت [3] » .

٣ — ومن واجبات الزوجة على زوجها أن يعلمها واجباتها الدينية ويرشدها الى ما تحتاج الى معرفته من دين أو ثقافة أو خلق كريم .. ولئن كان ذلك حقاً من حقوق الزوجة فانه في الواقع في مصلحة الزوج

---

(١) البقرة : الآية ٢٨٦ (٢) البقرة : الآية ٢٣٣ (٣) رواه ابو داود والنسائي والحاكم

نفسه ، فان الزوجة التي تقف بين يدي الله خاشعة عابدة ، تكون من أبر الزوجات بزوجها ، وأحنى الأمهات على أولادها ، وأسعد النساء في بيتها وأسرتها ، ولذلك أباح الاسلام للمرأة التي يأبى زوجها أن يعلمها ما تحتاج اليه من أحكام الشريعة أن تخرج لتسأل أهل العلم بدين الله عن ذلك . فانها هي وزوجها أحوج الى هذا من سعيها وسعيه للطعام والشراب .. والمرأة شديدة التأثر بسلوك زوجها الديني ، فان رأت منه حرصاً على ستر أو عفة أو عبادة ، بادرت الى ذلك استجابة لعاطفتها ، وارضاء لزوجها ، وان رأت منه تشجيعاً على الانفلات من أحكام الدين وآداب الأسرة لم تجد بداً آخر الأمر من أن تستجيب له وتفعل ما يرضيه .. وكم رأينا زوجات خرجن من بيوت آبائهن الى بيوت الزوجية عفيفات محتشمات عابدات ، فما لبثن غير قليل حتى انحرفن عن ذلك كله بتأثير الزوج وانحرافه وجهالته .. وقد جعل الله وقاية الزوجة من النار أمانة في عنق الزوج حين قال « **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** (١) »

فليتق الله الأزواج في دين زوجاتهن وأخلاقهن وحشمتهن ، فانهم مسؤولون عن ذلك بين يدي الله يوم لا ينفع المفرطين في مثل ذلك ندم ولا اعتذار .

٤ ـ ومن حقوق الزوجة أن يغار الزوج عليها فلا يعرضها للشبهة ، ولا يتساهل معها في كل ما يؤذي شرف الأسرة أو يعرضها لألسنة السوء ، والتساهل في هذا قبيح لا يعد من مكارم الأخلاق في شيء ولا يعد من اكرام المرأة أو احترامها ، لما يجره هذا التسامح من شقاء لها ولزوجها وأولادها ، وما زال الناس في مختلف البيئات تتأثر سمعتهم وكرامتهم بسلوك الزوجات ، فمن أغضى عن زوجته وهو يرى أو يسمع عنها ما يشين ، فقد أخرج نفسه من زمرة الرجال الذين لهم حرمة في

---

(١) التحريم : الآية ٦

النفوس ومنزلة عند الله . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتعجبون من غيرة سعد ـ أحد أصحابه ـ أنا والله أغيرُ منه والله أغيرُ مني [1] » . وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه زوجة للزبير بن العوام ، وكان في بدء أمره فقيراً تنقل النوى على رأسها من مسافة بعيدة لتعلف به بعيرها . فرآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة وهي تحمل النوى فأحب أن يركبها معه على بعيره ، فرغبت في ذلك ، ولكنها تذكرت غيرة زوجها الزبير فأعرضت واعتذرت ، ثم حدثت بذلك زوجها حين قدم البيت فقال لها : والله لحملك النوى على رأسك أهون علي من ركوبك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال ذلك لفرط غيرته ، ولم ينكر عليه رسول الله وهو المأمون الحبيب ذو الخلق العظيم .. والغيرة المحمودة هي ما كانت في محلها وفي حدود الاعتدال .. أما ما جاوز الحد وكان ظناً باطلاً لا أساس له الا وسوسة الشيطان ، فهو من الغيرة المكروهة التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: « ان من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل ، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة [2] » . وقال علي رضي الله عنه لا تكثر الغيرة على أهلك - أي بغير داع الى ذلك ـ فترمي امرأتك بالسوء من أجلك .. وكم رأينا من جنايات الغيرة المبغوضة على العائلة وسمعتها ما أدى الى كثير من الجرائم .

٥ ـ ومن حق الزوجة على زوجها أن ينبسط معها في البيت ، فيهش للقائها ، ويستمع الى حديثها ويمازحها ويداعبها تطييباً لقلبها ، وايناساً لها في وحدتها واشعاراً لها بمكانتها من نفسه وقربها من قلبه .. وقد يظن بعض الجاهلين المتزمتين أن مداعبة الزوجة وممازحتها مما يتنافى مع الورع أو الوقار أو الهيبة التي يجب أن تستشعرها الزوجة

---

(١) رواه البخاري ومسلم (٢) رواه ابو داود والنسائي

نحو زوجها ، وهذا خطأ فاحش ، ودليل على غلظ الطبع وقسوة القلب وجهل الشريعة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو العابد الخاشع والقائد الحاكم من أفكه الناس مع زوجاته وأحسنهم خلقاً ، كان يمزح معهن بما يدخل السرور الى قلوبهن ويقص لهن القصص ويستمع الى قصصهن .. ومن المعروف في سيرته عليه السلام أنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها ، وكان يريها اللعب في باحة المسجد فيضع كفه على الباب ويمد يده وتضع وجهها على كتفه [1] ، ومن هنا قال عليه السلام : « أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله [2] » . وكان مما يقول عمر وهو القوي الشديد الجاد في حكمه المرهوب في سطوته : « ينبغي للرجل أن يكون في أهله كالصبي — أي في الأنس والبشر والسهولة — فاذا كان في القوم وُجد رجلاً » .. ومما يتصل بهذا حق الزوجة في الاستمتاع بالنزهات والرياضة الخلوية مع زوجها وأولادها .. فليس مما يبيحه الشرع أن يمتع الزوج نفسه كل يوم بالنزهة والرياضة في البساتين والحقول والرحلات المتتابعة طلباً للراحة واستجماماً من عناء الأعمال ، ثم يضن على زوجته برحلة يصطحبها معه لتأخذ حقها من الراحة والاستجمام والنشاط .. متحرجاً من ذلك زاعماً أنه مما يتنافى مع الدين والحشمة ، ان الزوجة انسان لها حق الأنس مع زوجها في بعض نزهاته ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان لجسمك عليك حقاً وان لزوجك عليك حقاً [3] » ..

٦ — ومن حق الزوجة على زوجها أن يحسن خلقه معها فيكلمها برفق ، ويتجاوز عن بعض الهفوات ، ويقدم لها النصح بلين تبدو فيه المودة والرحمة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ان أقربكم مني مجالس يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقاً ، الموطؤون أكنافاً ، الذين يألفون

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم
(٣) رواه البخاري ومسلم

ويؤلفون [1] » . واذا كان حسن الخلق مع الناس مرغوباً فيه وهو مقياس القرب من الله أو البعد منه ، فكيف بحسن الخلق مع الزوجة وهي ألصق الناس بالزوج ، وأشدهم حاجة الى مودته وحسن معاملته .

تلك هي أهم حقوق الزوجة على زوجها . وهنالك حقوق مشتركة تطلب من كل من الزوج والزوجة معاً ، فأولها أن يتحمل كل منهما أذى صاحبه .. فالانسان غير معصوم وليس من الناس من لا يخطىء .. فليتحمل الزوج من زوجته بعض الأذى ولتتحمل الزوجة من زوجها بعض القسوة .. وقد خاطب الله الأزواج وأمرهم باحتمال المكروه من زوجاتهن فقال **« وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً [2] »** ومن الواجب أن يذكر الزوج أنه أقدر على تحمل الأذى من زوجته ، فالمرأة عاطفية سريعة الانفعال كثيرة النسيان لجميل الزوج كما قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أحسنت الى احداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت ما رأيت منك خيراً قط [3] » وهي طبيعة غالبة في النساء فلا تثر ثائرة الزوج لأقل خطيئة تبدر منها ولا يسارع الى الغضب حين تنكر زوجته في حالة الغضب فضله أو حسن معاملته ، وقليل من ضبط الأعصاب حين تقع الخصومة يدفع عن الأسرة كثيراً من الشر والشقاء ..

ومن الواجبات المشتركة أن يشعر كل من الزوج والزوجة بالمسؤولية المشتركة نحو البيت والأسرة .. أي أن يشعرا أن عليهما معاً أن يسعدا أنفسهما وأولادهما متعاونين على بأساء الحياة وسرائها . فلا يصح أن لا يفكر الزوج في راحة الزوجة في البيت وأعمالها وعنائها ، وأن يكون همه فقط أن توفر له الراحة ولو على حساب الزوجة والأولاد .. ولا

---

(١) رواه الترمذي (٢) النساء : الآية ١٨ (٣) رواه البخاري ومسلم

يصح أن لا تفكر المرأة في عمل زوجها وفي نفقات البيت حتى لا يكون همها ان أن توفر لنفسها الراحة أو النفقات على حساب الزوج ٠

أيها المستمعون والمستمعات أزواجاً وزوجات : ان التكافل العائلي بين الزوج والزوجة وهو مقياس رقي الأخلاق الاجتماعية للأمة ، وهو الحجر الأساسي في بنائها المتماسك القوي ٠٠ ويوم يشعر الزوج والزوجة أنهما مسؤولان معاً أمام الله والتاريخ عن سعادة البيت والأولاد يومئذ تكون بيوتنا مصانع لتخريج الرجال ، وجنات تتفيأ منها الظلال ٠٠ لنذكر جميعاً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ٠٠ والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته [١] » ٠

(١) رواه البخاري ومسلم

أولادنا في البيوت

أذيع مساء الخميس : ١ من ذي الحجة ١٣٧٤
٢١ من تموز ١٩٥٥

لعل من أهم مشكلاتنا الاجتماعية تربية أبنائنا وبناتنا في البيوت ، فالولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع يربيه البيت والأسرة ، وهو مدين لأبويه في سلوكه الاجتماعي المستقيم ، كما أن أبويه مسؤلان الى حد كبير عن انحرافه الخلقي والاجتماعي ، ومن معجزات الاسلام في علم التربية أنه سبق الى تقرير هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرناً حين قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو يمجسانه[1] » وهذا صريح في أن اتجاه الولد الفكري والخلقي والاجتماعي متأثر أولاً وقبل كل شيء ببيئة الأبوين وأفكارهما وأخلاقهما وأسلوب تربيتهما .. ومن المؤسف أن بيوتنا ليست على نمط واحد في التربية ، وأن أمهاتنا وآباءنا ليسوا على مستوى متقارب معتدل في أساليب التوجيه ، فمن بيوتنا ما ينشأ فيها الولد ــ ذكراً أو أنثى ــ على الجبن والخوف وضعف الشخصية واضطراب التفكير ، ومنها ما ينشأ فيها الولد على الميوعة والفوضى والدلال الذي يفسد الفطرة ويقتل الاستقامة ، ومن بيوتنا ما ينشأ فيها الولد جاهلاً وسخاً بعيداً عن الآداب الاجتماعية الراقية ، ومنها ما ينشأ فيها الولد ارستقراطياً مترفاً بعيداً عن المشاركة الوجدانية للشعب في أفراحه وأحزانه .. ومن بيوتنا ما ينشأ فيها الولد متديناً يفهم الدين مليئاً بالأخطاء والخرافات ، ومنها ما ينشأ

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي

فيها الولد متحرراً من العقيدة والدين تتحكم المدرسة في عقيدته كما يشاء المشرفون عليها من معلمين ومديرين • وهكذا ينشأ جيلنا نشأة متباينة متباعدة ليس بين أفراده انسجام في التفكير أو الثقافة أو الخلق أو السلوك الاجتماعي العام •• وهذا هو سر ما نشاهده من انخفاض المستوى الفكري والأخلاقي في أوساط الشباب • حتى ليذهب بعضنا في التشاؤم الى حد يقطع معه الأمل بكل خير يمكن أن تناله البلاد على أيدي الجيل الحاضر •• ولسنا معهم في هـذا التشاؤم ، فعوامـل الاضطراب والانحراف الذي يبدو على سلوك أولادنا في المجتمع ، هي عوامل داخلية نملك بأيدينا التحكم فيهـا أكثر من أن تكون عوامل خارجية لا يد لنا في دفعها •

اننا نحن الآباء والأمهات نملك بأيدينا تقويم اعوجاج الجيل الحاضر والآتي من أولادنا ، كما نملك أن يزداد الأمر سوءاً وفساداً •• ولعل دراسة التربية المنزلية وأساليبها الناجحة وعيوبها القائمة ، هو من خير ما يتحدث به العلماء والمفكرون والمصلحون والكتاب والخطباء الى الناس ، بل هي جديرة منا جميعاً بأن تشاد من أجلها المعاهد ، وتعقد لها الحلقات ، وتقام في سبيلها المناظرات ، ويلفت الى الاستفادة منها جمهور الشعب ، ما دامت هي أخطر قضية في حياتنا العامة وأخلاقنا الاجتماعية•

يكاد يجمع علماء التربية في عصرنا الحاضر على أن التربية الناجحة التي تؤثر تأثيراً كبيراً في سعادة المجتمع وتماسك بنيانه هي التي تقوم على الدعائم التالية :

أولاً ــ تقوية شخصية الطفل بحيث يجد في جو البيت ما يُنْمي مواهبه ويَصقُلها ويُعدِها للبناء والافادة •

ثانياً ــ تنمية الجرأة الأدبية في نفس الطفل بحيث يعيش شجاعاً صريحاً جريئاً في آرائه ، في حدود النظام والخير والأدب الانساني الكريم •

ثالثاً — تقوية روح التعاون والحب في نفسه نحو اخوانه في المجتمع، حتى يكون من رواد التكافل الاجتماعي في كل ما يعود على الأمة بالقوة والكرامة والأمن والسلام .

تلك هي دعائم التربية الصحيحة في البيوت ، وبمقدار ما تتوفر للناشئة على أوسع مدى ، يكون وضع الأمة الاجتماعي والسياسي والديني والخلقي والاقتصادي سليماً متماسكاً يتعاون بعضه مع بعض على صيانة المجتمع من الضعف والانهيار .

لنكن صريحين جريئين في معالجة هذا الموضوع الخطير ... فهل تسلك بيوتنا السبيل الصحيح المؤدي الى هذه التربية المثالية ؟ وهل يقوم الآباء والأمهات بواجبهم نحو أولادهم في ميدان التربية والتوجيه السديد ؟ ... كلا ...

ان أول ما يلاحظ على تربيتنا في البيوت ، سوء فهم نفسية الطفل وتجاهل عواطفه ، وعدم تقدير المراحل التي لا بد من أن يمر بها حتى يصبح رجلاً تسري عليه قوانين الرجال . نحن نجهل أن عالم الأطفال غير عالم الكبار ، ومن ثم فنحن نعاقبهم على الزلة بالقسوة أحياناً ، وبالتشهير أحياناً ، وبالازدراء والتحقير أحياناً أخرى .

أية أم لاتثور وتغضب اذا قضى طفلها الصغير حاجته في لباسه مرتين متتاليتين ؟.. وأية أم لا تضرب ولدها اذا كسر آنية زجاجية في البيت أثناء لعبه ؟ وأية أم لا تعاقب طفلها اذا كفأ الدواة على الأغطية النظيفة في غرفة الاستقبال ؟...أكثر الأمهات عندنا يفعلن ذلك ، ولقد حاولت مرة أن أقنع أماً تضرب ولداً لها لايجاوز عمره سنة ونصف السنة ، لأنه قضى حاجته في لباسه ، وكان عليه في رأيها أن يخبرها قبل أن يقضي حاجته أو أن يذهب بنفسه الى دورة المياه ! حاولت ان أقنعها بخطأ ما تفعل ، وأن الطفل في مثل هذه السن لا ينتظر منه أن

يكون له ذلك الادراك ، فأبت أن تقتنع حتى قلت لها : اسألي أمك ألم تكوني تفعلين مثـل ما يفعل ولدك الآن حـين كنت في مثل عمره ؟ فتضاحكت وأدركت خطأها حين تجاهلت قوانين الطفولة ومدى ادراك الاطفال نتيجة ما يعملون ..

ومن مظاهر هذه التربية الخاطئة أن تلجأ الى ضرب الأطفال حين يهربون من البيت مثلاً أو يتأخرون في العودة اليه ، أو يعتدون على أخواتهم اللائي دونهن في العمر ، أو يظهرون بعض التمرد على أوامرنا كأنهم جنود يجب أن يخضعوا لكل ما نريد ... ان مخالفة الطفل لأوامر أبويه أو للأنظمة السائدة في عالم الكبار ، ليست دائماً عنوان خبث الطفل وتمكن الشر من نفسه ، فقد تكون ـ وهذا هو الغـالب في الأطفال ـ مظهر حيوية ونشاط وقوة شخصية ما أحرانا أن تتعهدها بالرعاية والتقويم الهادىء حتى لا نقضي على معالمها في نفسه قبل أن يصبح رجلاً ، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « عُرام الصبي نجابة » أي طيشه وحيويته . وفي رواية « عرامة الصبي في صغره زيادة في عقله في كبره [1] » . وكثيراً ما تكون للطفل أعذاره التي لا نعلمها حين يخالف النظام أو يهرب من المدرسة أو يتأخر عن البيت ولو استطاع أن يحسن الابانة عن أعذاره بلغتنا نحن الكبار ، لكنا نؤيده فيما ذهب اليه ، ولو استطعنا نحن أن نفهم بلغته هو لكنا أول من يعذره .. ولنا في القصة التالية خير مثل يوضح لنا هذه الحقيقة : تأخر أحد الأولاد يوماً عن الحضور الى البيت مساء في الموعد المعتاد ، وخشيت الأم أن يعلم الأب بتأخر ولده فيوقع عليه القصاص الأليم ، فما كان منها الا أن وقفت في دهليز الدار المظلم تحمل عصى طويلة وقد اشتد بها الغضب حتى اذا قدم الولد انهالت بالعصى ضرباً على رأسه دون أن تنتظر ما قد

---

(١) رواه الترمذي الحكيم في نوادره

يبدي لها من عذر في تأخره .. وتبين بعد ذلك أن الأم كانت متسرعة في عقوبة ولدها .. فقد دعاه أحد جيرانه من الفلاحين ليعاونه في قطف الثمار لقاء أجرة يأخذها ، فقبل الولد رجاء أن يقدم هذه الأجرة هدية منه لأبويه الفقيرين ، وتنازل عن وجبة عشائه التي يأكلها في البيت عادة ليقدم لوالديه هذا العون البسيط .. أفلا ترون مثل هذه الأم كانت قاسية في معاملة ولدها الذي لم يتأخر الا بدافع نبيل يستحق أن تشكره عليه بدلاً من الضرب والتأنيب ؟..

ومن مظاهر هذه التربية الخاطئة أيضاً أن نشهر بالولد حين ينحرف أول مرة عن سنن الأخلاق الكريمة ، فاذا كذب مرة ناديناه دائماً بالكذاب ، واذا لطم أخاه الصغير مرة واحدة ناديناه بالشرير ، واذا احتال على أخته الصغيرة فأخذ منها تفاحة كانت بيدها ، ناديناه بالمحتال، واذا سرق من جيب أبيه قلماً ناديناه بالسارق ، واذا طلبنا منه كأس ماء للشرب فأبى ناديناه بالكسول ، وهكذا نشهر به أمام اخوته وأهله من الزلة الأولى ، وهذا أقبح أسلوب في التأديب ، وخير من ذلك أن ننبهه برفق ونبين له بالحجة التي يقتنع بها عقله الصغير أنه بذلك يسيء الى نفسه والى غيره في هذا الانحراف ...

وثاني ما يلاحظ على أسلوبنا في التربية تخويف الأطفال حين يبكون ليسكتوا .. نخوفهم بالغول والبعبع والضبع والحرامي واليهودي والجني والعفريت ونضمهم الى صدورنا حين نذكر هذه الأسماء كأننا ننقذهم منها ، وأسوأ أنواع التخويف أن نخوفهم بالأستاذ أو الطبيب أو المعلمة أو المدْرسة ، فينشأ الولد جباناً رعديداً يخاف مما لايخاف منه ، ويخشى ما ينبغي أن يقدم عليه ، وأشد ما يغرس الخوف والجبن في نفس الطفل أن نجزع اذا وقع على الأرض فسال الدم من وجهه أو ركبته أو يده ، فتلطم الأم صدرها بيدها وتصرخ وتطلب النجدة فيزداد

الطفل بذلك بكاء ، ويتعود الخوف من رؤية الدم أو الشعور بالألم ٠ وخير من هذا أن تبتسم الأم وتهدىء روع ولدها وتشعره بأن ما حصل له أمر بسيط وأنه معرض لمثل هذا فيما يستقبل من الأيام ٠

وثالث الملاحظات الرئيسية على تربيتنا أننا في الوقت الذي نود فيه استقامة أخلاق أبنائنا وبناتنا ، نحيطهم بكل ما يؤدي بهم الى الانحراف، فنسمح لهم برفقاء السوء ، وندفع بهم الى بعض المدارس الأجنبية التي لاتقيم للقيم الأخلاقية المعهودة في شريعتنا وعاداتنا وزناً ، ونأخذهم بأيدينا الى السينما ليشهدوا الأفلام الغرامية أو البوليسية ، وهي تفسد أخلاق الكبار فكيف بالصغار ، ونضع بين أيديهم المجلات الماجنة التي تتجر بالغرائز وتشجع على الاجرام ، وتتسابق الى نشر أسرار العائلات، أو مخازي البيئات (الفنية) السيئة في سلوكها وأخلاقها ٠٠

هذا هو الجو الذي نحيط به أولادنا ثم نطمع منهم أن يكونوا مثلاً أعلى في العفة والأمانة والاستقامة ! ومما لا يختلف فيه أحد من علماء التربية أن لمثل هذه الأجواء أثراً بالغاً في نفوس الأطفال والمراهقين بحيث لاينفع معه نصح الآباء أو توجيه المعلمين ٠٠

تلك هي أهم ما يلاحظ على أسلوبنا في التربية البيتية بقدر ما يتسع له وقت هذا الحديث ٠٠ ومنها نعلم أية جناية نجنيها على أبنائنا وبناتنا حين نقذف بهم الى الحياة في جو هذه التربية الخاطئة ٠ وما أسرعنا الى الشكوى منهم حين نراهم منحرفين أو عاقين أو متمردين ، وقد غرسنا بأيدينا في نفوسهم وهم صغار بذور هـذا الانحراف أو العقوق أو التمرد ٠٠ جاء رجل الى عمر بن الخطاب يشكو اليه عقوق ابنه ، فأحضر عمر الولد وأنبه على عقوقه لأبيه ونسيانه لحقوقه عليه ، فقال الولد : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى ، قال فما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أن ينتقي أمه ويحسن اسمه ويعلمه الكتاب

(أي القرآن) قال الولد : يا أمير المؤمنين ان أبي لم يفعل شيئاً من ذلك، أما أمي فانها زنجية كانت لمجوسي •• وقد سماني جُعَلاً (أي خنفساء) ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً • فالتفت عمر الى الرجل وقال له : جئت الي تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت اليه قبل أن يسيء اليك ؟ يرحم الله عمر ما أشد توفيقه في جعل الأب حين أهمل تربية ابنه هو المسؤول عن عقوق ولده له !•

ويعجبني في هذا المقام جواب ولد لأبيه حين غضب عليه أبوه يوماً فعيره بأمه وقال له : أتخالفني وأنت ابن أمة (جارية) ؟ فقال الولد لأبيه: ان أمي والله خير منك يا أبي ، قال لم ؟ قال الولد : لأنها أحسنت الاختيار فولدتني من حر وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمة •• وهكذا يحمل الآباء مسؤولية انحراف أبنائهم منذ يختارون زوجاتهم ، كما تحمل الأمهات مثل هذه المسؤولية منذ يخترن أزواجهن وصلى الله على من علمه الوحي ما وصلت اليه مبادىء التربية بعد أربعة عشر قرناً ، حين قال : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس [1] » •

أيها الآباء والأمهات :

نحن المسؤولون عن انحراف أبنائنا وبناتنا اذا أصررنا على انتهاج الأساليب الحاضرة في بيوتنا مع أولادنا ! نحن المسؤولون عن كذبهم في المجتمع اذا شجعناهم على الكذب في طفولتهم أو قسونا عليهم في العقوبة عليه حتى جعلناهم لا يخجلون منه ، ونحن المسؤولون عن سرقاتهم اذا نحن ابتسمنا لسرقاتهم في طفولتهم ، أو عاقبناهم بالعقوبة البالغة التي لا يطيقونها فندفعهم الى التمرد والشقاوة دفعاً •

ونحن المسؤولون عن جبنهم وخوفهم من الحروب والطيارات

---

(١) رواه ابن ماجه والديلمي في الفردوس

والكفاح الدامي في سبيل حرية البلاد واستقلالها ، اذا جزعنا عليهم وهم في صغرهم من خمشة اليد وعثرة الرجل ونقطة الدم ووحشة الظلام ، ونحن المسؤولون عن ضعف أجسامهم اذا حفظناهم في صغرهم من لفح الشمس ووقذة البرد وثلج الشتاء ونسيم الربيع ..

حكمت احدى المحاكم على سارق بالعقوبة ـ وكانت حكم الله في كتابه بقطع يده ـ فلما جاء وقت التنفيذ قال لهم بأعلى صوته .. قبل أن تقطعوا يدي اقطعوا لسان أمي .. فقد سرقت أول مرة في حياتي بيضة من جيراننا فلم تؤنبني ولم تطلب الي ارجاعها الى الجيران بل زغردت وقالت : الحمد لله لقد أصبح ابني رجلاً .. فلولا لسان أمي الذي زغرد للجريمة لما كنت في المجتمع سارقاً !

أيها الآباء والأمهات : لنذكر دائماً مسؤوليتنا نحو أبنائنا وبناتنا لنذكر قول الله تبارك وتعالى « **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** [1] » وقوله عليه الصلاة والسلام : « علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم [2] » وقوله أيضاً « الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم [3] » .

ولنذكر أن أسماء بنت أبي بكر قالت لابنها عبد الله بن الزبير قبل استشهاده في معركته مع الحجاج وقد جاء يستشيرها في مواصلة المعركة .. « يابني ان كنت تعلم أنك على حق فما ينبغي أن ترجع عنه ، وان قلت كنت على حق ثم تبين لي خلافه فبئس المرء أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت قومك » . ولما قال لها : أخشى أن يُمثل بي صبيان

---

(١) التحريم : الآية ٦ (٢) اخرجه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وغيرهما
(٣) رواه ابن ماجه

بني أمية بعد الموت .. فقالت له : يابني ان الشاة المذبوحة لاتتألم من السلخ !

هذا مثل للبنت التي رباها الاسلام بأسلوبه الحكيم العظيم ، فلما أصبحت أمّاً علمت ابنها كيف يضرب أروع الأمثال في الفداء والتضحية والاستشهاد في سبيل الحق !

لنذكر هذا حين نحاول أن نعرف سر الخلود في تاريخ عظمائنا الخالدين ، وسر الاخفاق في تاريخ رجالنا المعاصرين !

آباؤنا في البيوت

أذيع مساء الخميس : ١٥ من ذي الحجة ١٣٧٤
٤ مــن آب ١٩٥٥

من مشاكل الأسرة التي تؤثر في سلوكنا الاجتماعي علاقة الابنـاء بالآباء والامهات ، فكثيراً ما يقع الخلاف بين الولد وأبيه ، وكثيراً ما يجر هذا الخلاف وراءه ذيولاً أخلاقية واجتماعية مؤلمة ، وقد تؤدي الى ارتكاب جرائم القتل والعدوان ، ونستطيع أن نقسم أسباب الخلاف الى سببين رئيسيين : سبب معقول لا بد فيه من استعمال الحكمـة ، وسبب غير معقول ولا مشروع وهو ما يتسم بسِمة العقوق من قبل الولد نحو أبيه .

أما الأول ، فهو ما ينشأ عن تحكم الأبوين في علاقة ولدهما بهما بعد الزواج أو عنده . فهما يحرصان غالباً على زواج ولدهما بفتاة لا يريدها ، أو ليست له مصلحة حقيقية في الزواج منها ، بل انهما ليرغبان في ذلك، طمعاً في مال ، أو انسياقاً وراء عاطفة ، أو حرصاً على صداقة أو قرابة ، دون نظر الى مصلحة الولد الحقيقية في هذا الزواج ، وهذا خطأ فادح يجر الى أسوأ العواقب ، وهو تحكم من الأب أو الأم لا يبرره الشرع ولا العقل ولا الحكمة ، ومن الخير أن يؤخذ في ذلك رأي الابن ويقتنع به ، لأنه هو الذي سيتزوج الفتاة ويشترك معها في السراء والضراء ، فاذا لم يجد فيها سكنه النفسي والروحي كان زواجه منها مبعث شقاء له ولها ، وقد يتعدى ذلك الى شقاء أسرتيهما معاً .

وحين يتزوج الولد يرغب الأبوان (غالباً) في أن يظل بجانبهما ،

يسكن معهما هو وزوجه وأطفاله فتنشأ المشاكل بين الأم والزوجة ، وبين الأب والابن ، وكثيراً ما تكون أسباب المشاكل تافهة ناشئة عن رغبة الأب أو الأم في فرض سلطانهما على الولد بعد زواجه ، كما اعتادا ذلك أيام طفولته وعزوبته ، وقد تنشأ عن غطرسة الزوجة أو نفرتها من حماتها، أو تدخل الأبوين في العلاقة بينها وبين زوجها ، وفي البيئات الجاهلة أو الظالمة يحمل الأبوان ولدهما على القسوة على زوجته وتعذيبها ، وأحياناً على الطلاق منها ، لأنها لا تخضع لهما أو لا تنسجم معهما ، وعادة اسكان الولد مع أبويه بعد الزواج لا تزال منتشرة في القرى وفي أكثر سكان المدن ، وهي عادة قديمة نرى آثارها في البيوت القديمة التي كانت تعد لاسكان الأولاد حين زواجهم مهما كان عددهم في البيت الواحد ، وكان الأب حين يريد تزويج ابنه يكتفي بأن يفرد له في الدار غرفة واحدة لسكنه وزوجته بينما يشترك مع أبويه واخوته في غرف الأكل والجلوس والاستقبال ، وقد رأينا عدة أبناء يشتركون مع أبويهم في بيت واحد ، ويتكاثر الأولاد في هذا البيت حتى يشبه خلية من النحل تعج بالأطفال والنساء والرجال ، ولهذه العادة محاذير متعددة من جهة الشرع والأخلاق والصحة النفسية والجسمية ، والآن وقد تطورت الحياة وتعددت مشكلاتها ومطاليبها ، وتطور بناء البيوت من الأسلوب الاسلامي الشرقي الى الأسلوب الغربي الحديث ، لم يعد من المستحسن أن يستمسك الأبوان بهذه العادة ، ومن الخير لهما ولولديهما أن يهيئا بأنفسهما له سكناً خاصاً خارج بيتهما ، لتظل علاقات الود والحب والاحترام قائمة بينهما وبين ولدهما وزوجه ، فيحال دون وقوع المشكلات وتجددها يوماً بعد يوم في البيت الواحد والعائلة الواحدة .

والقسم الثاني من أسباب الخلاف هو ما يكون منشأه العقوق والجحود ، عقوق الولد لأبويه وجحوده لفضلهما ، ويتجلى ذلك في تأففه من أوامرهما وتكاليفهما ، ومن رقابتهما لسلوكه ونصحهما له في

أعماله ، كما يتجلى عقوق الولد في انشغاله بنفسه وعائلته عن النظر في شؤون والديه واعالتهما حين يحتاجان الى اعانته وانفاقه ، وقد يتطور هذا العقوق الى الغلظة في خطابهما والتعدي عليهما بالضرب والاهانة وكم رأينا أبناء مجرمين اعتدوا على حياة آبائهم وأمهاتهم بالقتل أو الضرب المبرح الذي تنشأ عنه احدى العاهات المزمنة .

ومن أقبح مظاهر العقوق أن يتبرأ الولد من أبويه حين يرتفع مستواه الاجتماعي عنهما ، كأن يكونا فلاحين وهو يعيش في المدن ويتسنم بعض الوظائف الكبيرة، فيخجل من وجودهما في بيته بثياب الفلاحين أو الأزياء القديمة وقد شاهدنا بعض هؤلاء العاقين المغرورين من زعم لزواره عن أبيه أنه خادم مستأجر لشؤون البيت ، لما يتوهم في لباسه وهيأته من حطة تتنافى مع وظيفته أو مقامه الاجتماعي الكبير ، وهذا بلا ريب دليل على خطة نفس ، وصغر عقل ، وحقارة شأن ، والنفس العظيمة تعتز بمنبتها وأصلها وتفخر بأبيها وأمها مهما كانت حياتهما ونشأتهما وبيئتهما ، وحسبك أن القرآن الكريم مع تشديده على الشرك والمشركين أوصى الولد بأن يعاشر والديه المشركين بالمعروف **« وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً (١) »** .

هذه هي بعض مظاهر العقوق من الولد نحو أبيه وأمه ، ومن ثم كان العقوق قبيحاً في نظر المروءة والشريعة ، أما قبحه في نظر المروءة فلأنه مكافأة لاحسان الأبوين بالاساءة ولنعمتهما بالكفران ، فلو عرف الولد مبلغ ما عاناه أبواه منذ أن حملته أمه الى أن وضعته وأرضعته وربته ، ومنذ أن أنفق الأب عليه جنيناً في بطن أمه حتى أصبح رجلاً ذا زوج وأولاد ، لو تذكر الولد فضل أبويه وكفاحهما من أجله في مراحل حياته منذ الاجتنان حتى الزواج ، لوجد أن ما يقدمه لهما بعد ذلك من بر وعَوْن في حياته كلها لا يعادل فضل يوم واحد من أيام أبويه معه ،

---

(١) لقمان : الآية ١٥

فكيف يكون من المروءة أن يجحد فضلهما ويبدلهما بالاحسان اساءه وبالشكر كفراناً ؟ .. ولو كان فضل الأبوين قاصراً على الانفاق المادي لهان الأمر ، ولكن فضلهما في حياطته بالعاطفة والحب والرعاية والسهر هو أقوى وأشد تأثيراً في حياته وهو طفل صغير ، ان الطفل يعيش بعاطفة أبويه وحنانهما أكثر مما يعيش بمالهما ، ويا لله للأبوين ! ما أكبر قلبيهما وأنبل عاطفتيهما ، حين يسهران الليل كله لطفلهما الوليد يصرخ ويبكي ، فلا يذوق الأبوان طعم المنام ولا برد الاستقرار ، يكبان عليه ساهرين جزعين وجلين على حياته وصحته ، حتى ليتمنيان أن يفدياه بحياتيهما ، فاذا بزغ الفجر وهدأ الألم وعاودت الطفل ابتسامته ، نسيا سهرهما وآلامهما وأكبّا عليه يقبلانه ويضمانه .. ان ليلة واحدة من هذه الليالي ـ وما أكثرها في حياة الطفل ـ في آلامها وأحزانها وتعبها وسهرها ، لتعدل مال الدنيا يصبه الولد حين يكبر بين قدميهما ثم لا يكفي ذلك في جزائهما ولا شكرانهما ..

جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله : انني حججت بأمي من اليمن على ظهري ، وطفت بها البيت وسعيت بها بين الصفا والمروة ، ووقفت بها في عرفات ، ودلفت بها الى المزدلفة ، ورميت لها الجمار بمنى ، فعلت ذلك كله وهي عجوز لا حراك بها وأنا أحملها على ظهري فهل أديت حقها علي ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : لا .. قال الرجل : لم ؟ قال : لأنها فعلت ما فعلت بك في صغرك وهي تتمنى حياتك ، وأنت فعلت ما فعلت بها وأنت تتمنى موتها ؟ . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يطيق الولد مهما كان براً وفياً ، بعض ما كان يطيق الأب من عذاب وآلام نحو ولده الصغير حين تتنابه الأوجاع والأسقام .

أفليس قبيحاً اذن في عرف المروءة والأخلاق أن يقف الولد من أبويه في كبره موقف الجحود وهو المدين لهما في حياته منذ ولادته وطفولته ؟

ومن هنا كان حقاً ما تقرره الشريعة من أن عقوق الوالـدين من أكبر الكبائر وأشد الذنوب بعد الشرك بالله عز وجل **« واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الانسان بوالديه حملتـه أمه وهناً على وهن وفصـاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك الي المصير [1] »** فانظر كيف قرن النهي عن الشرك بالله مع الوصيـه بالوالدين ووجوب الشكر لله ولهما في آية واحدة ونسق واحد ؟ .. ويقول صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبـائر ؟ الشرك بالله .. وعقوق الوالدين [2] » فلا يقدم على عقوق الوالدين الا فاقـد اروءة سيء الخلق قليل الدين ، ومن كان كذلك مع أوثق الناس بـه وأكثرهم تفضلاً عليه ، كان مع الناس أدنى مروءة وأسوأ خلقاً وأقل ديناً .

وقد يبرر بعض الأولاد عقوقهم لآبائهم وأمهاتهـم بقسوة هؤلاء الآباء والأمهات ، وظلمهما له وتعديهما عليه ، وأنا لا أنكر أن بعض الآباء يفعلون ذلك ، وأن بعضهم يشتد في القسوة والتأديب حتى ليضرب ولده فيكسر له يداً أو يقسم له ظهراً ، وهي قسوة جاهلة ظالمة بلا شك ، لكنها لاتبرر العقوق بحال ، فالولد كثيراً ما يخطىء في الحكم على الأب والأم بالقسوة والظلم ، وكثيراً ما تخفى عليه الحكمة ـ لصغره وطفولته ـ من قسوة أبويه وشدتهما عليه في التأديب ، وكثيراً ما يكون ذلك بدافع الشفقة والرحمة من دون أن يرى الولد أن في ذلك شفقة أو رحمة ، ولقد مررنا كلنا بهذا الدور وبهذه الحالة ، فكم كنا نبكي من قسوة آبائنـا علينا ، ومن حرماننا من بعض ما نشتهي ، ومن منعنا بعض ما نريد أن نفعل ، وكنا نتهمهم يومئذ بالظلم والقسوة ثم ما نلبث حين نعي الحياة ونفهمها أن نتبين فضلهما علينا في ذلك المنع والحرمان ، وما أصدق الشاعر حين يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً
فليقس أحيانـاً على من يرحم

---

(١) لقمان : الآية ١٣ ، ١٤ (٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي

وهب أن أباك كان ظالماً فيما صنع بك ، ألا تغتفر له ذلك لقاء ما سبق له من فضل عليك يوم كنت رضيعاً ووليداً وطفلاً صغيراً لا تجد في الكون من يحنو عليك غيره وينفق عليك سواه ؟ ..

أيها الأخوة من أبناء وبنات .. لاتنسوا فضل آبائكم وأمهاتكم عليكم وان غاب عنكم الآن مشهدهم ، أنظروا الى صنيعهم باخوتكم الصغار : أنظروا الى أمهاتكم حين يلدن اخوتكم كم يتألمن وكم يصرخن، ثم انظروا اليهن بعد ذلك كم يسهرن وكم يأرقن وكم يجزعن ، وانظروا الى آبائكم كيف يكدحون في الحياة ويتعبون من أجل تربية اخوتكم الصغار وتعليمهم وتطبيبهم ؟ وكونوا على ثقة أن الحياة جزاء ومكافأة ، فمن أحسن منكم الى أبويه وبرهما وحنى عليهما ، رزقه الله أولاداً يحنون عليه ويبرونه ويحسنون اليه ومن عق منكم أبويه عوقب بأولاد يعقونه وينكرونه ويسيئون اليه .. وقد قال صلى الله عليه وسلم :« بروا آباءكم تبركم أبناؤكم [1] » . وهذه تجربة رأيناها بأعيننا في كثير من الآباء والأمهات ، فانظروا كيف تريدون أن تكونوا حين تكبرون وتحتاجون الى عون الولد ونصرته وبره ومساعدته .. ولست أجد في تذكيركم بحق الأبوة والأمومة أبلغ ولا أروع من هذه الآيات الكريمة من كتاب الله العظيم فاستمعوا اليها واعملوا بها **« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً [2] »** .

---

(١) اخرجه الحاكم والطبراني (٢) الاسراء : الآية ٢٣ ، ٢٤

أخلاقنا الاجتماعية في الأعياد

اذيع ليلة عرفة : ٨ من ذي الحجة ١٣٧٤
٢٨ من تموز ١٩٥٥

نحن الآن على أبواب عيد كريم ، فغداً يقف مئات الألوف من شتى أنحاء العالم الاسلامي في عرفات داعين مكبرين • وبعد غد يحتفل العالم الاسلامي كله ببهجة العيد وسروره ، فتنحر الأضاحي وتقدم الصدقات ، ويتزاور الأهل والأصدقاء ، ويلبس الناس الجديد والجميل من الثياب فما هو المغزى الاجتماعي والانساني في العيد ؟ وكيف ينبغي أن تكون أخلاقنا الاجتماعية فيه ؟ •

أما مغزاه الاجتماعي فهو ما يضفيه على القلوب من أنس ، وعلى النفوس من بهجة ، وعلى الأجسام من راحة ، وهو ما يدعو اليه من تجديد أواصر الحب بين الأصدقاء ، والتراحم بين الأقرباء ، والتعاون بين الناس جميعاً ، ففي العيد تتقارب القلوب على الود ، وتجتمع على الألفة ، وفي العيد يتناسى ذوو النفوس الطيبة أضغانهم ، فيجتمعون بعد افتراق ، ويتصافون بعد كدر ، ويتصافحون بعد انقباض ، وفي ذلك كله تجديد للصلة الاجتماعية بين الناس على أقوى ما تكون حباً ووفاءً واخاءً •

وفي العيد من المغزى الاجتماعي تذكير المجتمع بحق الضعفاء والعاجزين عليه ، حتى تشمل الفرحة بالعيد كل بيت ، وتعم النعمة كل أسرة ، والى هذا المغزى الاجتماعي العظيم يرمز تشريع صدقة الفطر في عيد الفطر ، ونحر الأضاحي في عيد الأضحى ، فان في تقديم ذلك قبل العيد أو أيامه ، اطلاقاً للأيدي الخيرة في مجال الخير • فلا تشرق شمس

العيد الا والبسمة تعلو شفاه الناس جميعاً ، والبهجة تغمر قلوب أبناء المجتمع قاطبة .

أما المعنى الانساني في العيد فهو أنه يشرك أعداداً لا حصر لها من أبناء الشرق والغرب بالفرح والسرور في وقت واحد ، فاذا بالانسانية تلتقي على الشعور المشترك بالغبطة ، واذا بأبناء الأمة الواحدة على اختلاف ديارهم يشتركون في السراء كما يشتركون في الضراء ، ففي العيد تقوية للروابط الفكرية والروحية التي يعقدها الدين بين أبنائه من مختلف اللغات والأقوام .

تلك هي بعض المعاني الاجتماعية والانسانية في العيد ، ومن ثَم كانت الأعياد مظهراً واضحاً لهذه المعاني في كل مجتمع ، ومن أراد معرفة أخلاق الأمة فليراقبها في أعيادها اذ تنطلق فيها السجايا على فطرتها ، وتبرز العواطف والميول والعادات على حقيقتها ، والمجتمع السعيد هو الذي تسمو أخلاقه الاجتماعية في العيد الى أرفع ذروة ، ويمتد شعوره الانساني الى أبعد مدى ، وذلك حين يبدو في العيد متماسكاً متعاوناً متراحماً ، حتى ليخفق فيه كل قلب بالحب والبر والود ، ويذكر فيه أبناءه مصائب اخوانهم في الأقطار الأخرى حين تنزل بهم الكوارث والنكبات ، فما هو نصيبنا من هذه المعاني الانسانية في أعيادنا الحاضرة؟ وما هو واقع أخلاقنا الاجتماعية فيها ؟

لا شك في أن أعيادنا تتسم ببعض مظاهر التعاون الاجتماعي : من صدقات ومبرات للبيوت الفقيرة والعائلات البائسة ، ولكن ذلك الى حد قليل بالنسبة لما ينبغي أن يكون عليه ، وبالنسبة لمظاهر الترف والانفاق الذي ننفقه على ملذاتنا وفي أسفارنا وولائمنا ، فنحن نكتفي بالعطاء القليل مع استطاعتنا أن نبذل الكثير ، وقلّ أن نذكر بالعطاء من لا يذكرنا بنفسه ، فالذين يتصدون للسؤال من المحتاجين ، هم الذين ندفع لهم ما لا يقيم أودهم وأود أطفالهم ونسائهم . أما البيوتات المستورة التي

يحسب الجاهل أصحابها أغنياء من التعفف ، اذ تأبى عليهم كرامتهم أن يتعرضوا لذل السؤال ، فهؤلاء يمر العيد عليهم بالحسرات ، دون أن تتنبه لهم ، وقد يكونون من ألصق الناس بنا رحماً أو معرفة أو جواراً ، وليس هذا من المجتمع السعيد في شيء ، ويوم كانت أمتنا تتذوق طعم السعادة في مجتمعاتها كان أحدهم يفكر ليلة العيد بجاره قبل أن يفكر بنفسه ، ويقدم حاجة أولاد صديقه على حاجة أولاده • حدّث الواقدي من كبار علماء القرن الثاني الهجري فقال : كان لي صديقان أحدهما هاشمي ، وكنا كنفس واحدة فنالتني ضائقة شديدة وحضر العيد ، فقالت امرأتي : أما نحن في أنفسنا فنصبر على البأس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد قطّعوا قلبي رحمة لهم لما عليهم من الثياب الرثّة ، فانظر كيف تعمل لكسوتهم ، قال الواقدي : فكتبت الى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة علي ، فوجه الي كيساً مختوماً فيه ألف درهم ، فما استقر في يدي حتى كتب الي الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت الى صديقي الهاشمي ، فوجهت اليه الكيس بختمه ، ثم أخبرت امرأتي بما فعلت فاستحسنته ولم تعنّفني عليه فبينما أنا كذلك اذ وافاني صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته ، فقال لي : أصدقني عما فعلت بالكيس الذي وجهته اليك فعرفته الخبر فقال لي : انك حين طلبت مني المال لم أكن أملك الا ما بعثت به اليك ، ثم أرسلتُ الى صديقي الثالث أسأله المواساة فوجه الي الكيس الذي بعثتَ به اليه ، قال الواقدي : فتواسينا الألف الدرهم فيما بيننا ، كل واحد ثلاثمائة ، ثم أخرجنا للمرأة مائة درهم ، ونما الخبر الى المأمون فدعاني وسألني فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحد منا ألفا دينار وللمرأة ألف دينار •

هذا هو التعبير الصادق عن سمو الأخلاق الاجتماعية في كل أمة ••

ومما لاشك فيه أننا في الأعياد لانذكر مصائب اخواننا الآخرين ، ففي وطننا السوري انحاء كحوران مثلاً أصابها الجدْب في مواسمها

الزراعية والشح في مواردها المائية ، فانطلق أهلها في البلدان نساء ورجالاً وأطفالاً يطلبون العيش الكفاف ويبغون الكسب الحلال ، فهل ذكرناهم في نكبتهم ؟ هل تصورنا مدى ما يعانون الآن من حرمان واهمال وعطش وجوع ؟ وفي أنحاء من وطننا العربي ثورات ونيران تتأجج ضد الاستعمار والطغيان ، حتى هدمت البيوت وشتتت الأسر ، وأعمل الظالمون في جماهيرنا المكافحة يد الابادة والافناء ، وأبطال الكفاح من رجالنا ، هجروا الراحة ، وفارقوا النعيم ، ونازلوا الباغي المستبد في أوج قوته بالسلاح القليل والعدد القليل ، وما يزالون يخوضون معارك الفداءليحرروا وطناً مستعبداً ، ويستردوا حرية سليبة، ويعيشوا كما تعيش كل أمة حية في ظل ظليل من الأمن والكرامة ، فماذا قدمنا لهم من قبل ؟ وماذا ننوي أن نفعل لهم في هذه الأعياد ؟ أغلب الظن أن مظاهر أفراحنا بالعيد بعد غد ستكون نفس المظاهر التي اعتدنا أن نقيمها في كل عيد ، كأن دنيانا لاتمتلىء بالكوارث والأرزاء ، وكأن أمتنا لا تقوم في بعض أجزائها مآتم الحزن على ضحاياها وشهدائها ، وأنا لا أريد من الناس أن يلبسوا ثياب الحداد في العيد ، ولا ذرف الدموع على شهداء الحق والحرية ، ولا الاعتكاف في البيوت كما يعتكف المرزوء بفقد حبيب أو قريب . ولا الامتناع عن الطعام والشراب كما يمتنع الصائم ، أنا لا أريد شيئاً من هذا ، ولكني أريد أن نظهر في أعيادنا بمظهر الأمة الواعية التي لا يحول احتفاؤها بذكرياتها الحبيبة وأعيادها الدينية ، دون الشعور بمصائبها التي يرزح تحتها فريق من أبنائها ، أريد أن نقتصد في لهونا وسرفنا ، لنوفر من ذلك ما تحتاج اليه أمتنا في صراعها الدامي المرير ، أريد أن نشعر بالاخاء قوياً في أيام العيد فنتحدث فيه عن نكبات اخواننا وجهادهم بما يقوي العزائم ويبسط الأيدي بالبذل والفداء ، أريد أن نقتصد في ضحكنا فتبدو على وجوهنا مسحة من الحزن الكريم الوقور يدل على مبلغ عنايتنا بقضايانا واهتمامنا

بما يجري في وطننا الكبير من أحداث ونكبات ، أريـد أن لاننسى فلسطين وطننا الجريح الذي يئن تحت أقدام الغزاة المتوحشين ، وأن لا ننسى شعبنا المشرد عنها تحت كل سماء يستجدي من الأمم خيمتـه ولقمته وكساءه ودواءه ، وأن لاننسى مغربنا العربي المجاهـد الذي ستشرق عليه شمس العيد وهو يشيع الشهداء ويسعف الجرحى ويواسي المنكوبين ويستعد لنزال الطغاة والمستبدين ، وأن لا ننسى الأخطار التي تتهدد أمتنا في شتى أقطارها من مؤامرات للاستعمار ، وقضاء على الحرية ، واضطهاد للأحرار ، واغتصاب للثروة التي تذهب الى جيوب المستعمرين لتزيد في ترفهم ومجونهم وقوتهم على حساب شعبنا الفقير المسكين .

أيها المستمع الكريم :

لاشك في أنك تستعد للعيد أباً كنت أو أماً ، زوجاً أو زوجـة ً، شاباً أو فتاة ً ولا شك في أنك تهيىء كل ما يستلزمه العيد من لباس وأكل ولهو ، فأضف الى استعدادك لمستلزمات العيد استعداداً آخر أكرم عند الله وأجدر في نظر الأخوة والمروءة ، هو استعدادك للتفريج عن كربة من حولك من البؤساء والمعدمين والمشردين ، فتش عن جارك أو قريبك أو أبناء شعبك واسأل عن حاجتهم ، وأعنهم في ادخال السرور على قلوب أولادهم ونسائهم ، افعل ذلك فان لم تستطعه فاسعفهم بالكلمة الطيبة والابتسامة الحانية . والخفقة الطاهرة من قلبك المؤمن ، واذكر مع هذا كله اخوانك في دنياك التي تفيض بالآلام ، واذكر في صبيحة العيد وأنت تقبّل أولادك ، وتأنس بزوجك ، ويجتمع شملك على الطعام الطيب والشراب البارد ، اذكر يتامى لا يجدون في تلك الصبيحة ابتسامة الأب ، وأيامى لا يجدن حنان الزوج ، أذكر جموعاً شردها الاستعمار والطغيان فاذا هي في أيام العيد تشرق بالدمع وتكتوي بالنار وتفقـد

طعم الراحة والأمن والاستقرار .. اذكر هذا كله ، اي أذكر نفسك ، فأنت حين تأسو جراح اخوانك انما تأسو جراحك ، وحين تسد حاجة جيرانك انما تسد حاجتك أنت ، وصدق الله اذ يقول **« وما تنفقوا من خير فلأ نفسكم ١ »** ، **« من عمل صالحاً فلنفسه ٢ »** .وبروحي صلى الله عليه وسلم ما أعظمه وأعظم تعليمه الناس الحب والخير والتعاون حين يقول : « من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .. والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه[3] » « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم [4] » . « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى [5] » .

اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك ، وأن نقوم بحق الأخوة علينا من عون واسعاف وأن نستجيب لندائك في البذل والفداء : لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. ان الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك ..

---

(١) البقرة : الآية ٢٧٢ (٢) فصلت : الآية ٤٦ (٣) رواه مسلم
(٤) رواه الحاكم (٥) رواه مسلم واحمد

بين جيلين

أذيع مساء الخميس : ٢٢ ذي الحجة ١٣٧٤
١١ آب ١٩٥٥

سنة الله في هذه الحياة أن تتطور دائماً وأبداً ، فهي في تغير مستمر في العادات والتقاليد ، وهي في تقدم مضطرد في الأفكار والآراء والعلوم ، وهي تسير من المجهول الى المعلوم في آفاق السماوات ، أو في طباق الأرض ، أو في طباع الناس • وسبيل هذا التطور في الأمة المستقرة الواعية سبيل الخير والنجاح ، وشأنها معه أن تتقبله بهدوء وحكمة واعتدال حتى تكون حياتها على تطور الزمن حلقة محكمة وسلسلة متصلة يأخذ آخرها بأولها من غير انقطاع ولا اضطراب ، وسبيله في الأمم المتأخرة أو الحديثة في نهضتها ويقظتها أن يحدث اضطراباً في خطاها ، وتبلبلاً في اتجاهها ، وتناقضاً في حياتها العامة : كما نشاهد ذلك في مجتمعنا الحاضر ، فلقد تطورت فيه أوضاع الحياة تطوراً سريعاً مدهشاً يكاد يفوق سرعة الزمن ، ووقفنا ازاء هذا التطور باهتين مشدوهين ، لا نعرف ما نأخذ ولا ما ندع ، ولا كيف نصل الماضي بالحاضر ، ولا كيف نوائم بين القديم والجديد ، حتى بدا مجتمعنا بشكل متناقض عجيب متنافر ، وأذكر أني كنت مرة مسافراً بين دمشق وبيروت فاجتازت بنا سيارة كان منظرها عجيباً •• كانت سائقة السيارة فتاة مكشوفة الذراعين بادية الصدر والشعر ، آخذة من الزينة بأتمها وأكملها ، وبجانبها أمها تبدو أكثر منها احتشاماً في لباسها تضع على رأسها (الايشارب) وتستر ذراعيها حتى الكفين •• وفي المقاعد الخلفية جدتها العجوز التي تسربلت بالرداء

الأسود من قرنها الى قدمها ، لا يبدو منها شعر ولا ظفر ولا سن ولا ناب!
وبجانبها الجد المسن الوقور تتوج رأسه عمامة صفراء ، وتزين وجهه لحية بيضاء ، وقد أمسك بيده السبحة يتلو ما يتذكر من القرآن أو يتيسر له من الذكر والدعاء .. كان منظر السيارة عجيباً حقاً ، اذ جمعت بين التقى والاثم ، والتزمت والتحرر ، والقديم والجديد .. حقاً لقد كانت هذه السيارة تمثل مجتمعنا تمام التمثيل ، فهو يتألف من جيلين يكادان يختلفان في كل مظاهر الحياة من عقيدة وعبادة وعادة ولباس ..

ففي العقيدة يبدو جيلنا القديم أكثر أيماناً بالله ، وأقوى اعتقاداً بالغيب ، وأشد اعتزازاً بمظاهر الدين ، أما جيلنا الجديد فأقل ثقة بالله ، وأضعف ركوناً الى عالم الغيب ، وأقل اعتزازاً بمظاهر التدين ، بل يكاد يكون انكار الدين وجحود الخالق علامة الفهم والرقي والظرف عند الكثيرين من شبابنا المتعلم اليوم .. وفي ميدان العبادة يحرص جيلنا القديم على كل شعائرها من صلاة وصيام وحج وزكاة وقراءة قرآن وتلاوة ذكر .. ولا يزال فينا من يذكر كيف كان الناس يستقبلون رمضان قبل شهرين من قدومه بكل مظاهر الأدب والتقوى ، ويصومون رجب وشعبان قبله ، ويتوبون فيهما من كل المعاصي والآثام ، فاذا جاء رمضان كانت له في البيوت فرحة ، وفي الأسواق ضجة ، وفي المساجد احتشاد ، حتى ليغص بالراكعين الساجدين والقارئين والذاكرين والعلماء والمتعلمين .. أما اليوم فلم يبق لرمضان من ذلك كله الا بقايا من تلك المظاهر لا تسمن ولا تغني من جوع . وحسبك أن تطوف ليالي رمضان في مجتمعات المدينة فترى الذين يؤمون الملاهي والمشارب أكثر من الذين يملؤون الأندية والمساجد .. وأراد جيلنا الحديث أن يشارك جيلنا القديم في العناية برمضان ، فزاد في حفلات السينما وفي سهرات المجون التي تسمى بالفن ، وأول ما تطالعك به اعلانات الصحف والشوارع في رمضان هذه العبارة التي أصبحت مألوفة (احتفالاً بشهر رمضان

تقيم دار سينما (كذا) أربع حفلات في اليوم •• واحتفالاً بشهر رمضان استقدم ملهى (كذا) أقوى الفرق الاستعراضية في الشرق) •• هكذا انقلبت العناية بمواسم العبادة من تقى الى فجور ومن نسك الى انطلاق •• وخذ مثلاً آخر موسم الحج ، فلقد كانت شهور الحج – يوم كان الحج بالجمل والقطار – شهوراً زاخرة بالحركة والزينة والأفراح وكانت عودة الحجاج أيام أعياد تشترك المدينة كلها فيها ، ولا أزال أذكر وأنا صغير كيف كانت المدينة كلها تخرج لاستقبال الحجاج في محطات القطار ، حتى اذا وصل القطار ونزل الحجاج أقبل عليهم النـاس يعانقونهم ، ويطلبون دعاءهم ، من عرفهم ومن لم يعرفهم ، ومن اتصل بهم من قبل ومن لم يتصل بهم ، ويظل الحاج منذ نزوله من القطار حتى وصوله الى بيته يستقبل المعانقين ماشياً في حر الشمس والناس من حوله ، لا هو يمل من الدعاء ولا هم يملون من التقبيل والعناق •• وتضاءلت هذه المظاهر في جيلنا الجديد الى أن أصبحت حبلاً من الكهرباء يضعه أهل الحاج على باب الدار ايذاناً بوصوله وتعريفاً بمنزله ، ويكاد لا يعرف أحد متى سافر ولا متى وصل •• وفي مجال العادات الاجتماعية لا يزال جيلنا القديم يعرف للجوار حقه ، وللزواج قدسيته ، وللقرابة حرمتها ، وللفقراء نصيبهم ، فانقلب ذلك في جيلنا الجديد الى أن لا يعرف الجار جاره ولو سئل عنه لما عرف كيف يدل عليه ، والى أن يرى في الزواج متعة جسم ومغتنم لذة ومظهر بذخ ، والى أن يتنكر للأقرباء فلا يزورهم الا ان زاروه ، وان كانوا في حاجة الى بره ومساعدته اجتواهم وأنكرهم وتبرم من لقياهم • والى أن يشغل بنفسه عن المحتاجين في المجتمع ، فلا يبالي أن ينفق الآلاف على ملذاته وهو يضن بالعشرات على مواطنيه وجيرانه وذوي قرابته •• وفي ميدان العادات في المـأكل والمشرب والمسكن والملبس حرص الجيل القديم على كل ما كان يألفه قبل التطور الحديث ، فهو يرى ركوب الحمار الأبيض أشهى من ركوب سيارة (الكادلاك) ،

والجلوس على الأرض أريح من الجلوس على الكرسي والمقعد ، والأكل باليد ألذّ من الأكل بالسكين والشوكة ، وفي اللباس الفضفاض السابغ أكرم من اللباس الضيق المنمنم •• بينما يحرص جيلنا الحديث على أن يأخذ بسرعة كل ما يقضي به التطور الجديـد ، فهو يأكل بالسكين والشوكة ، ويزري بمن يأكل بيده ، ويجلس على الكرسي ، ويحتقر من يجلس على الأرض ، ويلبس ما كاد يلتصق بجسده حتى لو أراد النسيم أن يمر بين لباسه وجسمه لما وجد اليه طريقاً ، ويستحسن اللباس المعبر عن أجزاء الجسم ويستخف بمن يلبس ما يستر تلك الأجزاء ••

هذا هو مجتمعنا في متناقضاته ، ولا أبالغ اذا قلت ـ وهو كثير يعلمه كل من اختلط بالمجتمع واطلع على دخائل الحياة العائلية الحديثة ـ ان البيت الواحد يجمع في الساعة الواحدة بين العجوز التي تصلي أو تقرأ القرآن ، وبين الفتاة التي ترقص على أعذب الألحان •• وبين المتحرج من أن يتطيب بالكلونيا لأنها نجسة على زعمه ، وبين الـذي يتصبح ويتمسى بالمسكرات يملأ بها جوفه ولا يبالي أن تسكب على ثيابـه وجسده ، وبين التي لا تخرج الى السوق الا وقد لفت نفسها بوشاح أسود لا تكاد تعرف أولها من آخرها ولا طولها من عرضها ، واذا مشت تمشي محترسة كأنها تخاف أن يأكلها الرجال ، واذا تكلمت تكلمت هامسة كأنما تخشى أن تسمعها الجان •• وبين الفتاة اللعوب التي تخرج وهي حريصة على أن يكون الذي يظهر من جسمها أكثر ممـا يخفى ، وأن تتثنى في مشيتها كأنها عروس تزف الى بعلها ليلة الزفاف ، وأن تتحرش بمن ترى من الرجال والشباب وتنظر اليهم بعيون جائعة ظامئة كأنما تقول لكل من يراها خذني ! • أستغفر الله ! فلقد أفحشت في الوصف حتى كدت أثير •• وأغربت في المقارنة حتى أوشكت أن أضحك ، وما هذا ذنبي ، انما هو المجتمع الذي أعيش فيه •• انما هي السيارة التي رأيتها بين دمشق وبيروت ! ••

وبعد فهذا هو التناقض في مجتمعنا الحاضر في عقائده وفي عاداته وفي تطوره يضاف الى ذلك التناقض بين حياة المدن والريف ، فبينما ترى في المدينة كل وسائل الترف والرفاهية اذا بك ترى حياة الريف جافة قاسية تبعث على السأم والملل •• وبينما ترى سكان المدن يأخذون بقسط من التعليم والتطبيب ، اذا بك ترى سكان القرى محرومين من أكثر ذلك ، وبينما ترى في الطبقة المترفة الغنية أحدث الأزياء وأجمل السيارات وأفخم الأبنية وأوسع مظاهر الاختلاط ، اذا بك ترى في الريف طرقات تمتلىء بالغبار صيفاً وبالوحل شتاءً •• وأزياء كما كانت في فجر التاريخ لم تتبدل ولم تتغير •• ومعيشة بدائية تكاد تذكر بحياة الانسان في العصر الحجري • ومن ظن في هذا مبالغة فليزر جبال العلويين وليوغل في زيارته ليرى كما رأيت ، كيف يعيش بعض سكانه في الأودية وعلى رؤوس الجبال •• كما كان يعيش الانسان الأول في الغابات والأدغال •• وما لي أذهب بعيداً فهذه مدننا الكبرى كدمشق أو حلب ، أترون مظاهر الحياة والمعيشة والعادات في أحيائها الفقيرة أو القديمة ، كمظاهر الحياة والمعيشة والأزياء والعادات في أحيائها الغنية أو الحديثة ؟ وهل تظنون أن كل سكان دمشق يعيشون على مستوى واحد مع سكان شارع أبي رمانة مثلاً ؟ أو أن كل سكان حلب يعيشون على مستوى واحد مع سكان حي الجميلية مثلاً ؟ •• أنا لم أذهب الى ديار الغرب لأستطيع أن أحكم : هل في كل عواصم العالم يوجد هذا التباين البعيد بين السكان في معيشتهم وأزيائهم وتطورهم ؟ ولكني زرت أكثر العواصم العربية وبعض العواصم الاسلامية ، وأستطيع كما حكمت على دمشق وحلب ، أن أحكم على بيروت والقاهرة وبغداد وعمان ومكة والرياض وكراتشي ولاهور بأن التباين في المستوى الاجتماعي وفي العادات والأزياء تباين شاسع بين سكان هذه العواصم يظهر فيه المجتمع العربي والاسلامي بشكل متنافر غير منسجم ويدل على

اضطراب المقاييس فيما نأخذ وندع من هذه الحضارة وهذا التطور الذي تقع الانسانية كلها تحت وطأته ..

والآن ما هو علاج هذه الفوضى ؟ ومع أي الفئتين ينبغي أن نكون ؟ أنكون مع الجيل القديم في محافظته وتزمته وروحانيته واستمساكه بعقيدته ؟ أم نكون مع الجيل الجديد في ثورته وتطرفه وماديته ولا مبالاته بعقائده وتقاليد أمته ؟ أنخضع لسنة التطور خضوعاً أعمى فلا تكون لنا ارادة فيما نأخذ وندع ؟ أم نقاوم هذا التطور بكل قسوة لتجرفنا الحياة بعد ذلك بكل ما فيها من أوساخ دون أن نستطيع المقاومة ؟

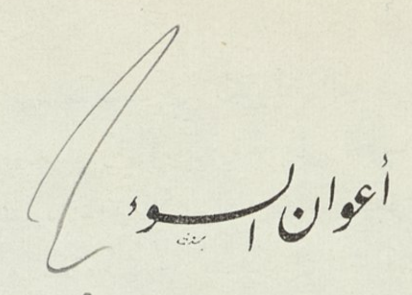
الحق أن مقاومة التطور عبث ، والاستسلام له انتحار .. فتقاليدنا وأوضاعنا الاجتماعية ليست كلها سيئة ولا كلها خيراً .. وما تأتينا به هذه الحضارة ليس كله خيراً ولا كله شراً .. انني لست من الذين يحزنون على انقراض بعض تقاليدنا وأوضاعنا البالية فلست أجزع مثلاً لانقراض عادة استقبال الحجاج من المحطة الى البيت مشياً على الأقدام في حر الظهيرة ؟ اذ لا أجد لذلك مسوغاً من دين ولا شريعة ولا سنة مأثورة ولا عقل ولا حكمة ، ولست أريد أن نستبقي على بعض العادات في معاملة نسائنا وعزلهن عن الحياة حتى كأنهن غرابيب سود لا يفقهن من الحياة شيئاً ولا يجرؤن على الخروج من البيت الا وجلات حذرات ! فلقد كانت أمهاتنا في عصور الخير يتعلمن ويُعلِّمن ويقاتلن في سبيل الله ويُسعفن ويواسين !

أجل لست جزعاً على انقراض بعض العادات التي هي وليدة الجهل والغفلة والانحطاط والانحراف عن الدين والبلادة في فهمه ، ولكني جزع من هذا الارتماء في أحضان الحضارة الى حيث نفقد كل وعي ، وتذوب لنا كل شخصية ، وتنمحي لنا كل معالم الخير في حياتنا ، وتتخلى عن كل مقومات العزة والقوة في تراثنا وتاريخنا .

نستطيع أن نكون حكماء في خطوا تالتطور فنأخذ ما هو سنة الله في ميادين العلم والفكر والاختراع ووسائل الحياة التي لا بد منها .. ونحافظ في الوقت ذاته على تقاليدنا الصالحة الكريمة التي انبثقت عن عقيدتنا ، وانسجمت مع أخلاقنا ، وانطبعت بها أمتنا في التاريخ القديم والحديث فاذا هي خير أمة أخرجت للناس .. ان في هذا القول اجمالاً كبيراً وأنا أعلم أنه لا يروي غلة المستمع ولكن الوقت لا يتسع في هذا الحديث لأكثر مما قلت وحسبي في ختام هذا الحديث أن أوجه أنظار العلماء والمصلحين والأخلاقيين وقادة النهضة في البلاد الى وجوب تصحيح المقاييس في خطوات نهضتنا الحاضرة ، فليس من الخير أبداً أن نضل الطريق السوي الى حياة كريمة عزيزة في خضم هذه الآراء والأزياء والعادات التي تغمرنا بها الحضارة الحديثة ، وليس من الخير أن يبدو مجتمعنا بهذا الشكل مظهراً من مظاهر التناقض العجيب المضحك فيه من بقايا عصر نوح ومن حياة هوليود ما لا يمكن أن يعيشا جنباً الى جنب ، فلماذا لا نهتم مسؤولين وعلماء وزعماء ومفكرين في ايجاد حياة منسجمة نجمع فيها بين خير الماضي واستقامته وطهارته ، وبين علم الحاضر وتطوره ورفاهيته ؟

ان الله دعانا الى ذلك قبل أربعة عشر قرناً حين قال « **فبشر عباد : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** [1] » ودعانا الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « الحكمةُ ضالةُ المؤمن يلتقطها أنّى وجدها [2] » فهل نحرص في تطورنا على أن نأخذ أحسن القول ونلتقط أثمن الحكمة ؟

(١) الزمر : الآية ١٧ ، ١٨



أذيع مساء الخميس : ٢٩ من ذي الحجة ١٣٧٤
١٨ من آب ١٩٥٥

لا يعدم الرؤساء والزعماء في كل عصر من يتملق لهم ويتقرب اليهم بالمديح الكاذب والثناء الباطل ، والناس بطبيعتهم ميالون الى من ينفعهم ويقضي اربتهم ويغدق عليهم ويمنحهم الجاه والنفوذ ، فاذا أتيح لهم رئيس يستمع اليهم ويحقق لهم ما يطلبون كالوا له المديح صادقه وكاذبه، وأعطوه الثناء حقه وباطله ، فان استمسك الرؤساء بالحق واعتصموا بالعدل ، وتزودوا بالتقوى كان ذلك خيراً لهم ولأمتهم ، وان بسطوا للمتملقين بساط الأنس ، وأسبغوا عليهم ثوب الحماية كان ذلك شراً لهم ولأمتهم .. والأمة التي لم تستقم أخلاقها الاجتماعية على سنن الحق يكثر فيها المتملقون للرؤساء والأقوياء ، وهم دائماً صنفان من الناس : صنف يطمع في المال يملأ به جيبه ويرفه به عيشه ، وصنف يطمع في الجاه يبسط به نفوذه ويحقق عن سبيلـه شهوته ! وكثرة هـؤلاء في المجتمع دليل انتكاس المجتمع في أخلاقه وسلوكه .. ونـذير شؤم للرؤساء والشعب على السواء .

أما الرؤساء فان أعوان السوء يسيئون اليهم بما يرتكبون من جرائم، وما يأكلون من حق ، وما يخرقون من قانون ، معتمدين على نصرة هؤلاء الرؤساء لهم وحمايتهم من عقوبة القانون وسلطان الدولة .. ثم هـم يسيئون الى الشعب بما يزينون للرؤساء من شر وما يخفون عنهم من حقائق ، وما يكتمون عنهم من نصيحة .. وهكذا يكون أعوان السوء سبباً في افساد أخلاق الأمة وافساد الحياة السياسية والاجتماعية فيها..

ونستطيع أن نرد مآسينا في التاريخ القديم الى أعوان السوء لدى الخلفاء والملوك والأمراء والأقوياء .. يأتي أحـد هؤلاء الى الحكم أو يؤتى به اليه فيحيط به ذوو الأهواء ودعاة الفجور وخبثاءالنية وأصحاب الأهواء والمطامع والشهوات ، ويسلكون للتمكن من نفسه كل سبيل ، ويدخلون الى محبته من كل باب ، حتى اذا استأثروا برضاه أعملوا بأموال الأمة يد السلب والنهب ، واعتدوا على أعراض الناس وكراماتهم، فيتذمر الناس من الحكم القائم ، وتمتلىء صدورهم بالحقد والضغينة على الخليفة أو الرئيس الحاكم ، ويحجب هؤلاء الأعوان عنه أنبـاء التذمر ويوهمونه برضا الشعب وتقديره ، فما هي الا الثورة ترفع رأسها أو الفتنة تمد لهيبها ، وتكون الكارثة ويكون الانهيار ..

ان الثورة على عثمان رضي الله عنه كانت باغية حمل لواءها رؤوس الشر في عصر الخليفة المظلوم ، ولكن بعض أسبابها كان من حاشيتـه وأعوانه ، اذ كانوا يتصرفون في الأمور بدون علمه ، ويكتمون عنـه الحق مستغلين تقدم سنه .. وهكذا أريق دم أول خليفة مسلم على يد بعض المسلمين بما مهد لذلك أعوانه من أسباب النقمة في نفوس الناس حتى استغلها بعض الأشرار .. ونحن نعلـم ما كان من مآسي الولايـة بالعهد لولدين من أولاد الخليفة معاً . كما حصل ذلك في العصرالأموي والعصر العباسي ، فهل كانت تقع هذه الفتن التي تنشأ بين أخوين فتنقسم الأمة الى معسكرين يقتل أحدهما الآخر ، لولا أن الخليفة كان من حوله من يغرية بارتكاب هذا الأثم الشنيع والخطأ البالغ ؟

دخل الامام الزهري من كبار أئمة المسلمين في القرن الثاني الهجري على هشام بن عبد الملك فقال له هشام : يا أبا عبد الله ، ما حديث يحدثنا به أهل الشام (أي أنصاره وأعوانه منهم) ؟. قال ماهو يا أمير المؤمنين؟ قال انهم يحدثوننا بأن الله اذا استرعى راع رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيئات .. فقال الزهري : باطل وكذب يا أمير المؤمنين ..

أنبي خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي ؟ فقال بل نبي خليفة ، قال الزهري : فان الله يقول لداود عليه السلام « **يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** [1] » .

فهذا يا أمير المؤمنين وعيد الله لنبي خليفة فكيف بخليفة غير نبي ؟ فقال هشام : ان الناس ليغوونا عن ديننا ! هذا مثل يدلكم على ما يفعل أعوان السوء من تزيين الظلم والعدوان للرؤساء والخلفاء .. ولولا أن الله كان يرزق الأمة في كل عصر ألسنةً صداعة بالحق ، لا تخشى في الله لومة لائم ، لازدادت المآسي في تاريخنا القديم ولكان العدوان والفساد أشد وقعاً وأكثر انتشاراً ..

وتاريخنا الحديث يفيض بمآسي أعوان السوء للرؤساء والزعماء .. ولقد شهدنا نحن أبناء هذا الجيل بأعيننا كيف زالت عروش، وانهارت زعامات ، بتأثير الحاشية الآثمة المجرمة التي كانت تحيط بالملك أو الرئيس .. ومن المؤسف أن الأقلام المرتزقة لا تزال تمد شباكها الى كل رئيس ، والبطون النهمة لا تزال تطمع في كل زعيم ، والمستغلون والمتملقون ما يزالون يلعبون أدوارهم في التملق الكاذب لكل حاكم ، والتشجيع الآثم لكل مستبد ، حتى ضاعت المقاييس الأخلاقية الصحيحة في غمرة الأقلام الرخيصة المتاجرة بالمبادىء ، المترامية على أقدام كل حاكم .. وان ما نشهده اليوم من اضطراب الحياة السياسية في عالمنا العربي الاسلامي مرده الى اضطراب أخلاقنا الاجتماعية التي يفسدها هؤلاء الأعوان من مستغلين ومتملقين .. ومن هنا كان من واجب الرؤساء والزعماء أن يحسنوا اختيار أعوانهم وأنصارهم ، وأن يختبروا أخلاقهم قبل الاعتماد عليهم ، وأن لا يغروا بالثناء والمديح ، فما يغر الثناءُ الرجالَ

---

(1) ص : الآية ٢٦

الا اذا نامت فيهم عقولهم ورجولتهم ، ويرحم الله شوقي حين يقول :
والغواني يغرهن الثناء ..

ومن واجب الرؤساء أن يستمعوا الى نصح الناصحين ووعظ المخلصين ، وأن لايستوحشوا من صراحة الحق ولو وجدوا طعمه مراً في حلوقهم ، فالله تعالى يقول «**كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ١ »، ولقد قال رجل لعمر بن الخطاب يوماً يا أمير المؤمنين : اتق الله ! فقال له بعض جلسائه : أتقول هذا لأمير المؤمنين ؟ فقال عمر : دعه فليقلها لا خير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خير فينا اذا لم نقبلها .. هكذا يفعل الرئيس الناصح لدينه وأمته المراقب لله في سره وعلانيته ..

ومن واجب أهل الخير أن يحيطوا بالرئيس أو الزعيم ينصحونه ويذكرونه ويجهرون له بالحق ويثنونه عن الخطأ والانحراف مهما كان ذلك مكروهاً لمن ينصحونه أو يعظونه .. ونتيجة هذا النصح لن تكون الا خيراً للمنصوح والناصح ، فان استمع الرئيس الى كلمة الحق كفى الله الأمة شر أخطائه وسيئاته ، وان لم يفعل كان عليه الاثم وله سوء العاقبة وحسب الناصح رضا الله وراحة الضمير .

لما ولي ابن هبيرة حكم العراق جمع فقهاءها واستشارهم فيما يفعل اذا أمره أمير المؤمنين بالأمر وهو يعتقد أن فيه ظلماً ، فألان له بعض العلماء القول ، وأبى الحسنُ البصري رحمه الله الا أن يصدع بالحق ، وينقذ الشعب من ظلم ابن هبيرة ، وينقذ ابن هبيرة من عذاب الله ، فقال له : ان حق الرعية لازم لك ، وحقٌ عليك أن تحوطهم بالنصيحة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استرعى رعية فلم يحطها

---

(١) النساء : الآية ١٣٤

بالنصيحة حرّم الله عليه الجنة [1] » . واعلم أن حق الله ألزم من حق أمير المؤمنين والله أحق أن يطاع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، يا ابن هبيرة ! اتق الله فانه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك ، فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على عملك ، يا ابن هبيرة ! ان الله ليمنعك من أمير المؤمنين ولا يمنعك أمير المؤمنين من الله ، وان أمر الله فوق كل أمر واني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين . فقال ابن هبيرة : أربع على ظلعك أيها الشيخ ، وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين ، فان أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل ، وانما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الأمة لعلمه به ومايعلمه من فضله ونيته ، فقال الحسن : يا ابن هبيرة ، الحساب من ورائك : سوط بسوط ، وغضب بغضب ، والله بالمرصاد .. انك ان تلق من ينصح لك في دينك ، ويحملك على أمر آخرتك ، خير من أن تلقى رجلاً يغرك ويمنّيك ، فقام ابن هبيرة من المجلس وقد اصفر وجهه وتغير لونه ، وقام الحسن وقد أرضى ربه وأخلص لأمته ..

ودخل الأوزاعي على المنصور بعد استخلافه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت مسؤولاً عنهم ، وكلٌ له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك اذا انبعث منهم فئام وراء فئام ، وليس منهم أحد الا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها اليه ؟ .. يا أمير المؤمنين لقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبريل فقال له : يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعباً ؟ فكيف يا أمير المؤمنين بمن شقق أستارهم ،

وسفك دماءهم ، وخرّب ديارهم ، وأجلاهم عن بلادهم ، وغيّبهم الخوف منه ؟ يا أمير المؤمنين : رض نفسك لنفسك ، وخذ لها الأمان من ربك ، واعلم أن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل اليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك .. يا أمير المؤمنين : ان أشد الشدة القيام لله بحقه ، وان أكرم الكرم عند الله التقوى ، وانه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه ، فهذه نصيحتي اليك والسلام عليك .. فقال له المنصور : لقد شكرت لك نصيحتك وقبلتها ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، وبه أستعين وعليه أتوكل ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، فلا تخلني من مطالعتك اياي بمثل هذا فأنت المقبول القول غير المتهم في النصيحة ، فقال الأوزاعي : أفعل ان شاء الله ثم خرج .. وحج المنصور بعد ذلك فسمع رجلاً يقول في الطواف : اللهم اني أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع .. فاستدعاه فقال له : ما هذا الذي تدعو به ؟ ومن الذي دخله الطمع والظلم ؟. فقال الرجل : ان الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ، واصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض هو أنت !.. قال المنصور ، ويحك ! وكيف يدخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي ؟ قال يا أمير المؤمنين : ان الله استرعاك أمور رعيته وأموالهم ، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حُجّاباً معهم السلاح واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة ، ان نسيت لم يذكّروك ، وان ذكرت لم يعينوك ، وقالوا هذا قد خان الله فمالنا لا نخونه وقد سخر لنا ؟ فأتمروا على أن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شيء الا ما أرادوا ، وألا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمراً الا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فما

بقاء الاسلام وأهله على هذا ؟ فقا لالمنصور : كيف أفعل ونم أر من الناس الا خائناً ؟ قال الرجل : الزم الحق يتبعك أهله ، وانتصر للمظلوم من الظالم ، وامنع المظالم ، وأنا ضامن على أن من هرب منك من أهل الخير أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك ، فقال المنصور اللهم وفقني لذلك .

أما بعد ، فما أحوج رؤساءنا اليوم الى أعوان صدق ينصحون ولا يغشون ، ويصدقون ولا يكذبون ، وما أحوجهم الى أقلام صدق تثني بالحق ، وتقتصد في المدح ، وتبصر بالعيوب من غير تشهير ، وتنتقد الأخطاء من غير تهديم ، وما أحوجنا الى تعاون مخلص بين الرؤساء وأهل الخير والحق والاخلاص والاستقامة حتى تسمو أخلاقنا الاجتماعية عن النفاق المزري والتملق المخجل ، والتعصب الضار ، والمعارضة التي تهدم ولا تبني ، وتسيء ولا تحسن .

اللهم ألهمنا الرشد ، واكتب لنا الخير ، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

بين الموظفين والشعب

أذيع مساء الخميس : ٦ من المحرم ١٣٧٥
٢٥ من آب ١٩٥٥

من مظاهر الرقي والسعادة في كل أمة ، انتظام الجهاز الاداري في الدولة ، بحيث يؤدي غايته : من تأمين العدالة ، وتوفير الأمن ، وردع العدوان ، ونشر السلام ، وايصال كل ذي حق الى حقه ، وانما يتم ذلك بأمرين اثنين : رئاسة حازمة عادلة لا تغفل عن مكافأة المحسن ومعاقبة المسيء من الموظفين ، وموظفين أكفاء يملؤون وظائفهم بعلمهم وخلقهم وأماناتهم ونشاطهم ، فاذا توفر للدولة هذان الأمران كان جهازها الاداري من أقوى عوامل الرخاء والعزة لشعبها .

أما الرئاسة ولا نعني بها الرئاسة العليا في الدولة فحسب ، بل هي رئاسة كل دائرة من دوائر الدولة ، فاتصافها بالحزم واليقظة أمر لابد منه لانتظام الجهاز الاداري ، وما زال الحزم قديماً وحديثاً من أبرز الصفات المطلوبة في الرؤساء .. وما زال الضعف والتردد من أسوأ ما يتصفون به ، وقد قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم **« وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ١ »** وبعض الناس يفهمون من الحزم الاستبداد ، وهذا خطأ بيِّن ، فقد يكون الحزم مع أرقى النظم الديمقراطية البرلمانية ، وان شخصية الرئيس الحازمة لتبعث الهيبة والنشاط في نفوس الموظفين ، وتجعل الجهاز الاداري قوياً ينهض بالأعباء الملقاة عليه في أقصر وقت

---

(١) آل عمران : الآية ٥٩

وأكمل عمل . وحسبنا أن نذكر في هذا المقام حزم أبي بكر في النهوض لقتال المرتدين والثائرين بعد وفاةالرسول ، حيث تردد الصحابة ــ وفيهم عمر ــ في اتخاذ هذه الخطوة الجريئة خوفاً من عواقبها ، وكان مما قاله يومئذ أبو بكر : « أيها الناس : والله لو أفردت من بينكم جميعاً لقاتلتهم وحدي ولو علمت أن السباع تجرني من رجلي » .. وكان لحزمه هذا وتصميمه أثر كبير في القضاء على الفتنة بأقصر وقت وأكبر نصر .. ومما يذكر هنا أن الوليد بن عبد الملك أرسل الى الحجاج يأمره أن يكتب اليه بسياسته فكتب اليه : اني أيقظت رأيي وأنمت هواي ، فأدنيت السيد المطاع في قومه ، ووليت الحر ب (الشجاع الشديد) الحازم في أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً أعطيه حظاً من تكليف عنايتي ونظري ، وصرفت السيف الى النطَف المسيء (المتهم بريبة) والثواب الى المحسن البريء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب .. وهذا لعمري دستور الحكم الحازم الناجح ، ودعك من الحجاج وعسفه وظلمه ، فانه هنا في كتابه قد وضع الأساس القوي الصالح لنجاح الحاكم في يقظته وحزمه ..

ويقظة الرئيس في مراقبة موظفيه والاحاطة بسيرتهم وسلوكهم من أبرز مظاهر الحزم ، ومن المشاهد التي تجزم بها التجربة أن الدائرة أو الوزارة التي ترزق رئيساً يقظاً يراقب موظفيه ، تكون من أقوى دوائر الدولة عملاً واستقامة وأنجحها وأنفعها للناس .. وحين يذكر التاريخ عمر بالاكبار والاعجاب يضع في مقدمة صفاته التي مكنت له من النجاح في ادارة رقعة الدولة الاسلامية الواسعة في عهده ، حزمه ويقظته .. فلقد كانت عيناه لا تغفل عن مراقبة عماله مهما نأت بهم الديار ، حتى كان كل موظف وخاصة الولاة والقواد وجباة الخراج يعتقد أن عين عمر وراءه فى كل حركة وسكنة ، وكان يرسل مفتشين الى الأمصار يسألون

عن أحوال الموظفين وأماناتهم واستقامتهم حتى كان ــ كما قال الجاحظ ــ « علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد ، فلم يكن في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير جيش الا وعليه له عين لا يفارقه ماوجده ، فكانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده في كل ممسى ومصبح ، وأنت ترى ذلك في كتبه الى عماله ، حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق اليه وأخصهم به » • كتب الى أبي موسى الأشعري وقد كان واليه على الكوفة : « قد بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فاياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم الا السمن وانما حتفها في السمن ، واعلم أن العامل (أي الرئيس والوالي) اذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقي الناس به » • وكان من عادة عمر اذا ولى رجلاً عملاً من الأعمال أحصى أمواله ثم حاسبه بعد ذلك ، فما وجد من زيادة على راتبه أخذه منه وقاسمه ، وبذلك قاسم كبار الصحابة والفاتحين أموالهم ، فقاسم أبا هريرة ، والنعمان بن عدي ، ونافع بن عمرو ، ويعلى بن منيه ، كما قاسم عمرو بن العاص وهو فاتح مصر ، وخالد بن الوليد وهو فاتح الشام ، وسعد بن أبي وقاص وهو فاتح العراق •• وهكذا استطاع عمر أن يكون أعدل وأنجح وأحزم حاكم عرفه التاريخ •

اننا نذكر هذا لنقارن بينه وبين ما يقع اليوم من كثير من الوزراء ورؤساء الدواوين ، اذ يهملون محاسبة موظفيهم ، ويتركون لهم حبلهم على غاربهم ، فيعتقدون الأموال الوافرة ، وتفشو لهم هيئة في لباسهم ومسكنهم ومعيشتهم ليست لعامة الناس ، وتقوم لهم الأبنية الفخمة والقصور الشاهقة والضياع ذات الغلة الوافرة والنتاج الكثير ، ثم لا يسألهم رؤساؤهم عن مصادر هذه الثروة وأسباب ما يرتعون فيه من نعمة ، بعد أن تلوك الألسنة سمعتهم وأماناتهم ، فتزول هيبة الحكم من

نفوس الشعب ، ويظن الناس أن الوظيفة باب من أبواب الثروة الواسعة عن أقرب طريق .. ولو وجد هؤلاء الموظفون ما كان يجده أسلافهم في عهد عمر وأمثاله ، من محاسبة على أموالهم ، ومراقبة لتصرفاتهم، لاستقام الأمر في الدولة ولعظمت هيبة الحكم في النفوس .. وهؤلاء الرؤساء المقصرون في مراقبة موظفيهم ، بين أمين عفيف ولكنه لا يريد أن يصدع بالحق ويوقف المتجاوزين عند حدودهم ، ويؤثر السلامة والصداقة مع موظفيه على صيانة أموال الشعب وحفظ هيبة الدولة ، وبين منحرف يمد يده الى أموال الناس ، فيرى فيه موظفوه قدوة تشجعهم على العدوان أو الاهمال أو التبذير في أموال الدولة ، فيقولون : هذا قد خان أمانة الشعب فما لنا لا نخون ؟ وأكل أموال الدولة فما لنا لا نأكل ؟ .. ولن يستقيم الأمر في الدولة حتى يقوم الرؤساء بواجبهم في مراقبة الموظفين، ويفضلوا صداقتهم للحق واخلاصهم للشعب على صداقتهم للموظفين وحسن صلتهم بهم .. ويومئذ يقطع دابر الرشوة والسرقة والاهمال في دوائر الدولة وهو ما يشكو منه الناس ، وهو ما يعلن المصلحون من الحاكمين عجزهم عن اصلاحه واجتثاث جذوره ، ولو صدقت العزائم ، وخلصت النيات ، وطهرت الأيدي المشرفة على جهاز الدولة ، لانمحى أثر الفساد في أمد قليل ..

هذا هو ما يجب أن يتصف به الرؤساء ، وأما ما يجب أن يتصف به الموظفون فهو كثير لا يحصى في مثل هذا الحديث .. وأهمه الصدق ، وحسن المعاملة ، وانجاز الأعمال بسرعة ، واتقانها ، والبعد عن التحيز وقبول الوساطات ، وتوخي مصلحة الناس في كل ما يوكل اليهم من عمل .. انها صفات رئيسية يجمعها وصف واحد هو أن يذكر الموظف دائماً أنه أجير للشعب مراقب من الله عز وجل .. دخل أبو حازم على معاوية وحوله كبار رجال الدولة فقال له : السلام عليك أيها الاجير !. فعجب الحاضرون وقالوا انما هو أمير المؤمنين ، فكرر نداءه بقوله :

السلام عليك أيها الاجير ، فعادوا ينبهونه الى أنه أمير المؤمنين ، فقال لهم بل هو الأجير ! ثم التفت الى معاوية وقال له : اعلم يا معاوية أنك أجير لهذه الأمة ، استأجرك ربك لرعايتها ، فان أنت أحسنت الرعاية وفاك ربك أجرك ، وان أنت أسأتها عاقبك وشدد عقوبتك .. هكذا يجب أن تفهم الوظيفة في الدولة : خدمة للشعب لا استعلاء عليه وترفعاً عنه . كان أبو بكر يقول : اني وليت عليكم ولست بخيركم ، وكان عمر يقول : انما أنا واحد منكم ولكني أكثركم مسؤولية وواجباً ، ومثل هذا الخلق الاجتماعي العظيم هو الذي يجعل للدولة قوتها وللحكم سلطانه ، وهو الذي يجعل قلوب الشعب تهفو الى موظفيه ورؤسائه .. وحين يعلم الناس أن الموظف يشعر بهذا الشعور ، تخضع له نفوسهم ، وتتفتح له قلوبهم ، ويتملكهم الحب له والرهبة منه والركون اليه ..ويوم فقد هذا المعنى من نفوس الناس ، وأصبح الموظفون يرون لأنفسهم من المكانة ما ليس لسائر الشعب ، ومن الحق ما يعلو حق المواطنين ، ابتعدت عنهم القلوب ، وغدوا في الأعين سوط عذاب ، أو مظهر نقمة ، أو أداة عسف وبغي وعناء .. ومن المؤسف أن كثيراً من موظفينا ينسون أنهم أجراء الشعب ..فترى أحدهم يأتي الى دائرته في الصباح ، فيأخذ قسطاً كبيراً من الوقت في شرب القهوة وقراءة الصحف والتحدث الى زملائه ، بينما يكون اصحاب الحاجات وقوفا على بابه على أحر من الجمر ينتظرون انهاء معاملاتهم .. حتى اذا فرغ من ذلك استقبل أصحابه في الدائرة ، وقضى معهم وقتاً طويلا في الأحاديث التي لا صلة لها بوظيفته وعمله ، فما يكاد يدخل عليه صاحب الحاجة حتى ينتهره ويقول له : ارجع غداً.. انها كلمة هينة يقولها هذا الموظف لا تكلفه الا تحريك شفتيه ، ولكنها تكلف هذا الشخص المسكين — وكثيراً ما يكون غريباً عن البلد — نفقة الفندق والطعام وعطلة العمل ، عدا عن القلق النفسي الذي يشعر به كل من له حاجة في دوائر الحكومة .. أفترون مثل هذا الموظف الذي يفعل

هذا ، قد ذكر واجبه وقام بحق الوظيفة ؟ كلا •• انه نسي حين ينتهر ابن الشعب ويؤخر له عمله ، أن فنجان القهوة الذي يشربه ، والصحيفة التي أضاع في قراءتها الوقت ، انما أخذ ثمنهما من جيب الذي انتهره وأخَّر عمله •• ولولا هذا الشعب وما يدفعه للدولة من ضرائب ، لما استطاع هذا الموظف أن يشرب فنجان القهوة الذي يشربه كل صباح •• وأسوأ ما يتصف به الموظف أن لاينهي معاملة الا بعد الوساطة والزلفى ، ومن هنا كثرت الوساطات ، وأزعج النواب والوزراء وذوو المكانة الاجتماعية بطلب البطاقات التي تشفع لحاملها لدى الموظفين في سرعة البت بمعاملاتهم •• ان هذا مظهر من مظاهر الفساد الاجتماعي ، لا يدل على رقي ولا على يقظة ضمير •• لقد كنا نضيق ذرعا بمن يطلب منا الوساطات والبطاقات ، وكنا نلقي باللوم على الشعب ، ولكنا وجدنا بعد أن رأينا وضع الجهاز الحكومي ونفسيات أكثر الموظفين ، أن الشعب معذور ، وأن اللوم كله على هؤلاء الموظفين •• ان طالب الحاجة أرعن كما يقولون ، ولو كان واثقاً من أنه سيصل الى حقه دون وساطة لما أراق ماء وجهه في طلب الشفاعات •• وكيف لا يفعل ذلك وهو يرى بطاقة الوزير أوالنائب أو الوجيه الكبير •• تفعل فعل السحر لدى هؤلاء الموظفين ؟

هذا بعض ما يذكر عن أخلاقنا الاجتماعية في الوظائف ، فليذكر الموظفون أن اضطراب الأمر في دواوينهم ، اضطراب للحياة في مجتمع أمتهم ، وأن سوء الأمانة وسوء الخلق وسوء المعاملة لا تزيدهم عند الناس الا بغضاً وعند الله الا مقتاً •• وان الرجل الكريم لاتزيده الوظيفة الا تواضعاً والرجل اللئيم لا تزيده الا تكبراً •• وقد قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم **« ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك [1] »**

---

(١) آل عمران : الآية ١٥٩

هذا وهو الرسول الأمين المؤيد بوحي السماء ، فكيف بمن عداه من الناس ؟ . لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل الى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب فقال لهما : أشيرا عليّ فقال له سالم : اجعل الناس أباً وأخاً وابناً ، فبرّ أباك واحفظ أخاك وارحم ابنك ، وقال له محمد بن كعب : أحبب للناس ما تحب لنفسك ، وأكره لهم ما تكره لنفسك ..

أما بعد ، فهذا آخر ما نتحدث به في سلسلة أخلاقنا الاجتماعية ، لم نذكر فيها الاما ينبغي أن يذكر ، وحسبنا أن نتذكر جميعاً أن أخلاقنا الاجتماعية هي عنوان ما عندنا من خير أو شر ومن قوة أو ضعف ، ان القلوب لا يعلمها الا الله ، وانما يحكم الناس على الأعمال ، فاذا ساءنا أن يتنكر اعداؤنا لحقنا ، ويستهزؤا بقيمتنا ، ويعتدوا على كرامتنا ، فلنعلم ان ذلك من صنع أيدينا ، وأن مرد ذلك الى ما يبدو لهؤلاء الاعداء من أخلاقنا وسلوكنا ، فاذا أردنا أن يحترمنا الناس فلنحترم أنفسنا ، لنسمُ بأخلاقنا الاجتماعية الى حيث أراد الله لنا أن نكون « **خير أمة أخرجت للناس** » .

رسالة العلماء

انما يخشى الله من عباده العلماء (١)

واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون (٢)

اذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وألهمه رشده (٣)

العلم علمان : علم في القلب فذاك العلم النافع ، وعلم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم (٤)

من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه الا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرَف الجنة (يعني ريحها) (٥)

مامن رجل يحفظ علماً فيكتمه الا أتى يوم القيامة ملجوماً بلجام من نار (٦)

مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه (٧)

اني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، فأما المؤمن فيحجزه ايمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون (٨)

---

(١) فاطر : ٢٨ (٢) آل عمران : ١٨٨ (٣) رواه البزار والطبراني في الكبير

(٤) رواه الخطيب في تاريخه وابن عبد البر عن الحسن مرسلاً (٥) رواه ابوداود وابن ماجه

(٦) رواه ابن ماجه (٧) رواه الطبراني في الكبير (٨) رواه الطبراني في الصغير والاوسط

صنفان اذا صلحا صلح الناس : الأمراء والفقهاء ((الاصمعي))

قيل للشعبي : أفتني أيها العالم ! فقال : انما العالم من اتقى الله !

لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلوه لاهل الدنيا لينالوا من دنياهم فهانوا على أهلها

((عبد الله بن مسعود))

العالم اذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلب كما يزل الماء عن الصفا

((مالك بن دينار))

كان العلماء ربيع الناس ، اذا رآهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً ، واذا نظر اليهم الفقير لم يود أن يكون غنياً ، وقد صاروا اليوم فتنة للناس

((الفضيل بن عياض))

لأن تطلب الدنيا بأقبح مما تطلب الآخرة ، خير من أن تطلبها بأحسن مما تطلب به الآخرة

((محمد بن واسع))

ان من شيوخي من أستسقى بهم المطر ، ولا أقبل حديثهم (أي لغفلتهم فيأخذون عن الكذابين)

((مالك بن أنس))

سئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب فقال : كان والله أفضل من أن يَخدع ، وأعقل من أن يُخدع ، وهو القائل : لست بخب والخب لا يخدعني !

سئل خالد بن صفوان عن الحسن البصري فقال : كان أشبه الناس علانية بسريرة ، وسريرة بعلانية ، وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره ، ياله من رجل استغنى عما في أيدي الناس من دنياهم ، واحتاجوا الى ما في يديه من دينهم

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل لابيه : أي رجل كان الشافعي ؟ فاني سمعتك تكثر من الدعاء له ! فقال له : يابني ! كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض ؟

هذه كلمات من كتاب الله وحديث رسوله والسلف الصالح ، تحدد مهمة العالم ورسالته وأخلاقه ، وما ينبغي أن يكون عليه بينه وبين الله ، وبينه وبين الناس • ونستطيع أن نوجز القول في رسالة العالم بأنها : فهم الشريعة وتفهيمها ، وحفظها على الناس من تحريف المبطلين وعدوان الظالمين ، ونستطيع أن نوجز القول في خلق العالم بأنه : خشية من الله ، واشفاق على الناس ، ونصح لأولي الأمر ، ووقوف في وجوه الطغاة ، وتجرد عن حظوظ النفس وشهواتها ، ويقظة في مداخل الأمور ومخارجها ، واستهانة بالأخطار في سبيل الله عز وجل •

ولقد كان سلفنا الصالح منذ عصر الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، تغلب في علمائهم هذه الصفات ، فكانوا مبعث خير ، ومصابيح هداية ، وأدلة طريق ، كانوا كما قال أحمد في الشافعي : « كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن » وما بلغوا هذا المبلغ في أمتهم الا لأنهم كانوا كما قال خالد بن صفوان في الحسن البصري : « أشبه الناس علانية بسريرة ، وسريرة بعلانية » •

والمسلمون لا يفتقدون علماءهم كما يفتقدونهم في حالتين : جهل بالدين ، وعدوان عليه ، فاذا كان الجهل كانوا ألسنة الحق التي تكشف الشبهات ، وتزيح المفتريات ، واذا كان العدوان كانوا ألسنة الصدق التي تضع الأمور في مواضعها ، فلا ضعيف يُظلم ، ولا فقير يُهان ، ولا شعب يُضطهد ، ولا طاغية يتأله ، ثم كانوا من وراء ذلك الحكمة التي ترد للمجنون عقله ، والقوة التي تكبح في الطاغية طيشه • وبذلك كانوا : كالشمس للدنيا وكالعافية للناس •

أما وقد تحدثنا عن مختلف مظاهر الضعف في أخلاقنا الاجتماعية ، فقد وجب أن نمسّ برفق وحذر ، أخلاق علمائنا في العصر الحاضر ، وموقفهم من أرزاء المجتمع ومشكلاته ، وصفاتهم التي تقربهم أو تبعدهم

عن أخلاق صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، وأخلاق صحابته وعلماء الصدق والتقى في تاريخ الاسلام .

قد لا نخطىء الصواب حين نصنف علماءنا اليوم الى خمسة اصناف :

الصنف الاول : علماء أبرار أتقياء ، مخلصون لله في عبادتهم وعلمهم ، ولكنهم منعزلون عن الدنيا ، لا يعرفون من مشاكل المسلمين قليلاً ولا كثيراً ، وتراهم أشبه ما يكونون بعلماء الاسلام في المئات الأخيرة من السنين ، حين غلب عليهم التصوف السلبي الانعزالي ، فاذا هم يرون النجاة والقرب من الله ، في البعد عن الدنيا وعن أهلها وعن أحداثها ، وهذا ما أدى بالمسلمين الى أن يقعوا فريسة للطغاة والظالمين في تلك العصور ، اذ ترك هؤلاء العلماء مهمة الدفاع عن حقوق المسلمين وكرامتهم وعقيدتهم ، فعاث الطغاة فساداً دون أن يجدوا من يذكرهم بالحق ، ويردهم الى الخير ، ويخوفهم نقمة الشعب ان لجوا في العدوان المبين ، كذلك فعل أسلافهم من قبل ، وكذلك هم يفعلون اليوم ، ولا أدري هل يذكرون في عزلتهم ما أوجب الله على العلماء من النصح والتعليم والهداية والذب عن حرمات الله ؟ أم يتأولون ذلك كله على ضوء بعض الأحاديث التي تحث على العزلة ، وما لأكثرها أصل في السنّة ، ولظاهر الصحيح منها تأويل يتفق مع مبادىء الشريعة وقواعدها ، ولست أدري كيف يفعلون بقول الله عز وجل : **« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (١) »** . ولمن يتركون القيام بهذا العبء ان هم سمحوا لأنفسهم أن يتخلوا عنه ؟ وهل تراهم نسوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر [٢] » ؟

---

(١) آل عمران : ١٠٤ (٢) رواه أحمد والطبراني وابن ماجه

ان القيام بالنصيحة والتعليم والدفاع عن الاسلام هو أفضل عند الله من نوافل العبادة .. ولقد فهم المسلمون الأول هذا على حقيقته ، فما استباحوا لأنفسهم أن ينقطعوا عن الناس الى العبادة مع كثرة الخير وقلة الشر في عصورهم ، فكيف في عصرنا هذا ؟ قال شهاب بن عبد الله الخولاني : خرج سعد ـ وكان من أصحاب يعلى بن أمية ـ حتى قدم على عمر المدينة ، فقال : أين تريد : فقال : الجهاد ، فقال له عمر : « ارجع فان عملاً بالحق جهاد حسن [1] » فهذا قول عمر في عالم يخرج للجهاد فكيف بمن يعتزل الناس ، ويؤثر العافية على البلاء ، والسكينة على الجهاد ، والسكوت على النصيحة ؟.. وما كان عمر بالذي يرى العمل بالحق خيراً من الجهاد لولا انه علم ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفهمه من فقه الدين وتشريعه ، قال أبو هريرة : « غزونا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء غزيرة ، فقال واحد منا : لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ! ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره للرسول فقال له : لا تفعل فان مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاته في أهله سبعين عاماً [2] » ..

ألا ليت علماء الشريعة المعتزلين أمتهم فلا ينصحون ولا يردعون .. ليت هؤلاء ذكروا دائما هذه القاعدة الخالدة من قواعد الاسلام : « ان مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاته في أهله سبعين عاماً » !..

الصنف الثاني : أوفياء للاسلام يغارون عليه ، ولكنهم طيبوا القلوب ، حسنوا النية ، يمنحون صبغة «التدين» لكل من يتقرب اليهم بتقبيل يد أو طلب دعوة أو حضور مجلس ذكر ، وكم رأينا من استطاع

---

(١) أخرجه أبو عبيدة في كتاب الاموال : ٥٩٧ (٢) رواه الترمذي والحاكم

خداع هذا الفريق المخلص من علمائنا ، فأوصلوه الى مقاعد الحكم وندوة النيابة ، ودعوا الى تأييده في الانتخابات ، وخطبوا له في المساجد ، وهتفوا باسمه في المجالس ، وأوسعوا له المديح فيما يكتبون ويتحدثون .. وهو من أشد الناس بعداً عن الاسلام وأخلاقه ، وأكثرهم ميلاً الى خصومه وأعدائه ، ولقد كان قليل من الحذر واليقظة لدى هذا النفر من العلماء كافياً لأن يجنب المجتمع سيطرة أمثال اولئك المخادعين المتاجرين بالدين .. ولكن أنى لهم ذلك وهم قوم تغرهم المظاهر ، ويخدعهم تقبيل الأيدي وانحناء الظهور والتماس البركات ؟. وأشد ما يؤلم النفس أن تراهم وهم يحوطون هؤلاء المخادعين المتاجرين بالاسلام بالحب والتأييد، لا يألون جهداً في مهاجمة المصلحين ، وتأليب الجماهير عليهم ، وتخذيل الناس عن تأييدهم ، ولا يتورعون أن يصفوهم بالمروق وقلة الدين والاستغلال !. اي والله .. المتاجرون بالدين هم أهل الدين والتقوى عند هؤلاء !. والمنافحون عنه والمتحملون عداوة الأشرار والملحدين في سبيله ، هم أهل الاستغلال والمروق والالحاد ! . ووالله ما نظلم القوم فيما نتحدث عنهم ، « وما شهدنا الا بما علمنا » وان ضحاياهم من دعاة الاصلاح ما يزالون أحياء يرزقون ، ومن أركبوهم فوق ظهور الناس لايزالون فجاراً يعبثون ، ويرحم الله عمر الذي كان يقول: «لست بخب والخب لا يخدعني » واذا كان مالك رحمه الله يقول : « ان من شيوخي من أستسقي بهم المطر ولكني لا أقبل أحاديثهم » لغفلتهم وانخداعهم بالناس، فهل ترى من مصلحة الاسلام والمسلمين أن يفسح لأمثال هؤلاء أن يسهموا في قيادة الجماهير ، أو يتدخلوا في السياسة ، أو يوجهوا أمور الدولة ؟ ! لقد كنا ننكر على من يقول ذلك ونعتبره حرباً على الاسلام والمسلمين .. أما الآن فاللهم لا ! . أللهم لا ! ..

الصنف الثالث : علماء غيورون على الدين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكنهم يغفلون عن روح الشريعة ورسالتها الاجتماعية ،

انك لتراهم يعنون بالصلاة والصيام وشعائر الدين دون غيرها من مقاصد الشريعة ، وهم لا يهتمون بها على انها مدرسة لتعليم الناس وتهذيب أخلاقهم واستقامة سيرتهم كما يتحدث القرآن عنها : « **تنهى عن الفحشاء والمنكر** [1] » ولكنما يعنون بها كما تقع من الناس اليوم : طقوساً باهتة لا تهذب خلقاً ، ولا تطهر روحاً ، ومن أجل ذلك تراهم يرضون عن الرجل يصلي معهم في المساجد ، ويسرع الى اجابة النداء ، وهو آكل للربا ، ظالم للناس ، معتد على أموالهم ، مستغل لجهودهم ، انهم يرضون عنه كل الرضى اذ يرونه صائماً يعظم العلماء .. وهو سفاك هتاك للأعراض والحرمات .. كأن هذه الصلاة يريدها الاسلام ستاراً للخداع والتضليل ، أو كفارة عن الجرائم الاجتماعية الكبرى .. انهم يغفلون عن حديث يرددونه في حلقاتهم العلمية كثيراً ، حديث تلك المرأة التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تقوم الليل وتصوم النهار ولكنها تؤذي جيرانها ! . فقال عليه السلام : « هي في النار [2] » وينسون ما يرددونه في خطبهم ومجالسهم من « أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض [3] » .

ومن العجيب أن غيرتهم على الدين تحملهم على انكار المنكرات الفردية التي تقع من بعض الناس ، فينكرون على من يلبس الخاتم من الذهب — وهو حرام في الشريعة — ولا ينكرون على الحاكم الذي يرتشي ، والغني الذي لا يزكي ، والنائب الذي لا يبالي بكرامة الشعب وصيانة حقوقه ، ولو سألتهم وهم العلماء بالشريعة : أيهم أعظم اثماً عند الله : من يرتكب معصية التختم بالذهب ؟ أم معصية الذي يأكل الحقوق ، ويخون الشعب ، ويظلم عماله وفلاحيه ؟ لما حاروا جواباً ولما وجدوا بداً

---

(1) العنكبوت : ٤٥ (2) رواه احمد والحاكم (3) رواه البخاري وغيره

من الاعتراف بأن الآثام الاجتماعيـة التي تتعلق بحقوق الشعب أكبر جريمة عند الله من الآثام الفردية التي لا تؤذي الا صاحبها •

وهؤلاء مع اهتمامهم بالحقير الصغير ، وغفلتهم عن العظيم الخطير من شؤون الأمة ، جامدون في فهم نصوص الشريعة ، يستمدون أحكامها من كتب المتأخرين ، على أنها شريعة أنزلها الله لا يجوز البحث فيها أو العدول عنها ، ولو تغير العرف وتبدلت المصلحة ، وأصبحت دنيا الناس اليوم غير دنياهم بالأمس !•• واذا طلبت اليهم أن يعملوا عقولهم وفقههم في نصوص المتأخرين على ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها العامة ، ولّوا عنك وجوههم وهم يصرخون : أنت رجل تريدنا على أن نجتهد ؟ لقد أغلق باب الاجتهـاد ! وما نحن بالذين نريـدهم على أن يكونوا مجتهدين كأبي حنيفة والشافعي ، ولكنما نريدهم فقهاء بشريعـة الله فاهمين لمقاصدها ، لا حفّاظاً للفروع الفقهية من غير نظر وتدبر ، نريدهم أن يعيشوا في زمنهم لا في زمن الماضين ، وأن يفهموا عادات قومهم وبلادهم لا عادات الغابرين الأقدمين ، وهم يعلمون قبـل غيرهم أن الأحكام المبنية على عرف تتغير اذا تغير العرف ، وأن كثيراً من أحكام الفقه نصوص اجتهادية استنبطها الفقهاء على ضوء الأعراف والعادات القائمة ، وهم كانوا يعلموننا في حلقات دروسهم « لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان » وأن كثيراً من وجوه الخلاف بين الامام أبي حنيفة وصاحبيه مثلاً ، خلاف عرف وعادة لا خلاف نص ودليل ، فاذا كان هذا بين الامام وصاحبيه وهم في عصر واحد ، فكيف لا يكون ذلك بيننا وبين الفقهاء الذين باعدهم الزمن عنا مئات من السنين ؟ ••

وأشد هؤلاء غفلة وأقتلهـم جموداً ، من يحرصون على السنن والمندوبات ، ولا يبالون بالفرائض والمحرمات ، فلا همّ لهم حين يجتمعون الى الشباب الا أن ينكروا عليهم حلق لحاهم وكشف رؤوسهم وتصفيف

شعورهم ، قبل أن يهتموا بحفظ عقائدهم وصيانة ايمانهم ، واذا ساق القدر اليهم شاباً ذا نزعة دينية كان أول ما يحملونه عليه أن يطلق لحيته ، ويعفِّر شعره ، ويعتزل الناس ، وينصرف الى المساجد ، ويكثر من الأذكار والأوراد ، وأنا لا أنكر أن اللحية ودخول المساجد وذكر الله من آداب الاسلام وسننه ، ولكني أنكر أن نقتلع شبابنا من عصرهم الذي يعيشون فيه ، لنغرسهم مع الموتى قبل مئات السنين ! ان عصرنا الذي نعيش فيه عصر حركة وعمل وتطور عجيب سريع ، فلا يتحمل منا هذه البلادة المتزمتة ، ولا هذه الروحانية السلبية ، ولن يحتمل الشباب هذا الجو مهما استجابوا له أول الأمر ، ولابد من أن يغلبهم الزمن ويجرفهم التيار ، فاذا لم نهيئهم له كانت النكسة شديدة ، والردة قاسية مؤذية .. وقد شاهدنا هذا فيما رأيناه من بعض الشباب الذين انجرفوا في تيار الروحانية المتبلدة السلبية ، فاذا هم بعد حين من أفجر الشباب وأشدهم كرهاً لتعاليم الاسلام وأدبه الراقي الكريم !.

الصنف الرابع : علماء فجار أشرار ، يتكسبون بالدين ، ويتاجرون بالشريعة ، ويتقربون الى كل فاجر وطاغية وظالم وسارق بالتأييد والدعاء .. وكم ابتلي الاسلام بأمثال هؤلاء ! وكم كانوا عليه نكبة في تاريخه القديم والحديث ! أو ما بلغك عن شيخ الأزهر الذي أفتى بكفر الاخوان المسلمين واخراجهم من حظيرة الدين ؟ أو ما بلغك عنه أنه أيد الغاء المحاكم الشرعية وذهب الى الطاغية يهنؤه على هذه الخطوة التقدمية ؟ أو ما رأيت كيف يسارع باصدار الفتاوى الى الطغاة بمهاجمة خصومهم من دعاة الاسلام والحق والفضيلة ، بينما هو يسكت عن جرائم التحلل الأخلاقي الذي ينشره الظالمون ، وعن مهاجمة الاسلام والأزهر — الأزهر الذي يأكل شيخه باسمه ويعيش من ورائه — ذلك لأنه فيما يهاجم وفيما يسكت ، انما يتوخى رضا الحاكم المستبد ويخشى غضبه وسطوته ؟ فأية قيمة لعلم يلعن صاحبه في الدنيا ويورده في الآخرة عذاب الجحيم ؟

أية قيمة لعلم يجعل صاحبه كالحذاء في رجل الحاكم الظالم يلبسه متى يشاء ويخلعه متى يشاء ؟ أية قيمة لعلم يأكل به صاحبه دينه قبل أن يأكل دين الشعب ، ويدوس به كرامته قبل أن يسمح للطغاة أن يدوسوا كرامة الناس ؟

يرحم الله محمد بن واسع ما أعظم فقهه في دين الله حين كان يقول : « لأن تطلب الدنيا بأقبح مما تطلب الآخرة ، خير من أن تطلبها بأحسن مما تطلب به الآخرة !.. » اي والله ! لذَلك الفاسق الفاجر الذي يرتكب كل معصية لتكون له الأموال واللذات .. أقرب الى الله من ذلك العالم الفاجر الذي يمشي في ركاب الطغاة ، ويمرغ وجهه على اعتاب الظالمين ، ليضمن رئاسة أو جاهاً ، أو ليتأثل مالاً أو متاعاً .. وفي بعض الآثار : ان الزبانية لأسرع الى فساق حملة القرآن منهم الى عبدة الأوثان ، فيشتكون الى الله ، فيقول : ليس من علم كمن لم يعلم !..

وليست جريمة هؤلاء في أنهم يأكلون الدنيا بالدين ، ويغضون عن جرائم الظالمين لينعموا بالرئاسة أو الوزارة أو الوظيفة ، ويرقصون على جثث اخوانهم من دعاة الاسلام ، وينعمون على حساب بؤسهم وتشردهم واضطهادهم ، كما يقول المثل العربي « نَعِم كلبٌ ببؤس أهله » .. ليست جريمة هؤلاء في هذا فحسب ، بل الجريمة في رأينا أنهم خانوا الله ورسوله وأمانة المسلمين ، خانوا أمانة الأمة فباركوا اللص وقد كان من حقها عليهم أن يمسكوه متلبساً بالجريمة ثم لا يفلتوه الا بالعقاب أو المتاب ! وأيدوا « الجزار » وقد كان من حقها عليهم أن ينتزعوا منه السكين لا أن يشحذوها لتكون أمضى في رقاب العابدين والمصلحين والمجاهدين ! وانتصروا للطغيان وقد كان من حقها عليهم أن يثوروا في وجهه ليحملوه على الاستقامة أو يسلموه الى الهزيمة ، فان لم تكن في أعصابهم دماء الثائرين ، فلتكن في نفوسهم عزة الرجال حين يرادون

على الضيم فيقولون : «لا» فان فقدوا في أعصابهم جرأة الأبطال ، وفي نفوسهم كرامة الرجال ، فهلا حياء كحياء النساء المصونات ينأين بسمعتهن عن معاشرة الدعَّار ونظرات الأشرار ؟ ! ..

وحين يخون هؤلاء – وهم يلبسون لباس الدين – أمانة الشعب ويتعاونون مع جزاريه ولصوصه ، يكونون أسوأ دعاية للدين في أوساط الملحدين ، وأكبر عامل على يأس الناس من دينهم وتحولهم الى عقيدة أخرى تنقذهم من الظلم والعبودية .. فماذا ينفع الدين بعدئذ أن يدعو هؤلاء اليه ويسخروا أقلامهم لنصرته ولو كانت لهم فصاحة سحبان ، وعلم أبي حنيفة ، وأدب ابن المقفع ؟ ! .. ومن الذي يصدقهم بعد ذلك في الايمان بما يقولون وما يدعون ، وأعمالهم كانت تكذبهم وتستنزل عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ؟ ..

الصنف الخامس: علماء مصلحون يفهمون الشريعة على أنها نظام للمجتمع ، واسعاد للناس ، وتحرير للجماهير ، وهؤلاء على ندرتهم يُقاوَمون من الأصناف الأربعة السابقة من العلماء، كما يُقاومون من أعداء الاسلام ودعاة الاباحة ، بل ان الحرب الذي يشنه أولئك العلماء على هؤلاء المصلحين أشد وأنكى وأضر بالاسلام والمسلمين من حرب الملحدين والمتحللين ، ولقد رأينا بأعيننا كيف تشن عليهم الحملات الظالمة من فريق المتزمتين والمعتزلين والمتجرين بالدين وأعوان الظلمة والطغاة ، بما يوهن الصف الاسلامي ، ويفتح فيه الثغرات لأعداء الاسلام وأعداء الشعب على السواء . ان في سجون مصر الآن علماء يقطعون الأحجار ، ويلبسون ثياب المجرمين ، ويعاملون بالزراية والمهانة ، لأنهم فهموا العلم جهاداً ونصيحة وتعباً ومعاملة مع الله عز وجل ، فاذا رأوا المنكر أنكروه ، واذا التقوا مع الجاهل نصحوه ، واذا ابتلوا بالظالم وقفوا في وجهه ليردوه ويهدوه ، واذا كانوا مع مستغلي الشعب من أغنياء وزعماء ورجال

أحزاب ، واجهوهم بالحق الذي جعله الله أمانة في أعناق الذين أوتوا العلم . هذه هي جريمتهم التي زجوا من أجلها بالسجون ، وقيدت أرجلهم بالحديد ، وسيقوا الى مقالع الأحجار كما يساق القتلة واللصوص والأشرار والمجرمون ! وياليتهم سلموا من ألسنة اخوانهم من علماء الدنيا الذين سخرهم الطغيان ليخدعوا الناس باسم الدين ، فاذا هم أداة تخدير للشعب ، وزراية بالعلماء المصلحين ، وتمجيد للفسقة والمغتصبين. لقد كان ما يلقاه اولئك المصلحون المعذبون ممن يتسم بسمة العلم ، أشد مما يلقونه من ألسنة الجاهلين وسياط السفاحين ! ..

وهؤلاء العلماء المصلحون غرباء عن مجتمعهم ، غرباء عن جماعتهم ، غرباء عن حكامهم ورؤسائهم ، يحملون من هموم الشعب ما لا يحمله رجال السياسة مجتمعين ، ويعيشون في أوساط الشعب عيشة تشبه عيشة الأنبياء والقديسين ، فهل سلمت لهم بعد ذلك أعراضهم وكراماتهم، هل سلم دينهم من تحامل المتطفلين على الدين الآكلين به ؟ هل سلمت سيرتهم من تشويه الاقلام المستأجرة من كتاب وصحفيين ؟ هل سلمت حياتهم من التهديد بالقتل والاغتيال والسجن والتشريد من قبل الطغاة أو الساسة المتحكمين ؟ ..

هؤلاء على قلتهم ومحنتهم والعداوات التي تحيط بهم ، هم وحدهم الأمل المرتجى لنهضة الأمة وتحررها وانعتاقها من الفوضى والجهل والخمول والاستغلال والاستعباد .. هؤلاء هم الذين يعيشون في مجتمعنا : كالروح للجسم ، والهواء للرئتين ، و « الشمس للدنيا ، والعافية للناس » .

وبعد ، فالى العلماء والطلاب أسوق هذه النماذج من العظمة الخالدة لعلمائنا عسى أن تكون لنا فيها العظة والأسوة :

١ ــ شهد الفضل بن الربيع وزير الرشيد عند أبي يوسف القاضي فلم يقبل شهادته ، فعاتبه الخليفة في ذلك وقال له : لِمَ رددت شهادته ؟

قال أبو يوسف : لأني سمعته يوماً يقول للخليفة أنا عبدك ، فان كان صادقاً فلا شهادة للعبد ، وان كان كاذباً فلا شهادة للكاذب ، واذا لم يبال في مجلسك بالكذب ، فلا يبالي به في مجلسي ، فعذره الخليفة •

٢ ـ دخل عمرو بن عبيد على المنصور فقال له : يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل يقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وان الأمة خصماؤك يوم القيامة ، وان الله عز وجل لا يرضى منك الا بما ترضاه لنفسك ، ألا وانك لا ترضى لنفسك الا بأن يُعدل عليك ، وان الله عز وجل لا يرضى منك الا بأن تعدل على الرعية ، يا أمير المؤمنين : ان وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور،والله ما يُحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فبكى المنصور ، فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور : ياعمرو ! قد شققت على أمير المؤمنين ! فقال عمرو : يا أمير المؤمنين من هذا ؟ قال : أخوك سليمان بن مجالد ، فقال له عمرو : ويلك ياسليمان ! ان أمير المؤمنين يموت ، وان كل ما تراه يفقد ، وانك جيفة غداً بالفناء ، لا ينفعك الا عمل صالح قدمته ، ولَقربُ هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك ، اذ كنت تطوي عنه النصيحة وتنهي من ينصحه ، يا أمير المؤمنين : ان هؤلاء اتخذوك سلّماً الى شهواتهم ، قال المنصور : فأصنع ماذا ؟ ادع لي أصحابك أولّهم ، قال عمرو : ادعهم أنت بعمل صالح تحدثه ، ومُرْ بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس ، واستعمل في اليوم الواحد عمالاً كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره ، فوالله لئن لم تقبل منهم الا العدل ، ليتقربن به اليك من لانية له فيه •

٣ ـ قال عمر بن حبيب القاضي : حضرت مجلس الرشيد يوماً ، فجرت مسألة فتنازعها الخصوم وعلت الأصوات فيها ، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فدفع بعضهم

الحديث ، وزادت المدافعة والخصام ، حتى قال قائلون منهم : ابو هريرة متَّهم فيما يرويه ، وصرحوا بتكذيبه ! ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم ، فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر الي الرشيد نظر مغضب ! وانصرفت الى منزلي ، فلم ألبث أن جاءني غلام فقال : أجب أمير المؤمنين اجابة مقتول ، وتحنَّط وتكفَّن ، فقلت : اللهم انك تعلم أني دفعت عن صاحب نبيك ، وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه فسلِّمني منه ، وأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي ، حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف وبين يديه النطع ، فلما بصر بي قال : يا عمر بن حبيب ، ما تلقَّاني أحد من الدفع والرد لقولي بمثل ما تلقيتني به وتجرأت علي ! فقلت : يا أمير المؤمنين ! ان الذي قلتَه ووافقتَ عليه وملتَ اليه وجادلتَ عنه ، ازراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما جاء به ، فانه اذا كان اصحابه ورواة حديثه كذابين ، فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة ، فالله الله يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصغي اليه ، وأنت أولى أن تغار لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم ! فلما سمع كلامي رجع الى نفسه ثم قال : أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله ! أحييتني أحياك الله ! أحييتني أحياك الله !

٤ ــ كان لسعيد بن المسيب الامام التابعي الجليل رأي في عدم جواز البيعة بولاية العهد لاثنين معاً ، وأراد عبد الملك أن يأخذ البيعة لولديه الوليد وسليمان ، فطلب الى ولاة الأمصار أن يأخذوا البيعة لهما ، فكتب اليه والي المدينة بأن أهلها قد أطبقوا على البيعة الا سعيد بن المسيب ، فكتب اليه عبد الملك أن يعرض ابن المسيب على السيف ، فان اصر على رأيه فليجلده خمسين جلدة ، وليطف به أسواق المدينة ، فلما

قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار وعروة بين الزبير وسالم ابن عبد الله على سعيد بن المسيب وقالوا له : جئناك في أمر ، قد قدم كتاب عبد الملك ان لم تبايع ضربت عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً فأعطنا احداهن ، فان الوالي قد قبل منك أن يُقرأ عليك الكتاب فلا تقول « لا » ولا « نعم » قال سعيد : يقول الناس بايع سعيد بن المسيب ! ما أنا بفاعل ! وكان اذا قال : لا ، لم يستطيعوا أن يقولوا : نعم، قالوا فتجلس في بيتك ولا تخرج الى الصلاة أياماً فانه يقبل منك اذا طلبك في مجلس فلم يجدك ، قال سعيد : فأنا أسمع الأذان فوق أذني حي على الصلاة وحي على الفلاح ؟ ما أنا بفاعل ! قالوا : فانتقل من مجلسك الى غيره فانه يرسل الى مجلسك فان لم يجدك أمسك عنك ، قال سعيد : أفَرَقاً من مخلوق ؟ ما أنا بمتقدم شبراً ولا متأخر ! فخرجوا وخرج الى صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه ، فلما صلى الوالي بعث اليه فأتى به ، فقال : ان أمير المؤمنين كتب يأمرنا ان لم تبايع ضربنا عنقك ، فقال سعيد ، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين ، فلما رآه لم يجب ، عرضه على السيف ومدت عنقه للضرب ، فلما رآه الوالي مصراً على امتناعه أمر به فجرد من ثيابه فاذا عليه ثياب من شعر ! فضربه خمسين سوطاً ثم طاف به اسواق المدينة !

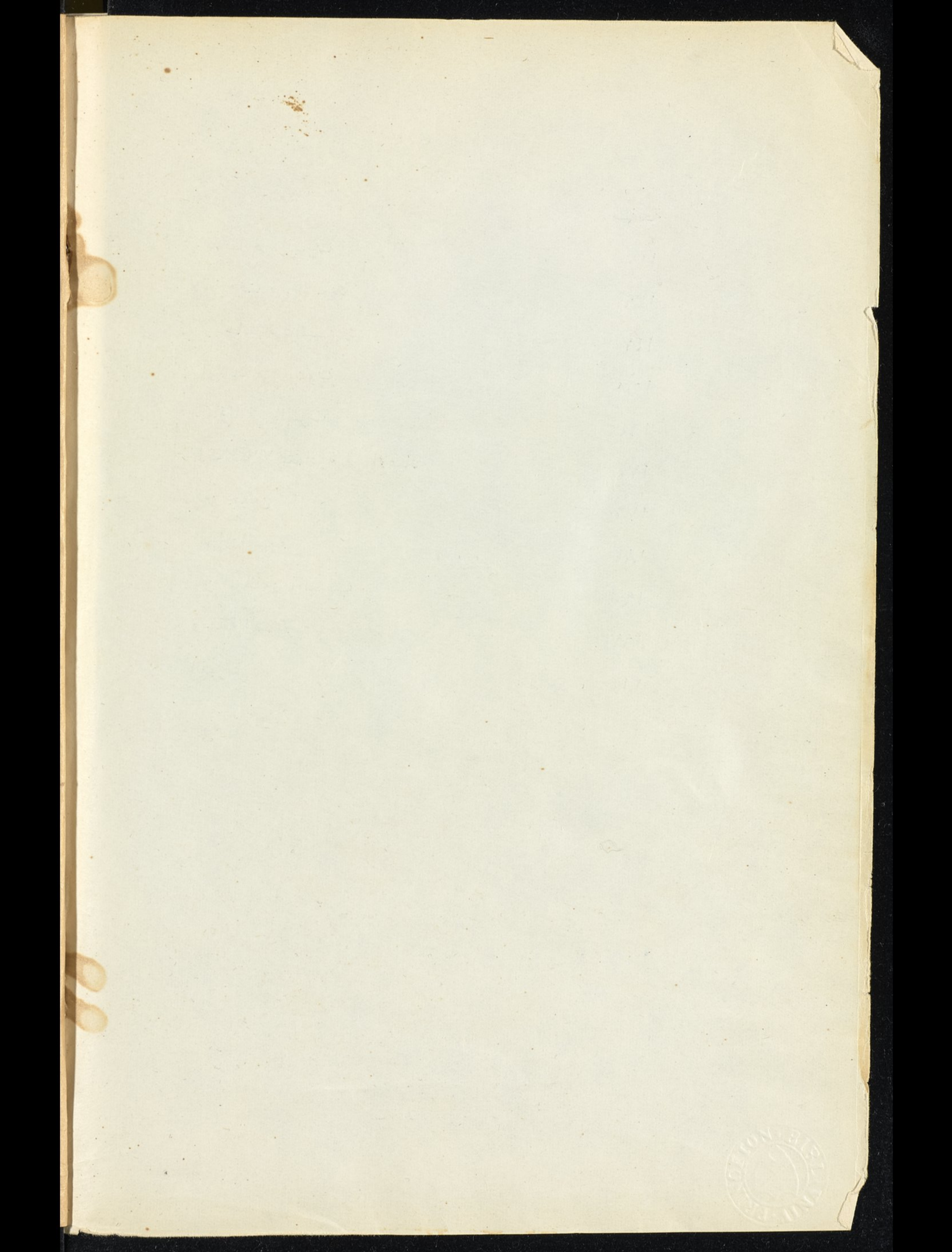
٥ ـ أتت امرأة يوماً شريك بن عبد الله قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم ، فقالت : أنا بالله ثم بالقاضي ! قال : من ظلمك ؟ قالت: الأمير (أمير الكوفة) موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين ، وقصت عليه شكاتها ، في انه انتزع منها بستانها بعد أن عرض عليها بيعه فرفضت، فأرسل القاضي غلامه بكتاب منه يستدعيه الى مجلس القضاء ، فاستدعى الأمير صاحب الشرطة وقال له : امض الى شريك وقل يا سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك ! امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها علي ؟ فقال صاحب الشرطة للأمير : ان رأى الأمير أن يعفيني من ذلك ! فقال :

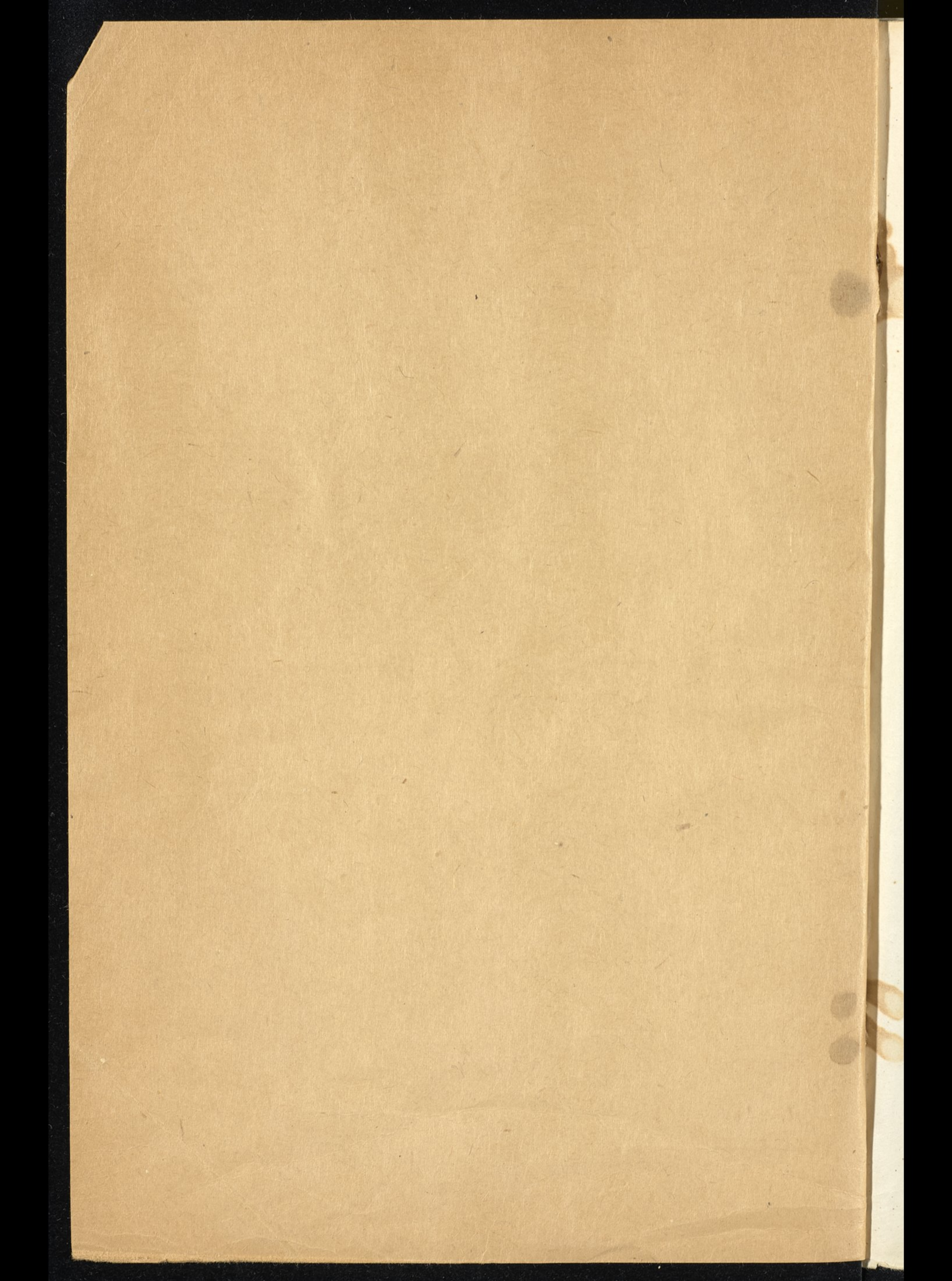
امض ويلك ! فخرج وقال لغلمانه : اذهبوا وأدخلوا لي الى حبس القاضي بساطاً وفراشاً وما تدعو الحاجة اليه ، ثم مضى الى شريك ، فلما وقف بين يديه أدى الرسالة ، فقال القاضي لغلام المجلس : خذ بيده (اي بيد رئيس الشرطة) فضعه في الحبس ، فقال صاحب الشرطة : والله قد علمت أنك تحبسني فقدمت ما أحتاج اليه الى الحبس ، وبلغ موسى بن عيسى الخبر ، فوجه الحاجب اليه وقال له : رسول أدى رسالة ، أي شيء عليه حتى تحبسه ؟ فقال شريك : اذهبوا به الى رفيقه الى الحبس فحبس ، فلما صلى الأمير موسى العصر ، بعث الى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي وقال لهم : امضوا الى القاضي وأبلغوه السلام وأعلموه أنه استخف بي ، وأني لست كالعامة ، فمضوا اليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة ، فلما انتهوا من كلامهم ، قال : مَن ههنا من فتيان الحي ؟ فأجابه جماعة من الفتيان ، فقال : ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به الى الحبس ، ما أنتم الا فتنة ، وجزاؤكم الحبس ! قالوا له : أجادٌ أنت ؟ .. قال : حقاً حتى لا تعودوا برسالة ظالم ، فحبسهم ، فركب موسى بن عيسى في الليل الى باب السجن ، وفتح الباب وأخرجهم كلهم ، فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء ، جاءه السجان فأخبره ، فكتب الى الوالي كتاباً وقال لغلامه : الحق بثقلي (متاعي) الى بغداد ، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم ولكن أكرهونا عليه ، ولقد ضمنوا لنا فيه الاعزاز اذ تقلدناه لهم ، وخرج نحو قنطرة الكوفة الى بغداد ، وبلغ الخبر الى موسى بن عيسى فركب في موكبه ولحقه وجعل يناشده الله ويقول : يا أبا عبد الله ! تثبت ! أنظر ! اخوانك تحبسهم ! دع أعواني ! قال : نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه ، ولست ببارح أو يردوا جميعاً الى الحبس ، والا مضيت

الى أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه مما قلدني ، فأمر موسى بردهم جميعاً الى الحبس وهو واقف مكانه ، حتى جاءه السجان فأخبره برجوعهم جميعاً الى السجن ، فقال لأعوانه : خذوا بلجام دابته (أي الأمير) بين يدي الى مجلس الحكم ، فمروا بين يديه حتى أدخل المسجد ، وجلس في مجلس القضاء ، وجاءت المرأة المتظلمة وأجلسها مع الأمير بين يديه ، فقال الأمير : أنا قد حضرت ، أولئك يخرجون من الحبس ! فقال القاضي: أما الآن فنعم ، أخرجوهم من الحبس ، ثم سأله عن شكوى المرأة فاعترف بها ورد اليها بستانها وحقوقها ، ثم قالت للقاضي : بارك الله عليك وجزاك خيراً ، ثم قامت من مجلسه ، فلما فرغ قام وأخذ بيد الأمير وأجلسه في مجلسه وقال : السلام عليك أيها الأمير ! أتأمر بشيء ؟ فقال الأمير : أي شيء آخر ؟ وضحك ، فقال له شريك القاضي : أيها الأمير ! ذاك الفعل حق الشرع ، وهذا القول الآن حق الأدب ! فقام الأمير وانصرف الى منزله وهو يقول : من عظّم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه !..

ولا نريد أن نذكر عظمات سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، وما فعله من انكار المنكر حين ولي القضاء في مصر ، وكيف ضرب على أيدي الظلمة حتى أدى به الأمر الى بيع أمراء مصر جميعاً ! .. فتلك مما عرفت وذاعت ، وحسبنا أن نذكر بعد هذا كله حاجة المجتمع الى عدد من طراز هؤلاء العلماء ، يثبت الله بهم الحق ، ويعلي بهم كلمة الخير ، وينصر باخلاصهم وجرأتهم قضايا الشعب مع الطغاة الظالمين . فهل ينقذ الله الأمة بايجاد أمثال هؤلاء العلماء ؟ اننا لا نيأس من روح الله ! ..

الفهرس





المطبعة الجديدة ـ دمشق ١٩٥٦

